
مع المصطفى
عليه الصلاه والسلام


بسم الله الرحمن الرحیم

مع المصطفی علیه الصلاة والسلام

کاتب:

عائشة عبد الرحمن بنت الشاطی

نشرت فی الطباعة:

دارالکتاب العربی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

مع المصطفى عليه الصلاة والسلام

اشارة

سرشناسه : بنت الشاطی عائشه

Bint al - Shati

عنوان و نام پدیدآور : مع المصطفی علیه الصلاة والسلام عائشة عبدالرحمن

مشخصات نشر : بیروت : دارالکتاب العربی ، ۱۴۰۳ق = ۱۹۸۳م = ۱۳۶۲.

مشخصات ظاهری : ص ۳۳۵

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی

یادداشت : کتابنامه به‌صورت زیرنویس

موضوع : محمد (ص ، پیامبر اسلام ۵۳ قبل از هجرت - ۱۱ق -- سرگذشتنامه

موضوع : اسلام -- تاریخ -- از آغاز تا ق۴۱

رده بندی کنگره : BP۲۲/۹/ع۲۲۷م۶

شماره کتابشناسی ملی : م۸۱-۲۰۹۱۱

هذا الكتاب

مع المصطفى عشت من يوم مولدى، آيات معجزته كانت أول ما يصل إلى سمعى مع نور الفجر، يتلوها والدى التقى العابد، فى تهجده وصلاته. وأحاديثه الشريفة كانت مع آيات القرآن، الزاد الروحى الذى تعيش به بيئتى المتدينة، من قبل أن أعرف الدنيا. وسيرته الزكية العطرة، كانت أنس دنيانا، من قبل أن تحل عنى تمائم الصبا. والمدائح النبوية والاناشيد الصوفية، كانت أول ما لمس وجدانى وأرهف إحساسى، من يوم بدأت خطوتى الاولى على درب الحياة. ومع المصطفى عشت وأنا أستقرئ ما وعى التاريخ من تراجم سيدات بيت النبوة، فأجتلى ملامح شخصيته صبيا فى (أم النبى) [صفحه ۱۰] وزوجا فى (نساء النبى) وأبا فى (بنات النبى). وأتمثل حياته صلى الله عليه وسلم فى بيته، حيث تلاقت البشرية بالنبوة، واتصلت الارض بالسماء. ثم، مع المصطفى نبيا رسولا، أمضيت حياتى العلمية منذ استشرف بى أستاذى (أمين الخولى) إلى الافق الرحب الذى طمحت إليه فى دراساتى القرآنية، وقاد خطاى على الطريق الصعب لاجتلى أسرار البيان المعجز. وإذ بسر الله وأعان، فقدمت إلى المكتبة الاسلامية محاولتى المنهجية فى (التفسير البيانى للقرآن الكريم) ودراستى القرآنية (مقال فى الانسان) وأتممت دراستى لما شغلنى أعواما من (الاعجاز البيانى للقرآن). استروحت إلى صحبة المصطفى عليه الصلاة والسلام، فإذا بى فى فيض من سناه، قد طويت أبعاد المكان وآماد الزمان، إلى مسرح الاحداث الكبار التى بدأ بها عصر جديد للانسان، وعشت بوجدانى وفكرى مع المصطفى من مهد مولده إلى غار حراء، ثم إلى مثواه فى المدينة المنورة. ثم لم أشأ، بل لم أستطع، أن أنصرف عن هذه الصحبة مع المصطفى، فكأنى إذ أعكف على كتابتها أطيل مدى أنسى بها، وألتمس من مشاركة أصدقائى القراء، ما يضاعف لى عطاءها السخى. [صفحه ۱۱] وما أقدمه إلى قومى من حديث هذه الرحلة (مع المصطفى) عليه الصلاة والسلام، ليس التاريخ وليس السيرة، وانما هى مشاهد مما اجتليت سيطرت على وجدانى، ومواقف شدت إليها تأملى بجاذبية آسرة، وارتبط فيها الماضى الحى بالحاضر المشهود، فما تتجلى لنا رؤيا الامس إلا فى غمرة من ظلال اليوم، ولا نستروح عطر التاريخ مع المصطفى، إلا مشوبا بأنفاس الواقع الكابى الذى تعيشه أمة الاسلام، فى صراعها مع أعداء النور وأولياء الشيطان: (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان

ضعيفا). صدق الله العظيم [صفحه ۱۵]

اليتيم الهاشمی

ام القری، والبيت العتيق

(وإذ جعلنا البيت مثابـة للناس وأمنا واتخـذوا من مقام ابراهيم مصلی، وعهـدنا إلی إبرهيم واسـمعيل أن طهرا بيتی للطائفين والعاكفين والركع السـجود. (صـدق الله العظيم) تاريـخ الاديان يعی تماما، ما سبق الاسـلام من بوادر آذنت بوشك فجر جديد لا بد أن ينسخ ما تراكم علی أفق الـدنيا من ظلمات ليل طال... ولكنه قد يضع هذا السؤال: لماذا كانت مكة أرضا لمبعث خاتم الانبياء، وقد كانت مركز [صفحه ۱۶] الوثنيـة العربية، وليست فی ظاهر الحال أولی من بلاد أخری كانت مهدا للانبياء، ومبعثا لرسالات دينية سـبقت الاسـلام ؟ المؤمنون لاـ يترددون فی أن يتلوا كلمته تعالی: (الله أعلم حيث يجعل رسالته) ثم لا يجـدون حرجا فی أن يتـدبروا، كما أمرهم دينهم، حكمته تعـالی فی سـننه، وأن ينظروا فی واقـع الحيـاة قبـل المبعث، وموضـع منزل الوحی فی عـالم كـان، حينـذاك، يريـد أن ينقض ! وتاريخنا الـدينی يمكن أن يعطينا ما ندرك منه الحكمة فی اصـطفاء مكة لمبعث خاتم المرسـلين. وقد كانت من قديم العصور والآباد حرما مقدسا، وعلی أرضـها قام أول بيت عبد فيه الله سبحانه علی الارض. ولا ندری تماما، الظروف التی تداعی فيها بنيان ذلك البيت العتيق، ونفـذت إليه ظلالـ وثنيـة دنست حرمه، حتی تلقی (ابرهيم الخليـل) أمر ربه بأن يرفع، هو وولـده اسـماعيل، القواعـد من البيت ويطهراه للطـائفين والعـاكفين والركع السـجود. وبـأمر الله تعالی، أذن ابرهيم فی الناس بالحـج إلی البيت العتيق، فأتوه رجالا وعلی كل ضامر يأتين من كل فـج عميق. ومن ذلك الزمن الموغل فی الماضـی السـحيق، رسـخت مكانـة مكة فی تاريخنا الدينی. ولكن الوثنية عادت فتسللت إلی حرمها، مع أوثان وأصنام كانت فی أول الامر رموزا للخالق المعبود، ثم فقدت رمزيتها وصارت معبودات. [صفحه ۱۷] وظـل لمكـة مع ذلك، مركزها الـدينی لا تنازعها فيه بلـدة أخری. وبقيت مثابـة حـج العرب فی الجاهليـة الوثنيـة، علی مر الحقب والادهـار. وكأنمـا كـان البيت العتيق فيها، ذكری شاخصـة من عهـد إيمانها القـديم، يحمی بقيـة من الوعی كامنـة فی العمق الغائر من ضمير الجاهليين، عبـدة الاوثان والكواكـب: (ولئن سألتهم من خلق السـموات والارض وسـخر الشـمس والقمر ليقولن الله). ومع رسوخ الوثنيـة العربيـة فی مكة إبان الجاهلية، لم تسـتطع قط أن تطوی تماما ذكريات ماضـيها الدينی وتلقی به فی متاهة النسـيان. وكان الزمن كلمـا تقـدم بهـا هزتهـا رجفـة الوعی فخامرهـا ريب فی تلـك الاوثـان التی تكـدست فی حرم بيتهـا العتيق، لم تنس بهـا خالقهـا، وإن أشـركتها معه، سبحانه، فی التعبد. وكانت القبائل العربية تحج إلی الكعبة فی الموسم، وتطيف كل قبيلة بوثنها ضارعة ملبية، فتذكر الله من حيث تدری أو لا تدری، وترفع إليه الضراعة والنجوی، إما بمنطق الشرك كتلبية أهل فدك، وفيها أصنام: لبيك إن الحمد لك - والملـك لاـ شـريك لـك إلا شـريك هو لك - تملكه وما ملك أبو بنات بفـدك أو علی وجه الملاذ إليه وحـده فی الحـج، وترك أصنامهم، فی [صفحه ۱۸] منازل القبيلة، ابتغاء رضوانه، كتلبية (همدان) فی الجاهلية لبيك رب همدان - من شاحط ومن دان جئناك نبغی الاحسـان - بكـل حرف مـذعان نطوی إليـك الغيطـان - نأمـل فضـل الغفران لبيـك مع كل قبيل لبوك - همـدان أبناء الملوك تـدعوك قـد تركوا أصـنامهم وانتـابوك - فاسـمع دعـاء فی جميع الاملوك [۱] ومؤرخو الاسـلام يـذكرون مـا راج فی المنطقـة قبل المبعث، من إرهاصـات عن نبی آن مبعثه، ولاـ نجـادل من يستريب من أبناء عصـرنا فی هـذه المرويات ويحملها علی منحولات الرواة وإضافات السـمار، غير أن الواقع التاريخی يؤكـد أنها، علی أی وجه رضـيناه لها وحملناه عليها، تكشف عن تطلع الحياة قبيل الاسـلام، إلی تحول جديـد وحـاسم. وتاريـخ الاديـان العـام، يمكن أن يضـيف إضاءة أخری إلی ما قـدمه مؤرخونا عن أرض المبعث: الجزيرة العربيـة عرفت بصورة أو بـأخری، كـل الاديـان والعقائـد التی كانت البشـرية تعتنقها قبل الاسـلام. عرفت المسـيحية فی نجران والحيرة وغسان وتخوم الحبشة، [صـفحه ۱۹] واليهودية فی يثرب وما حولها من مسـتعمرات يهود شـمال الحجاز. وعرفت الصابئة عبدة النجوم

والكواكب، وسمعت عن المجوسية بحكم اتصال إمارة المناذرة العربية بالفرس... وتلاقت هذه الاديان الوافدة، مع الوثنية العربية، ومع البقية من دين ابرهيم قاومت الضياع قرونا وأدهارا، فتمثلت فی قلة من الحنفاء رفضوا عبادة الاوثان فی أخريات الجاهلية، وتجد أخبارهم بتفصيل، فی الجزء الاول من (السيرة النبوية لابن هشام). والتقاء هذه الاديان والعبادات فی المنطقة الواحدة، يمنحها فرصة التنبه إلی ما بينها من مظاهر التفاوت والخلاف، ومثار الخصومة والتنازع. كما أن توزع أهل الجزيرة العربية بين هاتيك الاديان، فی فترة من حياتهم كانت تقتضی التجمع والترابط لمواجهة التهديد الخارجی من فرس وروم وحبشة، أرهف حسهم لما داخل تدين كل طائفة من شوائب الانحراف والتعصب. فإن لم يصل بهم إلی مستوی التميز، فأدنی أثره أن يجعل المنطقة فی حيرة وتردد، لا تدری أی تلك الطوائف علی حق وأيها علی باطل. ولم تكن الفطرة العربية، قد أفسدها ما تسلط علی الفرس والروم من ترف باذخ وانحلال منهك، ولا قهرها ما تسلط علی شعوب المناطق حولها – فی الشام ومصر وما وراءها من أقطار الشمال الافريقی – من باهظ الاحتلال الذی جثم عليها قرابة ألف عام، لم تنج منه سوی [صفحه ۲۰] الجزيرة العربية التی اعتصمت بمنعتها الطبيعية، وحمتها بواديها الجرداء من مطامع الغزاة. وإنما ألقت الوثنية غشاوة علی بصيرة العربی، فتابع آباءه علی دينهم تعصبا وتوقيرا، لا يريد أن يتصور أن أسلافه الكرام كانوا جميعا علی سفه وضلال. وتراث الشعر الجاهلی لقرنين قبل الاسلام، يؤكد مع ذلك، ما كان يجتاح الوجدان العربی من قلق وحيرة، وتطلع إلی نور جديد يمزق الغشاوة ويسقط أقنعة الزيف عن عقم الوثنية ومهانة الشرك وخلل الاوضاع. لا فی ديوان المتحنفين فحسب، ولكن فی ديوان تلك الفترة بوجه عام. وفيها كان (قس بن ساعدة) يقف فی سوق عكاظ بالموسم، فيهز الضمير العربی بحكمته ومواعظه. وفيها كانت آفاق الجزيرة ترجع ما يأتيها من أسواق أم القری فی مواسم الحج، مثل قول (زهير بن أبی سلمی): فلا تكتمن الله ما فی نفوسكم – ليخفی، ومهما يكتم الله يعلم يؤخر فيوضع فی كتاب فيدخر – ليوم الحساب أو يعجل فينقم وأعلم علم اليوم والامس قبله – ولكننی عن علم ما فی غد عم [صفحه ۲۱] ومن هاب أسباب المنايا ينلنه – ولو رام أسباب السماء بسلم ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه – إلی مطمئن البر لا يتجمجم ومهما تكن عند امرئ من خليقة – وإن خالها تخفی علی الناس تعلم ألا ليت شعری هل يری الناس ما أری – من الامر أو يبدو لهم ما بدا ليا بدا لی أن الله حق فزادنی – إلی الحق تقوی الله ما كان باديا وأنی متی أهبط من الارض تلعة – أجد أثرا قبلی، جديدا وباليا أرانی إذا ما بت بت علی هوی – وأنی إذا أصبحت أصبحت غاديا إلی حفرة أهدی إليها مقيمة – يحث إليها سائق من ورائيا كأنی وقد خلفت تسعين حجة – خلعت بها عن منكبی ردائيا أرانی إذا ما شئت لاقيت آية – تذكرنی بعد الذی كنت ناسيا [صفحه ۲۲] ألم تر أن الله أهلك تبعا – وأهلك لقمان بن عاد وعاديا وأهلك ذا القرنين من قبل ما تری – وفرعون جبارا طغی والنجاشيا الا لا أری ذا إمة أصبحت به – فتتركه الايام وهی كما هيا ألم تر للنعمان كان بنجوة – من الشر لو ان امرءا كان ناجيا فغير منه ملك عشرين حجة – من الدهر يوم واحد كان غاويا فلم أر مسلوبا له مثل ملكه – أقل صديقا باذلا أو مواسيا وقول (النابغة الذبيانی) فی اعتذاره للنعمان بن المنذر: حلفت فلم أترك لنفسك ريبة – وليس وراء الله للمرء مذهب لئن كنت قد بلغت عنی وشاية – لمبلغك الواشی أغش وأكذب وقول (لبيد بن ربيعة): بلينا وما تبلی النجوم الطوالع – وتبقی الديار بعدنا والمصانع [صفحه ۲۳] وما المرء إلا كالشهاب وضوئه – يحور رمادا بعد إذ هو ساطع وما المال والاهلون إلا ودائع – ولا بد يوما أن ترد الودائع وكانت حرمة البيت العتيق تفرض علی العرب جميعا حرمة حماه فی أم القری، ورسخ فی اعتقادهم (أن مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا، ولا يبغی فيها أحد علی أحد إلا أخرجته، ولا يريدها ملك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه. فيقال إنها ما سميت ببكة، إلا لانها كانت تبك – تكسر – أعناق الجبابرة إذا أحدثوا فيها شيئا) . وبلغ من حرمة مكة عند القوم، أن تناقلت الاجيال إلی عصر المبعث ما تذكره السيدة عائشة أم المؤمنين فتقول: (ما زلنا نسمع أن أسافا ونائلة – من أصنام العرب فی الجاهلية – كانا رجلا وامرأة من جرهم، أحدثا فی الكعبة فمسخهما الله تعالی حجرين) [۲] وكانت لمكة أشهر حرم لا يحل فيها قتال، وشهدت قبيل المبعث (حلف الفضول) فی دار ابن جدعان، حيث تحالفت عشائر قريش [صفحه ۲۴] – وفيها الوظائف الدينية بالحرم – ألا يوجد بمكة مظلوم من أهلها أو غيرهم، إلا كانت معه علی ظالمه حتی ترد مظلمته. فی هذه البلدة المرهفة الحس الدينی، المضناة بالقلق والحيرة،

المتطلعة إلى حياة جديدة، كان مولد محمد بن عبدالله ومبعث نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام. [صفحه ۲۵]

المولد

(إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد).محمد بن عبدالله فى مكة كان مولده، وضعته أمه بشرا سويا فى دار أبيه (عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمى) بجوار البيت العتيق. ونور الفجر يبشر بصبح جديد، والدنيا تتفتح لموكب الشروق، وتستقبل مع أنفاس الصبح أنفاس ألوف وألوف من بنى البشر، ولدتهم أمهاتهم من مختلف الاجناس وشتى البقاع، فى تلك الليلة القمراء من ربيع الاول. [صفحه ۲۶] منهم من ولدوا فى قصور مصر والشام وفارس والروم. ومنهم من ولدوا فى مجاهل القفر ونجوع البوادى وأدغال الغابات وكهوف الجبال.. تباعدت بهم الاصول والانساب. وتفاوتت الالوان والاجناس، وتناءت الطبقات وجمعتهم بنوتهم للبشر، وتماثلت فيهم آية الخلق، وتشابهت مخاطر الحمل وآلام المخاض ولم تر فيهم الفطرة الانسانية إلا انتصارا لارادة البقاء وامتدادا للحياة، على ما بينهم من تفاوت بعيد. وما كان أحد ليلتفت إلى وليد منهم، وضعته أمه يتيما فى حى بنى هاشم بجوار الحرم المكى، فى تلك الليلة التى بوركت به، لولا ـ أن حفت بمولده ظروف غير مألوفة، جعلت أم القرى تتلقى البشرى بكثير من التأمل والتفكير، ثم تحرص على أن تستوعب كل ما حف بها أو لابسها من ظروف، وأن تتابع سير الحياة بهذا الوليد إلى أن بلغ أشده واصطفى خاتما للانبياء. وحين آن للتاريخ العام أن ينصرف عن أحداث الدنيا فى فجر المبعث ليرقب هذا المصطفى للنبوة، وجد فى ذاكرة أم القرى ما [صفحه ۲۷] يملا صفحات المرحلة ما بين مولده ومبعثه. الليلة من بدئها كانت مقمرة واعدة. ينيرها قمر أوشك أن يكتمل بدرا وتؤنسها أطياف ورؤى، ظلت تتجلى لآمنة بنت وهب، طوال شهور حملها، فتعينها على احتمال تجربة المخاض. فمنذ حملت بهذا الجنين، وهى لا تكف عن التفكير فيما كان من أمرها وأمره، بعد أن مات أبوه (عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم) فى طريق أوبته إليها من رحلة صيف إلى بلاد الشام. ولم يكن حين ودعها، قبل بضعة أشهر، يتوجس خيفة من عائق يطيل أمد غيابه فى رحلته، عن ميعادها الموقوت. ولا كانت (آمنة) فى هواجس وحشتها لفراقه، تتوقع أمرا يحبسه عنها بعد انتهاء الرحلة. فى عنفوان قوته وفتوة شبابه ونضرة حيويته، مضى مع قافلة قريش إلى الشام. ومكة ما تزال تتجاوب بأصداء الاحتفال المشهود بعرسه، وتجتر مشاهد القصة المثيرة لافتدائه من الذبح قربانا لرب الكعبة، وفاء بنذر أبيه عبدالمطلب. كان عبدالمطلب منذ ولى شرف السقاية لوفود الحجيج إلى البيت العتيق، يشغله هم التفكير فيما يتجشم ويتجشمون فى الموسم، [صفحه ۲۸] من شح الماء فى الوادى الاجرد غير ذى الزرع. وذكر بئر زمزم التى أنقذت جده (اسماعيل بن ابرهيم الخليل) من الهلاك ظمأ، وجذبت إلى مكة القوافل من العرب، فعمرت بهم بعد خراب. وقد طمرت زمزم رمال الزمن، فلو أن عبدالمطلب عثر على موضعها، لكانت لسقاية الحجيج موردا مباركا. وقوى تعلقه بالامل فى الاهتداء إلى موضعها، حتى صار مشغلة تفكيره ليل نهار. وخايلته الرؤى فى منامه، تبشره بتحقيق أمله، وتوجه خطاه نحو موضع بعينه، بين وثنى (أساف ونائلة). وغدا ذات صباح بمعوله إلى الموضع الذى وجهته إليه رؤياه، ومعه ابنه (الحارث) ليس له يومئذ ولد غيره. فلما هم بالحفر تصدت له قريش تأبى أن يحفر بين وثنيها، وتعجب لجرأته عليها وليس له غير ولد واحد. يومها، نذر عبدالمطلب: لئن ولد له عشرة أبناء ثم بلغوا معه بحيث يمنعونه، لينحرن أحدهم عند الكعبة قربانا. وتوافى بنوه عشرة، وكان أصغرهم (عبدالله) فتلبث أبوهم زمانا حتى بلغوا، ودعاهم إلى الوفاء بنذره، وخرج بهم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قدحا عليه اسمه. وقدموها إلى صاحب القداح هناك، وأبوهم ينقل بصره بينهم، فتستقر نظراته لحظة على أصغرهم (عبدالله) فيفيض قلبه رقة ورحمة، ويتمنى أن يخطئه السهم. [صفحه ۲۹] حتى ضرب صاحب القداح على بنى عبدالمطلب، فخرج القدح على (عبدالله) وأبوه قائم يدعو فى ضراعة وخشوع. ولم يملك الشيخ ان يتراجع، بل أمسك بيد صغيره الغالى وتقدم يريد الوفاء بنذره. ثم لم يكد يدنى الشفرة من منحره حتى تكاثرت عليه قريش، وقد هالها أن يضع عبدالمطلب بتضحية ولده، تقليدا يؤثر ويتبع، (فما بقاء الناس على هذا ؟. وما زالت به حتى قبل أن يستشيروا فى أمره عرافة لهم بخيبر. سألتهم العرافة بعد أن سمعت القصة: - كم الدية فيكم ؟ قالوا: - عشرة من الابل. فكانت مشورتها أن

يرجعوا إلى الكعبة فيضربوا القداح على عبد الله وعلى عشر من الابل، فان خرج القدح عليه زادوا عشرا ثم عشرا حتى يرضى ربهم، وإن خرجت على الابل نحروها عنه. وعادوا ففعلوا، فما زالوا يزيدون الابل عشرا بعد عشر، والقدح يخرج على عبدالله. إلى أن بلغت الابل مائة، وخرج القدح لاول مرة عليها. هتف الجمع من قريش: - قد انتهى رضى ربك يا عبدالمطلب. لكنه، لصدق إيمانه، أبى إلا أن يكرر التجربة ثلاث مرات، والقدح يخرج على الابل. وعندئذ اطمأن قلبه، ونحرت الابل [صفحه ٣٠] المائة ثم تركت فى حمى الحرم، لا يصد عنها انسان ولا سبع [٣] وانصرف عبد المطلب بولده عبدالله، فمضى إلى سيد بنى زهرة نسبا وشرفا (وهب بن عبد مناف بن زهرة) [۴] فخطب إليه ابنته (آمنة) عروسا لعبد الله المفتدى. وكانت قصة الفداء قد هزت قلوب المكيين تعلقا بالشاب الهاشمى الذى مست الشفرة منحره وهو صابر مستسلم، حتى إذا لم يبق بينه وبين الذبح إلا أن تتحرك الشفرة، أنقذه رب الكعبة بأغلى فدية عرفها العرب. وأضيئت المشاعل فى أم القرى، وسهرت مسامر البلدة المباركة تسترجع ذكرى قصة الذبيح الاول (اسماعيل بن ابراهيم) حين مضى به أبوه إلى قمة الجبل لكى يذبحه طاعة وتعبدا، ففداه ربه (بذبح عظيم) بعد ذلك البلاء المبين [۵] إنها القصة التى تناقلتها العرب العدنانية، بنو اسماعيل، طبقة بعد طبقة وجيلا من بعد جيل، تعود فتتكرر على ساحة البيت العتيق الذى رفع القواعد منه ابرهيم واسماعيل، وطهراه للطائفين والعاكفين والركع والسجود. [صفحه ٣١] والمفتدى هذه المرة الاخرى: حفيد أصيل من ذرية اسماعيل، جيرة الحرم المكى. وغير مستبعد أن يكون من السمار من ربطوا فى ليلة العرس بين الذبيحين (اسماعيل بن ابرهيم، وعبد الله بن عبدالمطلب) وأن يتوقع ذوو الحس المرهف منهم والرؤية الوجدانية الصافية، أمرا جليلا لعبد الله، كذلك الذى كان لجده الاعلى اسماعيل، بعد الفداء. وغير مستغرب كذلك، فى مثل هذا المناخ الدينى للبلد العتيق، أن تهفو قلوب نساء من قريش إلى (عبدالله) وأن يلمحن على وجهه مخايل غده الموعود، فيعرضن له فى طريقه من الكعبة إلى بيت سيد بنى زهرة، وكل منهن تحاول أن تهبه نفسها أو أن تظفر به زوجا. عرضت له بنت نوفل الاسدية القرشية، أخت نوفل، فقالت له: - لك مثل الابل التى نحرت عنك اليوم إن قبلت أن أهب نفسى لك. ودعته (فاطمة بنت مر) إلى نكاحها، وكانت من أجمل النساء وأعفهن، وفى بعض الروايات أنها كانت كاهنة من خثعم [۶] وكذلك عرضت (ليلى العدوية) نفسها عليه، وهى تتحدث عن النور الذى فى وجهه. وفى الخبر أنه مر بهن بعد أن تزوج (آمنة بنت وهب) فانصرفن عنه زاهدات فيه، فعجب لامرهن وبدا له أن يسألهن فيه، فكان جواب بنت نوفل: [صفحه ٣٢] (فارقك النور الذى كان معك بالامس فليس لى بك اليوم حاجة). وقالت فاطمة بنت مر: (قد كان ذلك مرة فاليوم لا. والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكنى رأيت فى وجهك نورا فأردت أن يكون لى، فأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد). وردت ليلى العدوية: (مررت بى وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت على، ودخلت على آمنة فذهبت بها) [٧] وقد وصلت أخبارهن وأقوالهن إلى مسمع عروسه (آمنة بنت وهب) وبلغ من تأثرها بها، بعد الذى كان من قصة الفداء، أن رأت فى منامها ليلة عرسها، كأن شعاعا من النور يشع من كيانها اللطيف فيضىء الدنيا حولها، وسمعت هاتفا يبشرها بأنها حملت بسيد البشر. وحين ودعها عبدالله بعد أشهر فى رحلته إلى الشام، كان لها من رؤياها ما يؤنس وحشة فراق لم يدر العروسان أنه فراق لا لقاء بعده، ولا خطر لهما على بال أنها رحلة بغير مآب. فى طريق الاياب ألمت بعبد الله وعكة طارئة، فتخلف عن قافلة قريش فى دار أخواله بنى النجار بيثرب، ريثما يسترد صحته وعافيته. فلم يلبث إلا قليلاـ حتى غاله الموت، ودفن هناك فى ثرى يثرب. [صفحه ٣٣] ولم يقبل فيه هذه المرة أى فداء. ولبست مكة ثوب الحداد على الفتى الهاشمى، وضحلت من النواح عليه حلوق بحت من الهتاف له حين احتفلت أم القرى بفدائه وعرسه، قبل شهرين أو ثلاثة. وترملت زهرة قريش: آمنة بنت وهب، ولما يزل فى كفيها خضاب العرس. وانفض المأتم، لكن القوم لم يفرغوا من صاحبه الثاوى فى لحده بعيدا فى ثرى يثرب. من كان يظن، حين نحرت عنه الابل المائة، أن المنايا واقفة بالمرصاد لهذا المفتدى ؟ وخيف على آمنة من وطأة الحزن، وقد رفضت أن تقبل فى فقيدها العزاء. ولبثت مكة شهرا وبعض شهر، ترقب فى قلق إلى أين ينتهى الحزن الساحق بالارملة العروس.. حتى كانت ليلة من ليالى شوال، أحاط فيها العواد من آل هاشم وبنى زهرة بفراش آمنة، وهى لا تفتأ تسأل كل عائد منهم وعائدة: - فيم كان فداؤه والموت منه وشيك ؟ وفيم كان العرس المشهود ويد القدر تخط له لحده بيثرب، والمنايا تحث خطاها

نحوه ؟ وأغفت مجهدة من إعياء، وعيون الساهرين عليها. ولم تطل غفوتها، أيقظتها منها انتفاضة مرهفة، وقد أحست [صفحه ۳۴] خفقة حياة جديدة فى أعماقها، فأشرق وجهها بنور الالهام، وكأنها عرفت سر الذى كان: إن عبدالله لم يفتد من الذبح عبثا. كانت مهلة، ما بين فدائه وموته، أودع فيها عروسه آمنة هذا الجنين الذى تحس نبض حياته فى رحمها، والذى من أجله يجب أن تتجلد وتعيش. ومن تلك اللحظة، أنزل الله سكينته عليها فطوت حزنها وشجنها، وبدأت تفكر فى هذا الجنين الذى يعطى حادث الفداء تفسيره ومنطقه، ويجعل لوجودها بعد عبدالله، قيمة ومعنى. مضت فترة الحمل والجزيرة العربية تموج بإرهاصات عن نبى منتظر حان زمانه، وما أرتاب فى أن آمنة ألقت إليها كل سمعها وفكرها، فما نسيت قط أن زوجها هو الذى استأثر من دون بنى عبدالمطلب، صفوة العرب العدنانية، بمجد الفداء الذى لم يتكرر منذ افتدى جدهم الاعلى اسماعيل بن ابرهيم الخليل. وفى سمعها كذلك، صدى لم يغب من حكاية النساء اللائى عرضن أنفسهن على عبدالله يوم فدائه – وفيهن الكاهنة من خثعم، وأخت ورقة الذى قرأ الكتب وبشر بنبى منتظر – وكلامهن عن النور الذى انتقل من عبدالله إثر زواجه، والغرة التى ذهبت بها بنت وهب فلم تدع لغيرها من النساء فى عبدالله مأربا. [صفحه ۳۵] ثم هى قبل هذا كله، سيدة من صميم البيت القرشى الذى يحظى بالسيادة فى أم القرى، وينفرد بشرف الوظائف الدينية الكبرى فى مثابة حج العرب ومهوى أفئدتهم. ومن شأن النساء فى هذه البيئة أن يرجون للاجنة فى بطونهن، مجدا لم يكن لاحد من قبل. وعلى مدى شهور الحمل، لم تغب عن آمنة رؤاها فيما سيكون لابن عبدالله من شأن عظيم، ولم تتخل عنها هواتف البشرى بأمومتها لهذا اليتيم الهاشمى الذى لم يزل ينتقل من الاصلاب الطيبة إلى الارحام الطاهرة مصفى مهذبا، وتلقى ميراث آبائه الهاشميين وأخواله الزهريين، واجتمع له عز المنافين (عبد مناف بن قصى) جده الثالث لابيه، و (عبد مناف بن زهرة بن كلاب) جد أمه. [۸] وكتاب السيرة النبوية ومؤرخو الاسلام الاولون، ينقلون أخبار تلك الهواتف والرؤى عمن لا يتهمون من الاخباريين والرواة. وقد يشكك فيها بعض المحدثين، وقد يرفضها آخرون منهم رفضا باتا، فلا نجاول هؤلاء ولا هؤلاء، إلا أن يتكلموا باسم العصرية والعلم فيعدوها من (الخرافات التى لا يقبلها عقل) كما قال (بودلى) فى كتابه (الرسول) [۹] . [صفحه ۳۶] ومن عجب أن ينكروا على آمنة، أم محمد، ما يجوز على سائر الامهات من البشر، وكأن ليس من حقها أن تستشرف رؤاها لجنينها، حفيد المنافين وابن الذبيح المفتدى، إلى أقصى ما تسعف عليه بيئة يعرف تاريخ العرب عزها وشرفها وعراقتها، وظروف فريدة حفت بهذا الجنين لم تعرف دنياه لها مثيلا- وإنما الذى يرفضه العقل حقا، هو أن نجرد (آمنة) من بشريتها وأمانى أمومتها، وكل الحوامل قبلها وبعدها عرفن ويعرفن الهواتف والرؤى فى فترات الحمل، وإنما يتفاوت مدى الطموح فيها، بقدر ما تسعف عليه ظروف كل حامل، وتحتمله بيئتها وتستشرف إليه آمالها. من نبض حياته فى كيانها، كانت تستمد طاقة الحياة. ومن هواتف البشرى فى تأملاتها ورؤاها، كانت تجد ما يؤنس وحشتها ويهون عليها تجربة الحمل الاولى. حتى إذا أوشك حملها أن يتم أجله، روعت كما روعت الجزيرة كلها، بغزو (أبرهة الحبشى) لام القرى، يريد أن يصرف عنها حج العرب، إلى كنيسة بناها فى (صنعاء) وجلب إليها (الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب، من بقايا قصر بلقيس، وكان على فراسخ من موضع الكنيسة، وفيه البقايا من آثار مملكة سبأ. ونصب أبرهة الاشرم فى كنيسته صلبانا من الذهب والفضة، [صفحه ۳۷] ومنابر من العاج والآبنس. وكتب إلى مولاه نجاشى الحبشة: إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم ين مثلها لمليك كان قبلك. ولست نمنته حتى أصرف إليها حج العرب) [۱۰] وإذ رأى أمير مكة (عبدالمطلب بن هاشم) ألا قبل لاهلها بالجيش الزاحف، رأى أن يتحرز بهم فى شعف الجبال والشعاب تخوفا من معرة الجيش الذى جاء به (أبرهة) من اليمن. وشق على (آمنة) أن تضع وليدها بعيدا عن الحرم المكى، وفى غير دار أبيه عبدالله بن عبدالمطلب. ولاذت بإيمانها بأن الله مانع بيته، فليس لطاغية الاحباش إليه من سبيل. فقر عزمها على ألا تبرح مكانها فى جوار الحرم، إلى أن يقضى الله أمره. وفيما كانت تحسب حسابا لما يتوقع من مجرى الاحداث، جاءتها البشرى أن الله سلط على الغزاة أصحاب الفيل نقمته، فانتشر فيهم وباء غريب حاصد، رمتهم بجراثيمه المهلكة طير أبابيل (فتركهم كعصف مأكول). ولم تكن أرض العرب قد شهدت وباء الحصبة والجدرى قبل ذلك العام المشهود، فيما روى (ابن هشام) فى السيرة النبوية عن (ابن اسحاق). (وقد ولى الاحباش مذعورين يتساقطون بكل طريق

ويهلكون بكل مهلك. وأبرهة معهم ينتثر جسمه وتسقط أنامله أنملة أنملة) [۱۱] . [صفحه ۳۸] وأقبلت قريش على كعبتها المقدسة تطيف بها ملبية عابدة، وتجاوبت آفاق البلد الامين بدعوات المصلين وتلبيات المحتفلين وأناشيد الشعراء. وآمنة في بيت عبدالله، تصغى إلى ما يبلغ سمعها من دعاء وهتاف، فتحس سكينة وغبطة: أن استجاب الله لها فلن تضع وليدها بعيدا عن الحرم الآمن. بعد فترة قصيرة من هلاك أبرهة عام الفيل، ذاعت فى أم القرى بشرى المولد. حدد قوم هذه الفترة بخمسين يوما (وهو الاكثر والاشهر) على ما نقل (السهيلى) فى (الروض الانف) [۱۲] واكتفى آخرون بأن المولد كان فى عام الفيل. جاءها المخاض فى وقت السحر من تلك الليلة المقمرة، فأرهف شعورها بالترقب والتطلع، مع إحساس برهبة من تجربة الوضع التى طالما سمعت الامهات يتحدثن عن آلامها ومخاطرها. لكنها ما لبثت أن صرفت بالها كله إلى ما يغمر الدنيا حولها من نور بازغ، وصرفت سمعها كله إلى هواتف البشرى، فتجلدت للحظة الحاسمة. وما كاد نور الفجر يهل على الافق، حتى كانت قد وضعت وليدها كما تضع كل والدة من البشر. [صفحه ۳۹] وتألقت دنياها نورا وأنسا، وهى ترنو إلى وليدها المبارك، وتذكر به أباه الحبيب الذى أودعها إياه ثم ودعها ورحل. وكانت مكة حين ذاعت فيها بشرى مولد ابن عبدالله، ما تزال تحتفل بما أتاح الله لها من النجاة من أصحاب الفيل، من حيث لا تحتسب. فرأى القوم فى مولد محمد آنذاك، آية تذكر بأخرى، يوم اختير أبوه عبدالله قربانا لرب الكعبة، ثم افتدى بالابل المائة. وإن لم يتوقع أحد فى مكة، أو فى الدنيا كلها يومئذ، أن تلك الليلة المقمرة الغراء من ربيع الاول عام الفيل، التى ولد فيها ألوف وألوف من شتى الاجناس والالوان ومختلف الملل والمذاهب ومتفاوت الطبقات والدرجات، قد خلدت وبوركت بمولد يتيم هاشمى فى أم القرى، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، يصطفى للنبوة فتكون رسالته ختام الاديان، وتغدو أقواله وأفعاله سنة وشريعة لملايين الناس على امتداد الزمان والمكان. [صفحه ۴۰]

من مهد مولده إلى غار حراء

(والضحى - والليل إذا سجى - ما ودعك ربك وما قلى - وللآخرة خير لك من الاولى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - ألم يجدك يتيما فآوى - ووجدك ضالا فهدى - ووجدك عائلا فأغنى - فأما اليتيم فلا تقهر - وأما السائل فلا تنهر - وأما بنعمة ربك فحدث). (صدق الله العظيم) ومضى التاريخ لم يطل الوقوف بمكة مهد مولده. شغلته عنها وعن يتيمها الهاشمى، أحداث جسام كانت تجرى [صفحه ۴۱] على مسرح الدنيا فى الثلث الاخير من القرن السادس لميلاد المسيح عليه السلام. وراح يرصد نذر الانهيار فى عالم يريد أن ينقض. ويتابع الجولات الاخيرة للصراع بين قطبى ذلك العالم القديم، حيث كانت دولتا الفرس والرومان تخوضان حربا طاحنة، على مراكز السلطة والنفوذ. وإحدى الدولتين قد أعشت نار المجوسية بصرها وبصيرتها، فما عاد يعنيها سوى أن تجعل من ساحة الشرق كله معبدا لتلك النار، تصلاها شعوب المنطقة بالعسف والاكراه. والاخرى قد أثخنتها جراح الحرب وهدتها أمراض الشيخوخة، واستنزفت بقايا قوتها فتنة الصراع الطائفى بين القائلين بناسوتية السيد المسيح والقائلين بلاهوتيته، فتهاوى النسر الرومانى على الارض يجثم على أنفاس خلق الله، ويتسلط على مستعمراته فى الشرق الاوسط - والشمال الافريقى بالارهاب والطغيان، فى محاولة يائسة تستبقى له من الهيبة ما يستر وهنه، ويعوضه عن قواه المستنزفة. حتى بلغ ذلك اليتيم الهاشمى المكى الاربعين من عمره، وتلقى رسالة الوحى فى شهر رمضان بعد ستة قرون ونحو عشر سنين من ميلاد المسيح عليه السلام، فالتفت التاريخ إلى مكة، وتوقف برهة يجمع كل ما وعت ذاكرتها عن ذلك المصطفى وآبائه وعشيرته، وعاد يصحبه من مهد مولده فى دار أبيه عبدالله بجوار البيت العتيق. [صفحه ۴۲] ولم تكن ذاكرة مكة قد أفلتت شيئا ذا بال، من أخبار يتيمها الهاشمى من مولده إلى مبعثه، وقد تعلقت به تتابع خطاه على درب الحياة. وهى التى أعطت التاريخ ما احتاج إليه بعد المبعث، من أخبار سيرته فى المراحل الاولى من حياته، إذ تفد المراضع من بنى سعد بن بكر ليحملن رضعاء قريش بعيدا عن جو مكة القاسى، ويعرض عليهن (محمد بن عبدالله) فيزهدهن فيه يتمه، وأن لم يكن ذا ثراء يكافئ نسبه الشريف فى البيت الهاشمى القرشى، وقد مات أبوه فى مقتبل العمر قبل أن يتأثل لنفسه مالا، لم

يترك لولده اليتيم وأمه، سوى جاريته الحبشية (بركة، أم أيمن) وقطعة يسيرة من الابل والغنم. وأحزن (آمنة) أن ترى المراضع يوشكن أن يعدن إلى البادية زاهدات في وليدها الشريف اليتيم، مؤثرات عليه أطفال الاحياء ممن يرجى منهم الخير الوافر. غير أن واحدة منهن: (حليمة بنت أبى ذؤيب السعدى، وزوج الحارث بن عبدالعزى، من سعد بن بكر بن هوازن)، رجعت إلى أم محمد تطلبه رضيعا لها، بعد أن انصرفت عنه أول ذاك النهار. وحفظت مكة من قصة الرضاعة، ما نقله التاريخ بعد المبعث، من رواية عبدالله بن جعفر بن أبي طالب: (كانت حليمة بنت أبى ذؤيب السعدية أم رسول الله صلى الله عليه وسلم التى أرضعته، تحدث أنها خرجت من بلدها، بادية بنى [صفحه ۴۳] سعد، مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، فى نسوة من بنى سعد بن بكر تلتمس الرضعاء. قالت: وذلك فى سنة شهباء لم تبق لنا شيئا. فخرجت على أتان لى - عجفاء - معنا شارف لنا - ناقة مسنة - والله ما تبض بقطرة، وما ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذى معنا، من بكائه من الجوع، وما فى ثديى ما يغنيه، وما فى شارفنا ما يغذيه. ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتانى تلك، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها محمد - رسول الله صلى الله عليه وسلم - فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم. وذلك أنا إنما كنا نرجو المعروف من أبى الصبى فكنا نقول: يتيم ؟ وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ (فما بقيت امرأة قدمت معى إلا أخذت رضيعا، غيرى. فلما أجمعنا على الانطلاق قلت لصاحبى: والله إنى لاكره أن أرجع من بين صواحبى ولم آخذ رضيعا. والله لاذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه. (قال: لا عليك أن تفعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. (فذهبت إليه فأخذته، وما حملنى على أخذه إلا أنى لم أجد غيره. فلما أخذته رجعت به إلى رحلى، فلما وضعته فى حجرى أقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن، فشرب حتى روى، وشرب معه أخوه حتى روى. ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك. وقام زوجى إلى شارفنا تلك فإذا هى حائل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريا وشبعا، فبتنا بخير ليلة. [صفحه ۴۴] (يقول صاحبى حين أصبحنا: تعلمى والله يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة. فقلت: والله إنى لارجو ذلك. ثم خرجنا وركبت أتانى وحملت محمدا عليها معى، فوالله لقطعت بالركب ما يقدر عليها شئ من حمرهم، حتى إن صواحبى ليقلن لى: - يا ابنة أبى ذؤيب، ويحك، اربعى علينا، أليست هذه أتانك التى كنت خرجت عليها ؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهى هى. فيقلن: والله إن لها لشأنا. (ثم قدمنا منازلنا، من بلاد بنى سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها. فكانت غنمى تروح على، حين قدمنا بمحمد معنا، شباعا لبنا فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان غيرنا قطرة لبن، ولا يجدها فى ضرع. حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم، اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبى ذؤيب ! فتروح أغنامهم جياعا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمى شباعا لبنا. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير، حتى مضت سنتاه وفصلته). وتحفظ مكة للتاريخ من أخبار صباه، رحلته مع أمه إلى يثرب فى السادسة من عمره: كانت مشوقة إلى زيارة قبر والده الثاوى هناك، وقد طال عليها الانتظار ريثما جاوز صغيرها مرحلة الطفولة الغضة، [صفحه ۴۵] ليحتمل مشقة الرحلة، وفى يثرب تعرف إلى أخواله بنى النجار وانطلق مع لداته من صبيتهم فى دروب المدينة التى ستكون دار هجرته. وأمضت أمه أيامها على قبر الحبيب، تبث طيفه أشجانها ومواجدها ونجواها، وتتزود من ثراه لفراق قد يطول. وفى طريق العودة إلى مكة، ألمت بها وعكة طارئة لم تطل: انطفأت فيها الحياة بين يدى صغيرها اليتيم، وعلى مرأى منه أضجعوها فى قبر حفروه لها بقرية (الابواء) وهالوا عليها الرمال. واستأنف سيره، مع بركة، إلى مكة محزونا مضاعف اليتم، ليروع بعد قليل بموت جده عبدالمطلب الذى كان له أبا. وينتقل إلى دار عمه (أبى طالب) فيجد فيه العوض عن جده وأبيه، ولا عوض عن الام ! وتمضى الاعوام وقلبه ينزع نحو مرقدها الاخير بالابواء، ولم يستطع ضجيج الحياة فى أم القرى أن ينسيه مشهد موتها الفاجع، أو يبعد عن مسمعه حشرجة احتضارها فى جوف الفلاة. ويبلغ مع عمه مبلغ السعى، فيصحبه معه فى رحلة قريش إلى الشام، ثم يقترح عليه بعدها أن يخرج إلى الشام فى مال (السيدة خديجة بنت خويلد) فتبدأ مرحلة جديدة من حياة الشاب الهاشمى، تملا أعوامه ما بين الخامسة والعشرين، والاربعين، بنعمة الزوجية السعيدة الهانئة، وتقر عيناه بثمرتها المباركة: زينب ورقية وأم كلثوم، وفاطمة، والقاسم وعبد الله. [صفحه ۴۶] وأرخى الزمن للزوجين السعيدين خمسة عشر عاما، ارتوى فيها محمد من نبع الحنان معوضا حرمان ماض جاف ظامئ، ومتزودا لغد مقبل، حافل بالجهاد والشواغل الجسام. ووعت مكة من أخبار تلك

المرحلة، مشهد محمد بن عبدالله إذ يدخل البيت العتيق ذات يوم، وهو فى نحو الخامسة والثلاثين من عمره، فإذا الاحياء من قريش هناك فى ساحة الحرم، قد احتدمت بينهم خصومة أنذرت بشر: كانت الكعبة، قبل ذلك اليوم، قد مستها شرارة تطايرت من مجمرة إحدى النساء، فأحرقت ستائرها وأوهت بنيانها. ووقفت قريش تجاه حرمها الاقدس مكتوفة الايدى لا تدرى ماذا تصنع، حتى شاع خبر عن سفينة رومية جنحت إلى جدة، فسعى إليها رجال من قريش، وعادوا بأخشاب السفينة، ومعهم رجل قبطى كان فيها، نجار بناء. وتم الاستعداد لتجديد الكعبة، ولكن قريشا عادت فتهيبت أن تهدم بقايا البناء القديم. حتى قام (الوليد بن المغيرة المخزومى) فأخذ المعول وقال: (اللهم لم نزغ، اللهم إنا لا نريد إلا الخير). ثم أهوى بالمعول والقوم ينظرون إليه مرتاعين، خائفين عليه وعلى أنفسهم جميعا. فلما لم يصبه سوء، أبوا إلا أن يتربصوا ليلتهم تلك ليروا عاقبة ما كان. وأصبح (الوليد) بخير لم يمسسه سوء، فهدم وهدم الناس معه. [صفحه ۴۷] وتنافست القبائل فى العمل، وشارك (محمد) فيه فكان ينقل الحجارة مع الناقلين، حتى إذا تم البناء، اختلفت أحياء قريش، فيمن يكون له شرف رفع الحجر الاسود إلى موضعه، ومكثت على الخصومة أربع ليال أو خمسا، ونذر الخطر تشتد منذرة بحرب، لولا أن اقترح عليهم (أبو أمية بن المغيرة المخزومى) - وهو يومئذ أسن قريش، أن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب المسجد الحرام. فقبلوا، وتعلقت عيونهم بالباب، فكان محمد بن عبدالله أول من دخل. هتفوا جميعا حين رأوه: (هذا الامين، هذا محمد بن عبدالله الهاشمى، رضينا بحكمه). وحدثوه عما اشتجر بينهم من خلاف، فطلب ثوبا ثم تناول الحجر الاسود فوضعه بيده فى الثوب وقال: (لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعا). ولما بلغوا موضع الحجر، وضعه محمد بيده، نقلا من الثوب. ثم آب إلى بيته، فكان أول ما استقبله هناك، بشرى مولد ابنته فاطمة، فاقترن مولدها بنجاة قريش، على يد الامين، مما كان يخشى عليها من صدام وحرب [۱۳] بعد ذلك المشهد فى البيت العتيق، يرهف التاريخ سمعه مستوعبا [صفحه ۴۸] أخبار مكة عن (محمد) قبيل بلوغه الاربعين من عمره، ويحدق فى آثار خطاه ما بين بيته فى جوار الحرم، وغار حراء بظاهر أم القرى، حيث اعتاد الامين أن يعتزل الناس ليخلو إلى تأملاته، بعيدا عن ضجيج المجتمع وصخب الزحام. وآن للتاريخ أن يمضى مع المصطفى فى عصر المبعث، على معبر التحول الخطير ما بين ليل الجاهلية وفجر الاسلام.. [صفحه ۵۱]

مع المصطفى...فى دار مبعثه

مع المصطفى فى ليلة القدر

(سلام هى حتى مطلع الفجر) غشى الكون ليل ثقيل، ولف أم القرى صمت مكدود لا يكاد يسمع فيه غير أنفاس الليل مختلطة بهمهمة صلوات وثنية، كانت لا تزال تتردد فى البيت العتيق. وقمر رمضان قد توارى واحتجب، فليس على الافق المعتم سوى ضوء شاحب تكاد تحجبه عن مكة جبالها الصخرية التى تبدو كأنها كتل ماردة من ظلمات متكاثفة متراكمة.. ونامت الدنيا، لا تلقى بالا إلى رجل من بنى هاشم، ابن امرأة من قريش تأكل القديد، قد أوى إلى غار هناك مستغرقا فى تأمله، يلتمس فى العتمة الداجية شعاعا من نور الحق، وينشد فى خلوته أنس الهدى وراحة اليقين، وخواطره تحوم حول البيت العتيق الذى [صفحه ۵۲] رفع ابرهيم القواعد منه واسماعيل وطهراه للطائفين والعاكفين والركع السجود، فلم يلبث أن صار مع الزمن مثوى لاوثان ممسوخة شتى، لكل قبيلة من العرب وثنها تحج إليه وتطيف به، وترفع إليه الدعاء وتقدم القرابين.. وغير بعيد من غار حراء، هجعت مكة تجتر ذكريات مجدها الدينى الغابر طوته وثنية عمياء، وتساورها من حين إلى حين رجفة من قلق الوعى، لا تلبث أن تهمد تحت وطأة الكابوس الجاثم، لا تحسب حسابا لهذا المختلى فى غار حراء، وقد ألفت أن تراه ينسحب من زحام المجتمع المكى، عازفا عن تلك الاوثان التى يعبدها قومه، لانهم وجدوا آباءهم لها عابدين. وماذا على القوم أن عزف محمد بن عبدالله عن أوثانهم وأبى أن يعبدها ؟ كذلك فعل نفر غيره من الحنفاء، ليس عددهم بالذى يدخل فى الحساب بزيادة أو نقصان، فى الحشود من الحجيج الذين ينثالون إلى مكة من كل فج عميق،

ليطيفوا بأوثانهم فى البيت العتيق ويؤدوا طقوس عبادتهم جيلا بعد جيل.. وأوغل الليل قبل أن يطلع فجر هذه الليلة من رمضان، وينشر نوره البهى على القمم والسفوح والاودية والقيعان، فيضىء الظلمة الداجية. ومع نور الفجر الوليد من الليلة الغراء، تجلى الوحى على المختلى فى الغار، وألقى إليه الكلمة: (اقرأ). [صفحه ۵۳] وما كان محمد بقارئ، وما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه. (اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الانسان من علق. اقرأ وربك الاكرم، الذى علم بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم). وبدأ تاريخ جديد: الرجل الذى سرى فى الليل إلى غار حراء، على مألوف عادته منذ أنكر موضع الاصنام فى البيت العتيق، وأيقن أن حياة الناس لا يمكن أن تمضى هكذا على سفه وضلال، خرج مع الفجر من الغار، نبيا مبعوثا بختام الرسالات. والكلمات الاولى التى تلقاها فى تلك الليلة من وحى ربه، كانت بداية كتاب معجز، وآية نبى بشر، ولواء عقيدة وجهت التاريخ وحررت الانسان، وصنعت أمة وقادت حضارة. خرج المصطفى من الغار، واتجهت به خطاه نحو بيته، والكون من حوله ساج خاشع، وعلى الافق الاعلى نور الفجر الجديد ينسخ ظلمات ليل طال، ويوشح البيت العتيق بسنى وضاء. يكشف عما تكدس فى رحابه من أصنام وأوثان، فتبدو على حقيقتها العارية، ممسوخة بلهاء. وكان لها من ظلام الليل ستر كثيف أصم، يخدع البصر ويزيف الرؤية.. [صفحه ۵۴] النور ملء قلبه وبصيرته، والكلمات ملء فكره ومسمعه. ولكنه فى حيرة من أمره، يعييه أن يستوعب السر الاعظم الذى تجلى له، ويأخذه من جلاله ما يشبه الدوار، فيكاد لفرط دهشته وعجبه وانبهاره، لا يدرى ما إذا كان فى وعى يقظته أم تلك رؤيا بصيرة أرهفها طول التأمل فى آيات القدرة، وطول التطلع إلى اجتلاء سر هذا الكون وخالقه ؟ وأحس وطأة العبء الثقيل تجهده وترهقه، فما بلغ بيته حتى بدا مكدودا مرتعدا شاحبا، كأنه عائد من سفر شاق طويل. ولمحها هناك فى انتظاره: (خديجة) التى كانت له على مدى خمس عشرة سنة زوجا وأما، وكانت له منذ تزوجها ملاذا وسكنا. ودون تفكير أو تردد ألفى نفسه يفضى إليها بما رأى وما سمع، وهو يحدق فى ملامحها إذ تصغى إليه بسمعها وقلبها، محاولا أن يستبين وقع هذا الامر على أقرب أهله إليه، وأعزهم عليه، وأصفاهم له ودا وأرشدهم نصحا ورأيا. وقالتها على الفور، بكل اليقين والثقة: (الله يرعانا يا أبا القاسم. أبشر يا ابن عم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لارجو أن تكون نبى هذه الامة. والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتحمل الكل وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق). فنفذ صوتها الحار الواثق إلى قلبه، وأحس راحة الامن والطمأنينة، [صفحه ۵۵] وزوجه تقوده فى رفق وحنو إلى مضجعه فتدثره وتبقى إلى جانبه رانية إليه حانية عليه حتى ينام. (نبى هذه الامة) ؟ ! ما الذى ألقى إلى بال (خديجة بنت خويلد) الاسدية القرشية. بتلك الكلمة الكبرى، حين كانت الوثنية غاشية، والعرب قبائل شتى والناس طوائف وأمما متناحرة متناكرة ؟ أهى من تعبير التاريخ الاسلامى عن إدراك أم المؤمنين الاولى لجلال الامر وبعد نظرها لما بعده، بمجرد أن سمعت زوجها المصطفى يحدثها عن أول الوحى ؟ أم كانت الكلمة تعبيرا عن واقع لم يكن قد انجلى بعد تماما فى تلك الليلة من رمضان، تمثل بها الاخباريون المسلمون موقف زوج المصطفى الاولى، فى ضوء الواقع التاريخى بعد ليلة القدر ؟ لا أرى كلمة غريبة على الموقف، فما كانت السيدة خديجة وهى من صمم قريش وجيرة الحرم، بحيث يفوتها شئ مما ماجت به بيئتها قبيل المبعث من تطلعات إلى تحول خطير رنا إليه حكماء العرب وحنفاؤهم وشعراؤهم ومن إرهاصات عن نبى جديد حان مبعثه، تناقلها الرواة والسمار عن رهبان النصارى فى الشام ونجران، وأحبار يهود فى يثرب وشمال الحجاز. ومكة على الخصوص، كانت المركز الذى تتلاقى فيه تلك [صفحه ۵۶] التطلعات والارهاصات، وتتجمع روافدها من هنا ومن هناك وهنالك، لتصب حول البيت العتيق، وتحوم حول حى بعينه من أحياء قريش هو حى بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى، وترنو إلى شخص بذاته من الهاشميين، هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم. وقد كان لمكة من واقعها ورؤاها وذكرياتها، ما تضيفه إلى تلك الارهاصات الوافدة من شمال وجنوب وشرق. فمن عهد ابرهيم واسماعيل، وبيتها العتيق مثابة الحج والعبادة، يرتفع منه الدعاء (لبيك اللهم لبيك) فتتجاوب به أوديتها والبطاح، وتخشع له جبالها الصخرية، وتعنو هامات البدو الصلاب أبناء الصحراء ومع الزمن تأصلت حرمة ذلك البيت العتيق، ورسخت تقاليد إعظامه وطقوس إجلاله، ومنه أخذت قريش مكانة السيادة لجوارها الحرم المكى، واستأثرت بوظائف الشرف الدينية، وراثة عن جدها قصى بن كلاب

المضرى العدنانى. وإذا كانت مكة قد استرجعت بفداء عبدالله بن عبدالمطلب، ذكرى الفداء الاولى لاسماعيل جد العرب العدنانية، فليست بحيث يفوتها غداة ليلة القدر، أن تربط ما بين محمد بن عبدالله، واسماعيل ابن ابرهيم، برباط نسجته يد الزمن على مدى قرون وأدهار. وتربطها كذلك، فى وعى السيدة خديجة، بما آنست من شمائل زوجها وما رأت من ميل زوجها إلى التأمل والخلوة فى غار حراء، وما عرفت من رفضه الاصنام التى تكدست فى الحرم، ومن حيرته فى أمر [صفحه ۵۷] قومه كيف ضلت عنهم أحلامهم فنسوا أنهم الذين صنعوا الاوثان بأيديهم، وجعلوا منها آلهة وأربابا مع الله ! وفى هذا كله كانت (خديجة) تفكر، وهى تخرج من البيت إثر سماعها بشرى الوحى، ساعية إلى ابن عمها (ورقة بن نوفل) تلتمس لديه الرأى، وترجو أن تجد من علمه بالكتب والاديان ما تطمئن به إلى حقيقة الفكرة الملهمة التى سيطرت على وعيها المرهف وبصيرتها الثاقبة: أن يكون زوجها المصطفى نبى هذه الامة. وقال ورقة بن نوفل، وهو يوشك أن يتهم سمعه: (قدوس قدوس) والذى نفس ورقة بيده، لئن كنت صدقتنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الاكبر الذى كان يأتى موسى وعيسى، وإنه لنبى هذه الامة، فقولى له فليثبت). [صفحه ۵۸]

السابقون الاولون

(والسابقون السابقون - أولئك المقربون - فى جنات النعيم - ثلة من الاولين - وقليل من الآخرين) (صدق الله العظيم) أصبحت مكة غداة ليلة القدر، وليس على وجه الارض كلها من يدين بالاسلام، غير النبى المصطفى، وزوجه السيدة خديجة بنت خويلد، أم المؤمنين الاولى. ثم آمن ثلاثة: اثنان منهم فتيان فى مستهل الصبا، كان محمد عليه الصلاة والسلام ينزلهما من بيته وقلبه منزلة الابناء: [صفحه ۵۹] (على بن أبى طالب) وكان محمد، بعد زواجه من خديجة واستقرار حياته المادية، قد ضمه إليه ليخفف العبء عن كاهل أبيه العم أبى طالب، برا بعمه ووفاء ببعض حقه عليه، وهو الذى كفله بعد وفاة جده عبدالمطلب، وأسبغ عليه من رعايته وحنانه ما لم يحظ بمثله بنوه. و (زيد بن حارثة) ولده بالتبنى. وكانت أم زيد قد خرجت به صبيا تزور أهلها، فضل منها فى الطريق فالتقطه من باعه رقيقا فى إحدى أسواق العرب، واشتراه (حكيم بن حزام بن خويلد الاسدى) لعمته السيدة خديجة. فطابت لزيد الحياة فى البيت الكريم. حتى جاء أبو زيد (حارثة بن شرحبيل الكلبى) ينشد ولده بعد أن طال بحثه عنه. فترك (محمد بن عبدالله) الامر كله لزيد: إذا شاء بقى حيث هو فى بيت محمد على الرحب والسعة، وإن أراد ذهب مع أبيه حارثة. واختار زيد محمدا، فما لبث أن انطلق به إلى الملا من قريش، وأشهدهم على أن زيدا ولده بالتبنى [۱۴] وأسلم كذلك (أبو بكر بن قحافة) وكان له وضع آخر: إذ ليس هو من عشيرة المصطفى وذوى قرباه، ولا كان فى فتوة الصبا كعلى وزيد، وإنما هو من رجال بنى تيم بن مرة بن كعب، وقد بلغ سن الكهولة وأخذ مكانته فى المجتمع المكى القرشى، سيدا مهيبا وقورا، مشهودا له بالفضل والمروءة ودماثة الطبع ورجحان العقل. وكان [صفحه ۶۰] أنسب قريش لقريش وأعلمها بأخبارها، فلما سبق إلى الاسلام بمجرد أن دعاه المصطفى إليه، توقعت قريش أن يكون لهذا الامر ما بعده. وصح ما توقعت: استطاع أبو بكر بجاذبية شخصيته ووقار سنه وسداد رأيه، أن يكسب للدين الجديد خمسة من رجال قريش الاعلام: عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس، والزبير ابن العوام الاسدى المخزومى، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص الزهربان، وطلحة بن عبيد الله التيمى. فهؤلاء النفر الثمانية، هم طليعة السابقين الاولين الذين اختاروا لواء المصطفى وبدأ بهم الاسلام خطوته الاولى على الطريق الطويل. ومنهم تأسست الكتيبة الاولى لحزب الله فى مستهل الدعوة، ليلقى العصبة الباغية من المشركين وحزب الشيطان، فى صراع مرير بين حق وباطل. ولقد تهيب المصطفى عليه الصلاة والسلام فى أول الامر أن يلقى قريشا بدعوته جهرا، فأسر بها إلى من آنس فيهم الاستعداد لقبولها والايمان بها. وما أسرع ما استجاب له الموالى الارقاء الذين وجدوا فى الاسلام ملاذا لهم من الوضع المهين الذى مسخ آدميتهم وأهدر إنسانيتهم. وكذلك أسلم عدد من أحرار المكيين، الرجال والنساء. وكانوا إذا أرادوا الصلاة تحاشوا الكعبة، وتحاشوا كذلك أن [صفحه ۶۱] يصلوا فى بيوتهم، وذهبوا فى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم عن قومهم، إذ كانوا قلة، وفى بيوتهم من لا يدينون بغير ما وجدوا عليه آباءهم. لكن أمر الاسلام لم يكن بحيث يخفى طويلا بعد أن

فشا. وتلقى الرسول المصطفى أمر الله سبحانه [١٥] فجهر بالدعوة وبادى قومه بها. ولعلهم استخفوا به أول الامر، وكبر عليهم أن يظهروا غيظهم منه. حتى ذكر المصطفى آلهتهم وعابها، فناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته، الا القلة التى ترددت فيه. ماذا تستطيع قريش، لمن آمنوا بمحمد، من صميم بيوتها وسادة عشائرها ؟ لئن أعياها أن تثب عليهم أو تنالهم بأكثر من السخرية والمقاطعة والوعيد، فقد بقى الموالى المستضعفون تنفس فيهم عن قهرها وغيظها، وتتسلط عليهم بأبشع ضروب التعذيب والفتنة. ولم يفتها وهى ترى مواليها يسارعون إلى الاستجابة للاسلام، أن تلمح ما وراء هذه البادرة من خطر يهدد الوضع الطبقى الذى قامت عليه حياة قريش جيلا بعد جيل. كما لم يفتها أن تدرك ما يتطلع إليه الارقاء من خلاص بهذا الدين الجديد الذى يقرر أن الناس جميعا إخوة، ويبطل عبودية البشر لغير خالقهم. [صفحه ۶۲] وقامت قائمة قريش، وائتمروا فيما بينهم فوثب كل حى من أحيائها على من فيه من الموالى الذين أسلموا، فكانوا إذا حميت الظهيرة يخرجونهم إلى بطحاء مكة فيطرحونهم على ظهورهم، ثم يأمرون بالصخرة الضخمة فتلقى على صدر الرجل منهم، ويقول له سيده: - لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى. فيرد العبد المؤمن وهو فى هذا البلاء: (أحد أحد). فى الخبر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بآل ياسر وقد أخرجهم سادتهم من بنى مخزوم إلى بطحاء مكة وتفننوا فى تعذيبهم. فلم يستطع عليه الصلاة والسلام أن يدفع البلاء عن هذه الاسرة المؤمنة، وقال مواسيا: (صبرا آل ياسر) وصبروا حتى استشهدت (سمية) وهى تأبى إلا الاسلام. ورووا أن أبا بكر مر بجارية لبنى عدى بن كعب، وعمر بن الخطاب - قبل إسلامه - يعذبها على جمر الصخور الملتهبة بالقيظ ليفتنها عن دينها. فما زال يضربها حتى مل، فكف عنها وهو يقول لها: - إنى أعتذر إليك، فلم أتركك إلا عن ملالة ! وألح أبو بكر على عمر، حتى باعه إياها. فأعتقها لوجه الله كما أعتق عددا غيرها من المستضعفين بعد أن اشتراهم. قال له أبوه (قحافة) يحاوره: [صفحه ۶۳] - إنى أراك يا بنى تعتق رقابا ضعافا، فلو أنك فعلت ما فعلت، أعتقت رجالا أشداء يمنعونك ويقومون دونك ؟ رد الصديق أبو بكر: - يا أبت، إنى إنما أريد ما أريد لوجه الله [١۶] فيروى أن هذه الآيات من سورة الليل نزلت فيه [١٧] : (إن علينا للهدى. وان لنا للاخرة والاولى. فانذرتكم نارا تلظى. لا يصلها الا الاشقى. الذى كذب وتولى. وسيجنبها الاتقى. الذى يؤتى ماله يتزكى. وما لاحد عنده من نعمة تجزى. الا ابتغاء وجه ربه الاعلى. ولسوف يرضى.) (صدق الله العظيم) أسلم (خباب بن الارت) وأعيا قريشا أن تفتنه عن دينه [١٨] وكان من أمهر الموالى الصناع، يعمل السيوف بمكة للسادة القرشيين، وقل أن يجدوا من يدانيه حذقا للصنعة وتواضعا فى الاجر. واحتاج فى محنة الفتنة والاضطهاد، إلى مال يفتدى به نفسه، فذهب إلى السيد (العاص بن وائل السهمى) يتقاضاه أجر سيوف كان [صفحه ۶۴] قد عملها له. فنظر إليه السيد الشريف مليا ثم قال يسأله ساخرا: - أليس يزعم محمد صاحبكم، هذا الذى أنت على دينه، أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة ؟ رد (خباب) وهو لا يدرى وجه السؤال: بلى. قال العاص بن وائل: - فأمهلنى إلى يوم القيامة يا خباب، حتى أرجع إلى تلك الدار الآخرة فأقضيك هنالك حقك، فوالله لا تكون أنت وصاحبك محمد يا خباب، آثر عند الله منى ولا أعظم حظا من ذلك. وانصرف خباب، وعوضه على الله سبحانه. وراح العاص بن وائل يباهى فى مجامع قريش بحيلته الذكية الماكرة التى أصاب فيها عصفورين بحجر واحد: أكل مال خباب عقابا له على إسلامه، واستهزأ بدينه وصاحبه ! ولم يمض وقت طويل حتى كان المصطفى يتلو فى مكة من وحى ربه: (وإذا تتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين كفروا للذين امنوا اى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا - وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن أثاثا ورئيا - قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا - حتى إذا رأوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شر مكانا وأضعف جندا - ويزيد الله الذين اهتدوا هدى، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا - أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال [صفحه ۶۵] لاوتين مالا وولدا - اطلع الغيب ام اتخذ عند الرحمن عهدا - كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا - ونرثه ما يقول ويأتينا فردا - واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا - كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا -) (صدق الله العظيم) [صفحه ۶۶]

والليل إذا يغشى

(وإذا جاءتهم آیة قالوا لن نؤمن حتی نؤتی مثل ما أوتی رسل الله، الله أعلم حیث یجعل رسالته، سیصیب الذین أجرموا صغار عند الله وعذاب شدید بما کانوا یمکرون –) (صدق الله العظیم) عجب أی عجب ! الجزیرة کلها کانت من سنین، تتحدث عن إرهاصات بنبی حان زمانه. ومکة علی وجه الخصوص، کانت تترقب أن یکون هناک مبعثه. والعیون کلها کانت ترمقه فی مهده وصباه وشبابه، رانیة إلی [صفحه ۶۷] ما تفرد به من مخایل وشمائل، متفائلة بیمنه وبرکته. ولکن الامر حین جاء، کان أعظم من أن یصدق وأخطر من أن یتلقی بالتسلیم والاقرار. ولقد قالها (ورقة بن نوفل) للمصطفی، غداة المبعث: والذی نفسی بیده، إنک لنبی هذه الامة، ولتکذبن ولتؤذین ولتخرجن. سأله علیه الصلاة والسلام: (أو مخرجی هم ؟). فقال ورقة: – نعم، لم یأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودی [۱۹] وکان (ورقة) ینطق بما قرأ من تاریخ الادیان، وعرف من طبیعة الشعوب والجماعات: لم یأت رجل قط بمثل ما جاء به محمد رسول الله، الا عودی. ولیست العرب أقل عنادا وتمسکا بدین الآباء، من أمم قبلها کذبت بالحق لما جاءها. وهذه قریش، لم تصدق سمعها حین جهر فیها المصطفی بدعوته. وکان فی حسابها أن تلقاه مجتمعة علی الرفض والتکذیب. أما وقد آمن به من آمن، فقد وجدت الکثرة الضالة ما تقوله تخدیرا لضمیرها بمنطق عنادها ومقاییس مجتمعها: [صفحه ۶۸] أیؤثر (محمد بن عبدالله) بالنبوة، وما عرفت له قریش مالا ممدودا ولا بنین شهودا، وإن عرفت له شرف المنبت وکرم الخلق ونقاء السیرة ؟ أینزل علیه هذا القرآن، ولا ینزل علی رجل عظیم من أصحاب الثراء والعدد والجاه والنفوذ، فی مکة أو فی الطائف ؟ لقد أمضی شبابه کله لم یجمع مالا، ولا تهالک علی ما کان قومه یتهالکون علیه من وظائف السیادة ومراکز الجاه فی المجتمع القرشی بأم القری. ثم هو أب لبنات أربع، لم یولد له من البنین غیر عبدالله والقاسم، وقد ماتا صغیرین فی سن الرضاعة. وزوجه خدیجة شارفت سن الیأس بعد أن بلغت الخامسة والخمسین من عمرها، ولا یبدو علیه أنه یفکر فی أن یستبدل زوجا أخری مکانها أو یتزوج علیها، وهی أنس دنیاه وموضع حبه وإعزازه، وحیاتهما الزوجیة مضرب الامثال فی حسن العشرة وصدق المودة وعمق التفاهم والاخلاص. ولا تذکر قریش أنه شارک فیما یشغلها من صراع علی مراکز القوی والجاه، إلا یوم جددت بناء الکعبة، قبل المبعث بخمس سنوات، وارتضت حکمه فیما شجر بین قبائلها من خلاف علی الحجر الاسود، حسمه الامین بحکمته. ثم لم یعد المجتمع المکی یری محمدا فی الزحام، حتی مضت خمس سنین وخرج من غار حراء یتلو کلمات الوحی. قال الولید بن المغیرة المخزومی، أبو خالد: [صفحه ۶۹] أینزل القرآن علی محمد، وأترک وأنا کبیر قریش، ویترک أبو مسعود عمرو بن عمیر سید ثقیف، ونحن عظیما القریتین ؟ وذاعت کلمته فی أهل القریتین: مکة والطائف، فترکتهم فی حیرة قد تشابه علیهم الامر فی مقاییس العظمة التی یفضل بها المصطفی، عظیمی القریتین. وتلقی علیه الصلاة والسلام من کلمات ربه: (بل متعت هؤلاء وآبائهم حتی جاءهم الحق ورسول مبین – ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به کافرون – وقالوا لولا نزل هذا القران علی رجل من القریتین عظیم – أهم یقسمون رحمة ربک، نحن قسمنا بینهم معیشتهم فی الحیاة الدنیا، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات لیتخذ بعضهم بعضا سخریا، ورحمة ربک خیر مما یجمعون –) (صدق الله العظیم) وکذلک أنکر (أمیة بن أبی الصلت) أن یصطفی محمد بن عبدالله نبیا، وکان أمیة یری نفسه أهلا لهذا الاصطفاء ! فی أخریات الجاهلیة، کان ابن أبی الصلت من الفئة القلیلة التی أنکرت عبادة الاوثان، وهم الحنفاء الذین لمحت فیهم أم القری بقیة میراث من ذکری دین ابرهیم الحنیف. [صفحه ۷۰] قالوا: ما حجر نطوف به لا یبصر ولا یسمع ولا یضر ولا ینفع ؟ یا قوم، التمسوا لکم دینا فإن قومکم علی سفه وضلال. ثم تفرقت بهم السبل: بعضهم مال إلی النصرانیة وأقام فی الحبشة أو فی بلاد الروم. وبعضهم قرأ الکتب فلم یدخل فی نصرانیة ولا یهودیة، واکتفی باعتزال الاوثان والذبائح التی تذبح قربانا لها، ونهی عن قتل الموؤودة وقال: أعبد رب ابرهیم. من هؤلاء، کان أمیة بن أبی الصلت: شاعر ثقیف وحکیمها. وأمه من صمیم البیت القرشی: رقیة بنت عبد شمس بن عبد مناف. وعبد مناف هو الجد الثالث للمصطفی: محمد بن عبدالله ابن عبدالمطلب ابن هاشم بن عبد مناف. لم یذهب أمیة إلی روم أو حبشة، بل قرأ کتب الدین ورغب عن عبادة الاوثان، وأقام فی قومه یتنبأ لهم بدین جدید آن وقته، ویتحدث فیهم عن نبی مرسل حان مبعثه، ویشدو فی

ليل الجاهلية بدعاء الفجر المرتقب: إن آيات ربنا ظاهرات - ما يمارى فيهن إلا الكفور حبس الفيل بالمغمس حتى - ظل يحبو كأنه معقور كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور وبزغ النور الذى بشر به أمية. وجاء دين التوحيد الذى أرهص به وشدا له. [صفحه ۷۱] وإذا به يرفض ويأبى ويستكبر، ويجاهر المصطفى بأشد العداوة والبغضاء. وانكشف موقفه: لقد كان يبشر بنبى جديد وهو يرجو أن يكونه. فلما تخطاه الاصطفاء إلى محمد بن عبدالله الهاشمى، نكص على عقبيه كافرا بدين الحق. وظاهر الوثنية القرشية فى حربها للدين الحنيف، حتى مات على الكفر تدمغه كلمة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فيه: (آمن لسانه وكفر قلبه.) بعث المصطفى صلى الله عليه وسلم، وثلاث من بناته الاربع حديثات عهد بالزواج فى أعز بيوت قريش: كبراهن (زينب) تزوجها ابن خالتها هالة بنت خويلد: (أبو العاص بن الربيع بن عبدالعزى) حفيد قصى، الجد الرابع للمصطفى. وكان أبو العاص سريا نبيلا، مع عراقة نسبه وشرف موضعه. و (رقية وأم كلثوم) عروسان لابنى عم المصطفى: عتبة وعتيبة ابنى عبدالعزى بن عبدالمطلب بن هاشم، من زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس. أما صغراهن (فاطمة) فلم تكن بلغت سن الزواج بعد، وقد ولدت قبل المبعث بخمس سنوات. [صفحه ۷۲] وأسلمت بنات المصطفى، وأزواجهن الثلاثة على الشرك. وكره المصطفى أن يخرج بناته المسلمات من بيوت أزواجهن الكفار. ولم يكن الاسلام قد شرع بعد، تحريم زواج مؤمنة بكافر، ولا نزلت آيات القرآن فى التفريق بين المؤمنات والكفار. ووجدتها قريش فرصة سانحة، لتؤذى المصطفى فى بناته. قال بعضهم لبعض: - إنكم قد فرغتم محمدا من همه، فردوا عليه بناته فأشغلوه بهن. ومشوا إلى أصهاره صلى الله عليه وسلم، واحدا بعد الآخر، فقالوا لكل منهم: - فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت. فأما أبو العاص بن الربيع، فأبى أن يفارق زوجه (زينب بنت محمد) ورد على من كلموه فى فراقها بقوله: (والله ما أحب أن لى بها امرأة أخرى من قريش). وأما ابنا عبدالعزى بن عبدالمطلب، فطلقا رقية وأم كلثوم، بإلحاح من أمهما بنت حرب، أخت أبى سفيان. وخاب ظن قريش وكيد بنت حرب. لم يشغل المصطفى بناته عن دعوته. ولم يشق عليه رجوع بنتيه رقية وأم كلثوم إلى بيته، وقد أراد الله بهما خيرا فنجاهما من معاشرة ابنى أبى لهب، ومحنة العيش مع امرأته حمالة الحطب. ثم أبدلهما الله، بعد حين، خيرا منهما: [صفحه ۷۳] تزوج رقية عثمان بن عفان أحد السابقين الاولين إلى الاسلام، وهاجرت معه إلى الحبشة ثم إلى المدينة، فلما توفيت يوم بدر خلفتها أختها أم كلثوم، زوجا لعثمان ذى النورين). بئست الكنية أبو لهب، لعبد العزى بن عبدالمطلب بن هاشم. قبل أربعين عاما من المبعث، تلقى عبدالعزى بشرى مولد محمد، ابن أخيه الراحل عبدالله بن عبدالمطلب. حملتها إليه مولاة له تدعى (ثويبة) فأعتقها ببشراها ! ثم لما بلغ الوليد أشده واصطفاه الله تعالى رسولا، لم يعد عبد العزى يعرف باسمه، وإنما غلبت عليه كنيته أبو لهب ! كما لصق بامرأته أم جميل بنت حرب، لقب حمالة الحطب منذ نزلت فيهما آيات المسد: (تبت يدا أبى لهب وتب - ما أغنى عنه ماله وما كسب - سيصلى نارا ذات لهب - وامرأته حمالة الحطب - فى جيدها حبل من مسد). لم يكتف الملعون بأن يرفض دعوة ابن أخيه ويرد إليه ابنتيه رقية وأم كلثوم طالقين. بل تصدى له بالتكذيب والاستهزاء، من الفترة الاولى التى كان المصطفى يتهيب فيها الجهر بدعوته فى الناس، ويكتفى بتبليغها إلى من يأنس لديه قبولا. [صفحه ۷۴] وتلقى المصطفى من كلمات الوحى: (وأنذر عشيرتك الاقربين، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين - وقل إنى أنا النذير المبين.) وغدا صلى الله عليه وسلم فأتى الصفا فصعد عليه ونادى ينذر عشيرته الاقربين من بنى هاشم وقريش: (واصباحاه) فلما اجتمع له القوم ابتدرهم قائلا: (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقى ؟). أجابوا من غير تردد: (ما جربنا عليك كذبا قط). قال: (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب أليم). عندئذ انبرى له عمه عبدالعزى قائلا: (تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟). ومضى على غلوائه، فكان من أشد الكفار عداوة للاسلام وإيذاء للنبى، ابن أخيه، عليه الصلاة والسلام. ومن ورائه امرأته أم جميل بنت حرب، أخت أبى سفيان. وقد غاظها أن تسمع ما نزل فيها وفى زوجها أبى لهب من القرآن، فخرجت تطلب المصطفى وفى يدها فهر، حجارة تملاـ الكف. وسمعت أنه صلى الله عليه وسلم فى الكعبة، فاندفعت نحوه فى شراسة وهى تهدر صاخبة بالوعيد، لكن بصرها تخطى المصطفى [صفحه ۷۵] فلم تره، ورأت صاحبه أبا بكر هناك، فسألته: - أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى. والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر، إنه إن يكن شاعرا فإنى لشاعرة.

وانصرفت وهى ترتجز: مذمما – عصينا وأمره – قلينا ودينه – أبينا قال الصديق للمصطفى: – يا رسول الله، أما تراها رأتك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: – (ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى). وحدث مرة أن أخذت أبا لهب حمية الدم الهاشمى، فغضب لما رأى من جور قريش على بنى هاشم الذين أبوا أن يخذلوا ابن عبدالله ابن عبدالمطلب، وإن لم يتابعوه على دينه، كراهة أن يعقوا أوثانا وجدوا آباءهم لها عابدين. فى خبر أن أبا سلمة المخزومى، ابن برة بنت عبدالمطلب، استجار بخاله أبى طالب حين أراد قومه أن يفتنوه عن إسلامه. فمشى رجال من بنى مخزوم إلى أبى طالب فقالوا له فى غلظة: – لقد منعت منا ابن أخيك محمدا، فما لك ولصاحبنا تمنعه منا ؟ [صفحه ۷۶] قال: إنه استجار بى، وهو ابن أختى. فإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى. وكان أبو لهب حاضرا فقال مغضبا، وقد أخزاه أن يضام أخوه – ولم يسلم – على مرأى منه ومسمع: – يا معشر قريش، والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ. ما تزالون تتوثبون عليه فى جواره من قومه. والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه. فآثروا الابقاء على أبى لهب فى حزبهم، وقالوا يسترضونه: – بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة [۲۰] لكن أبا عتبة الذى كره أن يضام أخوه أبو طالب، وليس على دين محمد لم يكره أن يعق محمدا ابن أخيه عبدالله، ويخذله ويؤذيه. أعشى سحر أم جميل بصره وأمات مروءته ونخوته، فتسلط بالاذى على المصطفى، ابن أخيه ومن اتبعه. فيقول الشاعر الاحوص فى حمالة الحطب، امرأة أبى لهب: ما ذات حبل يراه الناس كلهم – وسط الجحيم ولا يخفى على أحد كل الحبال، حبال الناس، من شعر – وحبلها وسط أهل النار من مسد [صفحه ۷۷] ضاقت بهم ساحة البيت العتيق وقد تجمعوا هناك يهدرون بالوعيد، فيكاد من يراهم يحسبهم محتشدين تأهبا لقتال. وجاء العدو، فردا أعزل إلا من إيمانه.. أقبل المصطفى على الحرم يمشى خاشعا حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفا بالكعبة لا يلقى إليهم بالا. وقصرت عنه أيديهم ورماحهم، وطالت ألسنتهم يلمزونه ببعض القول. ومضى فى طوافه، فكلما مر بهم تطاولت ألسنتهم بالغمز واللمز، حتى أتم الطواف فواجههم فردا، ليس معه سلاح غير كلمات ربه. وتلا كلمة، وقعت عليهم كالصاعقة فما منهم رجل إلا كأن على رأسه طائرا وقع. وانكمشوا متضائلين، حتى ليقول من كان أصخبهم هديرا وأنكرهم صوتا: (انصرف يا أبا القاسم، فوالله ما كنت جهولا). وانصرف أبو القاسم عليه الصلاة والسلام، فما كاد يغيب عن أبصارهم حتى عادوا أسودا غضابا، يقول بعضهم لبعض متلاومين: – ذكرتم ما أصابكم من أمر محمد، حتى إذا باداكم بكلمة مما تكرهون تركتموه ؟ وأجمعوا أمرهم من جديد للقاء العدو ! فلما كان الغد وجاء المصطفى يصحبه أبو بكر، لم يمهلوه حتى [صفحه ۷۸] يلقاهم بكلمة تصدعهم، بل وثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون متوعدين: – أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ وأعادوا عليه ما قال فى إنكار أوثانهم وتسفيه عقولهم وضلال آبائهم، والمصطفى يجيب: (نعم، أنا الذى أقول ذلك). وهموا به يتجاذبون رداءه، فقام أبو بكر دونه يدفعهم عنه ويقول: – أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ فتحول أسود القطيع إلى أبى بكر يجبذون لحيته، وتكاثروا عليه فما تركوه يومئذ إلا وقد صدعوا فرق رأسه.. [۲۱] وبدا لقريش أن توفد رجالا منها إلى أبى طالب، عم المصطفى وشيخ بنى هاشم، لعلهم يستطيعون إقناعه بأن يحمل ابن أخيه على أن يكف عن دعوته التى فرقت كلمتهم ومزقت شملهم. ومشى وفدهم إلى أبى طالب فقالوا فى تودد: – يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آباءنا. فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولا رفيقا وردهم ردا جميلا، فانصرفوا عنه [صفحه ۷۹] وهم يرجون أن ينتهى هذا الامر الذى أرق ليلهم وشغل نهارهم.. لكن المصطفى مضى على ما هو عليه. يظهر دين الله ويدعو إليه، حتى اشتد الموقف بين المسلمين والمشركين تباعدا وتضاغنا، ولم يعد لقريش حديث إلا عن محمد، يحض بعضهم عليه بعضا. وعاودوا الكلام مع عمه فقالوا: – يا أبا طالب، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا. وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا. وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. وعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم تطاوعه نفسه على خذلان ابن أخيه.. – وجاء المصطفى فسمع حديث عمه عن شكوى قومه، ثم قال: (يا عم، إنى أريدهم على كلمة واحدة). قالوا بصوت واحد: – كلمة واحدة ؟ نعم وأبيك، وعشر كلمات ! فما هى ؟ قال: (لا إله إلا الله). فانتفضوا مذعورين وخرجوا غضابا ينفضون ثيابهم ويهزون رؤوسهم فى رفض

وإنكار: (أجعل الآلهة إلها واحدا. إن هذا الشئ عجاب). قال له عمه بعد خروجهم: [صفحه ۸۰] - يا ابن أخى، أبق على وعلى نفسك، ولا تحملنى من الامر ما لا أطيق. رد المصطفى، وقد ظن أن عمه ضعف عن نصرته: (يا عم، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته). واستعبر لم يملك دمعه، وهو يوشك أن يفارق عمه الذى كان له أبا وكافلا وراعيا وصديقا. ناداه عمه وقد رآه يمضى حزينا أسفا: - أقبل يا ابن أخى. فأقبل عليه الصلاة والسلام ليسمع كلمة عمه أبى طالب: - اذهب يا ابن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشئ أبدا. عرفت قريش أن أبا طالب لن يتخلى عن نصرة أبن أخيه ولن يخذله، فليس لها إليه من سبيل إلا أن تخوض حربا مع بنى هاشم. وفى سورة غيظها وقهرها، زين لها سفهها رأيا أحمق: ماذا لو ساومت أبا طالب على محمد، ابن أخيه، وتعطيه فتى من فتيانها بديلا عنه ؟ وليكن هذا البديل (عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومى) زين شباب بنى مخزوم فتوة وعقلا ـ وقبل عمارة، رجاء أن تنحسم به الفتنة التى مزقت قومه قريشا. [صفحه ۸۱] وبقى أن يرضى أبو طالب ! ومشوا إليه بعمارة بن الوليد فقالوا: - يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد، أنهد فتى فى قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدا فهو لك، وأسلم إلينا ابن اخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم، فنقتله فإنما هو رجل برجل. ولم يصدق أبو طالب سمعه ! كيف بلغ بهم السفه أن يساوموه على ابن أخيه بمثل هذه الصفقة الحمقاء ؟ لقد أضاعت قريش رشدها ورب الكعبة ! قال فى تؤدة: - والله لبئس ما تساوموننى، أتعطوننى ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابنى تقتلونه ؟ هذا والله ما لا يكون أبدا. قال له (المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف): - والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئا. ورد أبو طالب على المطعم، حفيد عبد مناف بن قصى: والله ما أنصفونى، ولكنك قد أجمعت خذلانى ومظاهرة القوم على، فاصنع ما بدا لك. وانصرف القوم على يأس. وكذلك نفض أبو طالب يده من بنى عمومته، آل عبد شمس. [صفحه ۸۲] ونوفل، ومن أصهاره وذوى قرباه فى تيم ومخزوم وزهرة، وأدرك أن القوم قد تظاهروا على من يمنعون محمدا، من بنى عبدالمطلب وبنى هاشم. ووثبت القبائل من قريش على من فيها من أصحاب المصطفى الذين أسلموا معه، يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وبقى بنو هاشم على نصرة محمد بن عبدالله، إلا قليلا منهم مع أبى لهب تبت يداه. أقبل الفارس عائدا من رحلة صيد. قد توشح قوسه وأطلق عنان فرسه، حتى إذا دنا من البيت الحرام ترجل إجلالا للكعبة، ثم انطلق متمهلا ـ فى شموخ وزهو. وفى طريقه إلى بيته، مر بأندية قريش يتلقى حيثما سار تحية الاعجاب بفتوته وفروسيته. وازدهاه أن ترى قريش فيه: حمزة بن عبد المطلب الهاشمى، أعز فتى فيها وأشدها شكيمة. قرب الصفا، استوقفته مولاة لعبد الله بن جدعان التيمى، فتمهل ملقيا إليها بعض سمعه، وفى ظنه أن الفتاة مأخوذة ببهاء فتوته. قالت وهى تسدد إليه نظرة ثاقبة: - يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد آنفا من أبى [صفحه ۸۳] الحكم بن هشام ؟ وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف لم يكلمه محمد، صلى الله عليه وسلم. ولم يرد عليها الفارس بكلمة. لوى عنان فرسه وقد احتمله الغضب، فلم يتوقف حتى بلغ البيت العتيق، ولمح أبا جهل بن هشام جالسا هناك بين القوم يتشدق بما آذى به محمد بن عبدالله. فشق حمزة طريقه إليه صامتا لا يتكلم، إلى أن قام على رأسه فرفع قوسه وشجه بها شجة منكرة وهو يقول متحديا: - أتشتم محمدا وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على إن استطعت ! وغشى القوم دوار ما كادوا يفيقون منه حتى أدركوا أن السهم قد نفذ ! أسلم حمزة، وكان حتى تلك اللحظة على دين آبائه. وعرفت قريش أن محمدا ازداد به عزا ومنعة، فلن يلبث حمزة أن يدخل المعترك بينه وبين المشركين، فارسا لا يلحق به غبار، وأسدا لا ـ يغلب. وأوى حمزة إلى بيته فبات ليلته مؤرقا، يدعو الله أن يشرح صدره للدين الجديد الذى أعلن دخوله فيه، مدفوعا بمروءته وشهامته ونجدته. حتى تنفس الصبح، فغدا حمزة إلى الكعبة فما استقبلها إلا وقد اطمأن قلبه وتفتح لنور الحق. [صفحه ۸۴] وسعى من فوره إلى بيت ابن أخيه المصطفى فبايعه. ثم خاض معه معركته الباسلة، أسد الله وأسد رسوله. وبسيفه الصارم المنصور جندل رءوسا من طواغيت قريش يوم بدر، ومن بعده قاتل يوم أحد حتى اغتالته حربة غادرة سددها إليه (وحشى) بتحريض من (هند بنت عتبة، زوج أبى سفيان بن حرب). ورقصت هند على مصرع الفارس البطل، وانتزعت كبده فلاكتها، وذهبت فى تاريخ الاسلام

بلقب آكلة الاكباد. وذهب الفارس البطل، بلقب سيد الشهداء. [صفحه ۸۵]

ام يقولون: افتراه ؟

(فلا أقسم بما تبصرون - وما لا تبصرون. إنه لقول رسول كريم - وما هو بقول شاعر، قليلا ما تؤمنون - ولا بقول كاهن، قليلا ما تذكرون - تنزيل من رب العالمين) (صدق الله العظيم) الدنيا ليل. ومكة مؤرقة بسهدها، تشهد ائتمار قريش بالمصطفى ومن معه. لا عن ارتياب في صدقه وأمانته، ولكن خافت أن تفقد الوثنية سلطانها على العرب. وعليها كانت قريش تعتمد في ترسيخ نفوذها وتضخم ثرائها، منذ جعلت المواسم الدينية في أم القرى، مواسم للتجارة. [صفحه ۸۶] وهذا الموسم على وشك اقتراب، ومحمد يجهر بدعوته لا يبالي أحدا. وقد سمعت قريش ما تلاه من كلمات ربه، فأدركت من فورها أنها المعجزة التي لا يملك أي عربي يصغي إليها، أن يصرف عنها سمعه وقلبه وضميره. فإن خلت قريش بين محمد والقبائل الوافدة على الموسم، يتلو فيها هذا القرآن، فإن العرب لن يترددوا في الايمان بالمعجزة. وفي دار الندوة بمكة، حيث اعتادت قريش من عهد جدها (قصي بن كلاب) أن تعقد فيها مجالسها كلما أهمها أمر واحتاجت فيه إلى المدارسة وتبادل الرأي، اجتمع نفر من طواغيت قريش وقام فيهم (الوليد بن المغيرة المخزومي) فقال: - يا معشر قريش، إن وفود العرب ستقدم عليكم، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا. قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول به. قال: بل أنتم فقولوا اسمع. قالوا: نقول، كاهن. ورد عليهم الوليد بن المغيرة: - لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه. قالوا: فنقول، مجنون. [صفحه ۸۷] ورد عليهم: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته. قالوا: فنقول، شاعر. ورد عليهم: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وقصيده، وهزجه وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر. قالوا: فنقول، ساحر. ورد عليهم: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. وغلبوا على أمرهم لا يدرون ما يقولون في المصطفى ومعجزته، فسألوا الوليد: - فما تقول أنت يا أبا عبد شمس ؟ أجاب: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجناة. وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: ساحر جاء بقول هو السحر، يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته. [۲۲] وانفض المجلس بعد أن أجمعوا على أن يترصدوا للوفود على مداخل مكة فيأخذوا سبل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذروه أن يسمع ما يتلو محمد من كلمات هي السحر. والمصطفى يتلو من آيات ربه: [صفحه ۸۸] (ن، والقلم وما يسطرون - ما أنت بنعمة ربك بمجنون - وان لك لاجرا غير ممنون - وإنك لعلى خلق عظيم - فستبصر ويبصرون - بايكم المفتون - إن ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بالمهتدين.) وأوجس أبو طالب في نفسه خيفة، أن يظاهر عامة العرب قومه على ابن أخيه فيجتمعوا ألبا عليه وعلى من ينصره من بني عبدالمطلب وهاشم، فأنشد في الموسم قصيدة مطولة، يتعوذ فيها بحرم مكة ومكان المصطفى منها، ويعتب على أشراف قومه ناشدا مروءتهم، ومعلنا في الوقت نفسه، أنه لن يخذل ابن أخيه ولن يتركه لشئ أبدا أو يهلك دونه. قال: إذا اجتمعت يوما قريش لمفخر - فعبد مناف سرها وصميمها وإن حصلت أشراف عبد منافها - ففي هاشم أشرافها وقديمها وإن فخرت يوما فإن محمدا - هو المصطفى من سرها وكريمها تداعت قريش غثها وسمينها - علينا فلم تظفر وطاشت حلومها [صفحه ۸۹] وكنا قديما لا نقر ظلامة - إذا ما ثنوا صعر الخدود نقيمها ونحمي حماها كل يوم كريهة - ونضرب عن أحجارها من يرومها. وصدرت القبائل من ذلك الموسم بأمر المصطفى، فانتشر ذكره في بلاد العرب. الايام تمضي. وحزب الله يزداد على الاذى والاضطهاد قوة وثباتا. وقريش تكاد تموت بغيظها، وما تلمح على المصطفى وأصحابه بادرة ضعف أو تردد. وفي نادي قريش، كان الزعماء يتدارسون الموقف الصعب، حين رأوا المصطفى يأخذ طريقه إلى المسجد الحرام، وحيدا ليس معه صاحب. قال لهم (عتبة بن ربيعة بن عبد شمس): - ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا ؟ قالوا وقد داخلهم الخوف من إسلام حمزة بن عبدالمطلب: - بلى يا أبا الوليد، فقم إليه فكلمه. وقام عتبة حتى جلس إلى المصطفى صلى الله عليه وسلم فقال له متلطفا متوددا: [

صفحه ۹۰] – يـا ابن أخي، إنك منا حيث قـد علمت من الشـرف في العشـيرة والمكان في النسب. وإنك قـد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جمـاعتهم وسـفهت به أحلامـهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضـي من آبائهم. فاسـمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضـها. قال عليه الصـلاة والسـلام: (قل يا أبا الوليـد، أسـمع). وقال أبو الوليـد: – يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الامر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا. وإن كنت تريد به شـرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك. وإن كنت تريـد به ملكا ملكناك علينا. وإن كان هـذا الـذي يأتيك رئيا تراه لا تسـتطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبـذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يـداوى منه. سأله المصـطفى: (أقد فرغت يا أبا الوليد ؟) قال: نعم. قـال المصـطفى: (فاسـمع مني)، وتلاـ عليه الصـلاة والسـلام من سورة فصـلت: (بسم الله الرحمن الرحيم (حم، تنزيـل من الرحمن الرحيم – كتاب فصـلت آياته قرآنا [صفحه ۹۱] عربيا لقوم يعلمون – بشـيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون – وقالوا قلوبنا في أكنـة ممـا تـدعونا إليه وفي آذاننـا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون – قل إنما أنا بشـر مثلكم يوحى الى أنما إلهكم إله واحـد فاسـتقيموا إليه واسـتغفروه، وويـل للمشـركين). وكـان عتبـة ينصت لهـا وقـد ألقي يـديه خلف ظهره معتمـدا عليهمـا يسـمع من المصـطفى. فلمـا انتهى صـلى الله عليه وسـلم إلى قوله تعالى: (ومن آياته الليل والنهار والشـمس والقمر لا تسـجدوا للشـمس ولا للقمر واسـجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون). سـجد محمد عليه الصـلاة والسلام، ثم قال لعتبة: (قد سـمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك). ومضى عتبة مأخوذا بما سمع، حتى إذا دنا من مجلس أصحابه عرفوا أنه جاء بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم سألوه: – ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط. والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسـعد الناس به. [صفحه ۹۲] قالوا جميعا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. ورد عليهم: هذا رأيي فيه فاصـنعوا ما بدا لكم. وبقي عتبة، مع ذلك، على دينهم ودين آبائهم.. أسـلم النهار أنفاسه مرهقا مكـدودا كأنه يتعجل الليل ليسـدل سـتارا من ظلامه على المشـهد الفاجع للمؤمنين المستضـعفين من موالي قريش، وقد شدتهم بوثاق إلى جمر الصخور الملتهبة في لظى الرمضاء، لعلهم يرتدون عن دين محمد، عليه الصلاة والسلام. وبدا لقريش، وقد غربت الشـمس، أن تـدعو محمدا إلى مجلس زعمائها مجتمعين، لعله يلين. لقد فشـلت المفاوضات مع عمه أبي طالب فلم يكفه عنهم ولم يسلمه إليهم. وفشـلت كذلك المساومة التي عرضـها عليه أبو الوليد عتبة بن ربيعة. وبقي أن يجربوا مواجهته لرؤسائهم مجتمعين، فيخاصـموه حتى يعذروا فيه. وحشدوا له فئة منهم، أعلاهم في قومهم كلمة وألدهم في الجدل والخصومة. فيهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سـفيان بن حرب، والوليـد بن المغيرة، والنضـر بن الحـارث بن كلـدة، وابو البخترى بن هشـام، وأبو الحكم، أبو جهـل بن هشـام، والعـاص بن وائل، وأميـة ابن خلف.. [صـفحه ۹۳] وأجاب المصـطفى دعوتهم، فجاء إلى حيث أخـذوا مجالسـهم بظهير الكعبـة، وهو يرجو أن يكونوا قـد تـابوا إلى رشـدهم، وكـان حريصـا على هـداهم يعز عليه عنتهم وضـلالهم. قـالوا: يـا محمـد، إنـا قـد بعثنـا إليك لنكلمـك، وإنا ولله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك: لقـد شـتمت الآباء وعيبت الـدين وشـتمت الآلهة وسـفهت الاحلامـ وفرقت الجماعـة، فمـا بقي أمر قبيـح إلا جئته فيما بيننا وبينك. ومضوا في الحـديث فعرضوا عليه ما سـبق أن عرضـه وافـدهم إليه (عتبـة بن ربيعة) من مال وسـيادة وملك وطب. ورد المصـطفى: (ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولاـ الشـرف فيكم ولاـ الملـك عليكم. ولكن الله بعثني إليكم رسولاـ وأنزل علي كتابـا وأمرني ان أكـون لكم بشـيرا ونـذيرا، فبلغتكم رسالات ربي ونصـحت لكم. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.) قالوا مقترحين، يريدون إعناته: – يا محمد فإن كنت غير قابل منا شـيئا مما عرضناه عليك، فإنك قد علمت أن ليس من الناس أحـد أضـيق بلدا ولا أقل ماء ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به، فليسـير عنا هذه الجبال التي قد ضـيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا [صفحه ۹۴] كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا

منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت لنا ما سألناك، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا ـ كما تقول. قال عليه الصلاة والسلام، يرد على مقترحاتهم: (ما بهذا بعثت إليكم. إنما جئتكم من الله بما بعثنى به. وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم. فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وان تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم بينى وبينكم). قالوا: - فإذ لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك: سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك. وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالاسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا ـ كما تزعم. وقال المصطفى كلمته: (ما أنا بفاعل، وما أنا بالذى يسأل ربه هذا، وما بعثت بهذا. ولكن الله بعثنى بشيرا ونذيرا فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة، وإن تردوه على أصبر لامر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم). ولجوا فى العناد فقالوا: [صفحه ۹۵] - فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل. ورد المصطفى عليه الصلاة والسلام: (ذلك إلى الله، إن شاء أن يفعله بكم فعله). قالوا: يا محمد، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا إذ لم نقبل ما جئتنا به ؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإذا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا. فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نترككك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا، فلن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلا. وأيقن المصطفى ألا معنى للمضى فى ذلك الجدل العقيم. فقام عنهم وقام معه ابن عمته عاتكة: عبدالله بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى، فقال له مخاصما: - يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم. ثم سألوك لانفسهم أمورا ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل. ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل. ثم سألوك أن تعجل لهم بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، فوالله لا أو من بك أبدا حتى تتخذ إلى السماء سلما ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتى [صفحه ۹۶] معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول. وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أنى أصدقك: [۲۳] وانصرف المصطفى إلى أهله حزينا أسفا لما فاته مما كان يطمع به من قومه حين دعوه. حتى آنسه الوحى بكلمات ربه: (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القران لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا (۸۹) ولقد صرفنا للناس فى هذا القران من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا (۹۰) وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا (۹۱) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا (۹۲) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملئكة قبيلا (۹۳) أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا (۹۴) وما منع الناس ان يؤمنوا إذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشرا رسولا (۹۵) قل لو كان فى الارض ملئكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا - قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم، إنه كان بعباده خبيرا بصيرا.) (صدق الله العظيم) [صفحه ۹۷] هل كان الكفار من قريش فى تكذيبهم بالمصطفى وجحدهم المعجزة، بحيث يغيب عنهم أن هذا القرآن ليس من قول البشر ؟ فيم إذن كان عناؤهم بالاسلام وإعناتهم الرسول، وحرصهم على أن يأخذوا سبل الناس إلى مكة فى الموسم، ليصدوا العرب عن سماع هذا القرآن ؟. وفيم كانت حيرتهم فيه لا يدرون بم يصفونه، وإنهم لعلى يقين من أنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة ؟ وزعموا أن محمد افتراه ؟ لقد عاجزهم القرآن، بآية الاسراء، ومعهم من يظاهرهم من جن قيل إنها تلهم فحول شعرائهم روائع القصيد: (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا). ثم تحداهم بعدها، فى سورة يونس، أن يأتوا بسورة مثله، واحدة فحسب، وليدعوا معهم من استطاعوا إن كانوا صادقين فى زعم الافتراء: (وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين - أم يقولون افتراه، قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) - بل لماذا، وقد زعموا أن محمدا افتراه، لا يأتون بعشر سور مثله [صفحه ۹۸] مفتريات، وإنه لبشر مثلهم ؟ بهذا تحدتهم آية هود: (أم يقولون افتريه قل فأتوا

بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين – فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلاـ هو فهل أنتم مسلمون –) بل لماذا وقد زعموا أنه تقوله، لا يتقولون مثل هـذا الكتاب العربى المبين، والعربيـة لغتهم والبيان طوع ألسنتهم ؟ وإنه ليتحداهم، بآيـة الطور، أن يفعلوا: (فـذكر فما أنت بنعمت ربك بكاهن ولا مجنون – أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون – قل تربصوا فإنى معكم من المتربصين – أم تـأمرهم أحلامهم بهـذا، أم هم قوم طاغون – أم يقولون تقوله، بل لا يؤمنون – فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين –.) ولقد كان فيهم كهان يتسلطون عليهم بسحر السجع، وخطباء بلغاء وشعراء فحول، زعموا أن لهم توابع من الجن. وأعياهم مع ذلك أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن، كانت تعفيهم، لو استطاعوا مجتمعين أن يأتوا بها، من مثل ذلك الجدل العقيم، والمفاوضات والمساومات، والمحاولات المضنية لصرف العرب عن سماع القرآن، والتسلط على المسلمين بالاذى والاضطهاد. وتعفيهم مما كانوا يكرهون من تسفيه آبائهم وسب آلهتهم، ومما [صفحه ۹۹] كانوا يوجسون فى أنفسهم خيفة من صدام مسلح يتوقع بين لحظة وأخرى، وحرب تحصد الرؤوس وتأكل الاهل والعشيرة، وتهدر حرمة البيت العتيق والبلد الحرام. وهؤلاء هم، بكل جبروتهم وعنفوان عنادهم، يحتشدون لمقاومة بشر رسول، معجزته كلمات من وحى ربه، يعلمون علم اليقين أنها ليست من قول البشر، ويدركون حق الادراك أنهم لو خلوا بين المصطفى والعرب يتلو فيهم هذا الكتاب العربى المبين، لما ترددوا فى الايمان بالمعجزة. وماذا عساهم، لو آمن العرب بدين التوحيد، صانعين بأوثانهم التى جعلت من أم القرى المركز الاكبر للعبادة والتجارة ؟ وبالاوضاع السائدة والتقاليد والاعراف الراسخة، التى ضمنت لقريش نفوذها وثراءها ؟ بينهم وبين هـذا القرآن حجاب: (ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون – ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون) (حم – تنزيل من الرحمن الرحيم – كتاب فصلت آياته قرانا عربيا لقوم يعلمون – بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون – وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى اذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إنا عاملون – قل إنما أنا بشر مثلكم [صفحه ۱۰۰] يوحى الى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه وويل للمشركين –) (صدق الله العظيم) سجا الليل وهجعت أم القرى، والمصطفى فى بيته قائم لربه يتهجد بالقرآن حتى انبلج الفجر فصلى، والنور البازغ يهل من شرق الافق. وغير بعيد من بيته صلى الله عليه وسلم، التقى ثلاثة من مشركى قريش على غير موعد: أبو سفيان بن حرب الاموى، وأبو جهل بن هشام المخزومى، والاخنس بن شريق الثقفى. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون فيم الخروج فى هذا الوقت ؟ وإذا كل واحد منهم قد تسلل فى الليل مستترا بالظلام، فبات ليلته قريبا من بيت محمد، ليستمع إليه وهو يصلى ويتلو القرآن ! فتلاوموا، وتعاهدوا على ألا يعودوا إلى مثلها، لئلا يراهم بعض السفهاء فيوقعوا فى نفسه شيئا، أو يقتفى خطاهم فتنفذ كلمات القرآن إلى سمعه وقلبه وتملك عليه أمره. فى الليلة التالية، عاد كل رجل منهم خفية إلى موضعه قرب بيت المصطفى، وفى حسابه أن صاحبيه على عهدهما ألا يخرجا إلى هذا الموقف حتى طلع الفجر وتفرقوا فجمعهم الطريق، فتلاوموا وانصرفوا على مثل عهدهم أول ليلة. [صفحه ۱۰۱] لكنهم عادوا خفية فى الليلة الثالثة. فأخذ كل منهم مجلسه هناك، فباتوا يستمعون إلى القرآن حتى مطلع الفجر، لا يدرى أحد منهم بمكان صاحبيه. فلما جمعهم الطريق تناكروا واشتدوا على أنفسهم فى التلاوم، وصمموا على ألا يبرحوا مكانهم إلا على عهد وثيق ألا يعودوا لمثلها أبدا. وأصبح الصبح فخرج (الاخنس بن شريق) من بيته مبكرا، يريد أن يحسم الامر. أتى أبا سفيان فى داره فابتدره قائلا: – أخبرنى يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد. قال أبو سفيان، فى حيرة وتعثر، وقد بوغت بالسؤال: – يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها. ثم أمسك لم يزد. فتركه الاخنس لم يدر ما رأيه، ومضى إلى أبى الحكم بن هشام يسأله الرأى فيما سمع من محمد. قال أبو جهل، فى أخذة المباغتة: – ما سمعت ؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا. حتى إذا كنا كفرسى رهان قالوا: (منا نبى يأتيه الوحى من السماء) فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه [۲۴] [صفحه ۱۰۲] وانصرف الاخنس وقد انكشف له المستور من أمر أبى جهل. تسامعت قريش بخروج سيد بنى دوس: (الطفيل بن عمرو الدوسى) حاجا إلى مكة فى الموسم، فأسرع رجال منهم يستقبلونه على مشارفهما قبل أن يدخلها،

وهم یحسبون له ألف حساب. کان شاعرا شریفا لبیبا مطاعا فی قومه، فلو أن مشرکی قریش ترکوه یستمع إلی القرآن، لاسلم وأسلمت من ورائه قبیلة دوس کلها. قالوا: یا طفیل، إنک قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذی بین أظهرنا قد أعضل بنا، وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله کالسحر یفرق بین الرجل وبین أبیه وأخیه وزوجه وبنیه، وإنا نخشی علیک وعلی قومک ما قد دخل علینا، فلا تکلمنه ولا تسمعن له شیئا. ثم ما زالوا به، ینصحون ویحذرون، حتی أقنعوه. فاطمأنوا إلی وعده وقد أجمع ألا یکلم محمدا ولا یسمع منه. واتجه طفیل إلی الکعبة وقد حشا أذنیه قطنا، یتقی به أن یبلغ سمعه صوت الداعی إلی الاسلام. غیر أنه ما کاد یلمح المصطفی قائما یصلی عند الکعبة حتی اقترب منه علی غیر قصد، فنفذت إلی سمعه کلمات من القرآن لم یصدها ما حشا به أذنیه. قال یحدث نفسه مسترجعا: واثکل أمی ! والله إنی لرجل لبیب [صفحه ۱۰۳] شاعر ما یخفی القول علی، فما یمنعنی من أن أسمع من هذا الرجل ما یقول، فإن کان حسنا قبلته وإن کان قبیحا ترکته ؟ وانتظر حتی انصرف المصطفی إلی بیته، فاتبعه ودخل علیه فقال: – یا محمد، إن قومک قد قالوا لی کذا وکذا. فوالله ما برحوا یخوفوننی أمرک حتی سددت أذنی لئلا أسمع قولک. ثم أبی الله إلا أن یسمعنی قولک فسمعته قولا حسنا، فاعرض علی أمرک. وعرض المصطفی علیه الاسلام، وتلا علیه القرآن. فیقول الطفیل: (فلا والله ما سمعت قولا قط أحسن منه ولا أمرا أعدل منه. فأسلمت وشهدت شهادة الحق. وقلت: یا نبی الله، إنی امرؤ مطاع فی قومی وأنا راجع إلیهم وداعیهم إلی الاسلام، فادع الله أن یجعل لی آیة تکون عونا علیهم فیما أدعوهم إلیه) ودعا له المصطفی علیه الصلاة والسلام. ورجع (الطفیل) إلی قومه ووجهه یتألق بنور الایمان، فأقام فیهم یدعوهم إلی الاسلام. حتی کانت غزوة خیبر – فی مستهل السنة السابعة للهجرة – فوفد (الطفیل بن عمرو الدوسی) علی النبی صلی الله علیه وسلم فی دار هجرته، ومعه سبعون أو ثمانون بیتا أسلموا من بنی دوس. وبقی الطفیل فی صحبة المصطفی حتی لحق صلی الله علیه وسلم بالرفیق الاعلی، فقاتل صاحبه الطفیل مجاهدا فی حرب الردة، حتی قتل شهیدا فی (الیمامة) رضی الله عنه. [صفحه ۱۰۴]

هجرة إلی الحبشة

(والذین هاجروا فی الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فی الدنیا حسنة ولاجر الآخرة أکبر لو کانوا یعلمون). (صدق الله العظیم) ضری اضطهاد المشرکین للمسلمین فی مکة، وشق علی المصطفی صلی الله علیه وسلم ما یصیب أصحابه من البلاء، وأنه لا یقدر علی أن یمنعهم منه، ولم یؤمر بقتال. فنصح لهم قائلا: (لو خرجتم إلی أرض الحبشة فإن بها ملکا لا یظلم عنده أحد، وهی أرض صدق، حتی یجعل الله لکم فرجا مما أنتم فیه.) فخرج الفوج الاول من مهاجرة الحبشة، وفیهم (رقیة بنت محمد) [صفحه ۱۰۵] صلی الله علیه وسلم، مع زوجها (عثمان بن عفان) وابن خالها (الزبیر ابن العوام بن خویلد الاسد). ومعهم من بنی هاشم: مصعب بن عمیر بن هاشم بن عبد مناف. ومن بنی عبد شمس: أبو حذیفة بن عتبة بن ربیعة – أخو هند وصهر أبی سفیان بن حرب – تصحبه زوجه: سهیلة بنت سهیل بن عمرو العامری. ومن بنی زهرة، أخوال المصطفی: عبدالرحمن بن عوف الزهری. ومن بنی مخزوم، أصهار المصطفی: أبو سلمة بن عبد الاسد بن هلال، ابن عمة المصطفی: برة بنت عبد المطلب. معه زوجه (أم سلمة، هند بنت زاد الرکب أبی أمیة بن المغیرة المخزومی) التی تزوجها محمد علیه الصلاة والسلام، بعد وفاة أبی سلمة من أثر جرح أصابه فی أحد. وفصل الرکب من أم القری مودعا مغانی الصبا ودیار الاهل والعشیرة. وأخذوا طریق الجنوب وقد هون علیهم مشقة الاغتراب وشجن الفراق، أن هاجروا فی سبیل عقیدة آمنوا بها. والتمسوا العوض عمن فارقوا من أهل وأحباب، فی هؤلاء الصحب الکرام، رفاق السفر والاخوة فی الدین والهجرة. رحبت الحبشة بالمهاجرین الاولین، ثم ما لبثت أن استقبلت أفواجا جدیدة من الصحابة المؤمنین، فیهم: جعفر بن أبی طالب – ابن عم المصطفی – وزوجه أسماء بنت عمیس، وعمرو بن سعید بن العاص [صفحه ۱۰۶] الاموی، وأخوه خالد. وعبد الله بن جحش – ابن عمة المصطفی أمیمة بنت عبدالمطلب – معه امرأته (رملة بنت أبی سفیان) أم، حبیبة ابنته، التی ولدتها له فی الحبشة. وعامر بن أبی وقاص الزهری. والسکران بن عمرو العامری، معه امرأته (سودة بنت زمعة بن قیس) التی ترملت وتزوجها المصطفی بعد

عـام الحزن. وبلغت عـدة المهاجرين ثلاثـة وثمانين رجلا، خرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين بـدينهم. وجاءت الانباء من الحبشـة، أنهم وجـدوا فيها دارا ومأمنا، وتناشد المسـلمون فى مكة قصـيدة المهاجر (عبدالله بن الحارث بن قيس) وفيها يقول: يا راكبا بلغن عنى مغلغلـة - من كان يرجو بلاغ الله والدين كل امرئ من عباد الله مضـطهد - ببطن مكة مقهور ومفتون إنا وجدنا بلاد الله واسـعة - تنجى من الـذل والمخزاة والهون فلاـ تقيموا على ذل الحياة وخز - ى فى الممات وعيب غير مأمون [صـفحه ۱۰۷] جن غيظ قريش، فندبت اثنين من دهاتها: عبـدالله بن أبى ربيعـة وعمرو بن العاص، ليرحلا إلى الحبشـة فيفسدا ما بين النجاشـى والمهاجرين المغتربين، ويسـعيا لديه حتى يخذلهم ويسلمهم إلى قومهم. وبعثت معهما الهدايا مما يستطرف من أسواق مكة، رشوة إلى النجاشى وبطارقته، فانطلقا بها على مرأى ومسـمع من المصطفى عليه الصلاة والسلام والذين معه فى أم القرى. وأشفق أبو طالب من مكيدة الرجلين، على من بأرض الحبشـة من المهاجرين، وفيهم ابنه جعفر، وولـدا بنتيه برة وأميمـة، وحفيـدة أخيه عبـدالله رقية بنت محمد، وابن عمه مصـعب بن عمير. فأنشـد شـعرا رجـا أن يبلغ سـمع النجاشـى: ألاـ ليت شـعرى كيف فى النـأى جعفر - وعمرو، وأعـداء العـدو الاقـارب وهل نالت أفعال النجاشـى جعفرا - وأصـحابه، أو عاق ذلك شاغب تعلم أبيت اللعن أنك ماجـد - كريم فلا يشـقى لـديك المجانب وأنك فيض ذو سجـال غزيرة - ينال الاعادى نفعها والاقارب فهزت قريش رؤوسـها لما سـمعت نـداءه، وقال قائلها مسـتهزئا: ما يبلغ صوت الشـيخ أبى طالب من مكيدة عمرو وصاحبه ؟ وما يجدى [صفحه ۱۰۸] الشعر مع الهدايا التى حملاها من مكة رشوة إلى النجاشى وبطارقته ؟ بدأ وافدا قريش بالبطارقة، فقبل كل بطريق هديته ووعد خيرا. ثم تقدما إلى النجاشى فوضعا الهدايا بين يديه وقالا له: (أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلـدك غلمان منا سـفهاء، فارقوا دين قومهم ولم يـدخلوا فى دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت. وقد بعثنا إليـك فيهم أشـراف قومهم من آبـائهم وأعمـامهم وعشـائرهم لتردهم إليهم، فهم أبصـر بهم وأعلم بما عابوا عليه وعاتبوهم فيه). وأيد البطارقـة المرتشون التمـاس الرجلين وقـالوا للنجاشـى: (صـدقا أيهـا الملك. قومهم أعلم بما عابوا عليهم، فأسـلمهم إليهما فيرداهم إلى بلادهم وقومهم). لكن النجاشـى أبى أن يسلمهم قبل أن ينظر فى أمرهم ويسمع ما يقولون. وأمر باستدعاء رجال منهم فجاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته ومعهم كتبهم الدينية. سأل المهاجرين: - ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هـذه الملل ؟ فأجاب عنهم جعفر بن أبى طالب: (أيها الملك، كنا قوما أهل جاهليـة، نعبـد الاصـنام وناكل الميتـة ونأتى الفواحش ونقطع الارحـام ونسـئ الجوار ويأكل القوى منا الضـعيف. [صـفحه ۱۰۹] فكنـا على ذلـك حتى بعث الله إلينـا رسولا منا نعرف نسـبه وصـدقه وأمانته وعفافه. فـدعانا إلى الله لنوحـده ونعبـده ونخلع ما كنا نعبـد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان، وأمرنا بصدق الحـديث وأداء الامانـة وصـلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحـارم والـدماء، ونهانـا عن الفواحش وقول الزور وأكـل مـال اليتيم وقذف المحصـنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشـرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا. فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الاوثان وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث. فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترنـاك على من سواك ورغبنا فى جوارك، ورجونا ان لا نظلم عنـدك أيها الملك). سأله النجاشـى: - هل معك مما جاء به عن الله من شئ فتقرأه على ؟ فقرأ جعفر بن أبى طالب آيات من سورة مريم، لم تكد تترجم وتنفذ إلى سمع النجاشى حتى اغرورقت عيناه بالـدمع خشوعـا وتأثرا. وكـذلك بكى أساقفته حتى أخضـلوا مصاحفهم. وقال النجاشـى، موجها خطابه إلى وافـدى قريش: (إن هـذا، الذى سـمعت، والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يكادون). [صفحه ۱۱۰] وانصرفا، أما عبـدالله بن أبى ربيعة - وكان أتقى الرجلين - فساوره ما يشـبه القلق، لما رأى من خشوع النجاشـى وأساقفته عندما سـمعوا القرآن. وأخجله أن يكون هذ الملك لغريب أبر بالمهاجرين من قومهم وذوى أرحامهم. وأما عمرو بن العاص فلم يجد فى موقف النجاشى ما يدعو إلى يأس، وله من ذكاء الحيلة وبراعة الدهاء ما يغريه بمعاودة الكرة. قال لصاحبه: (والله لآتين النجاشـى غدا عنهم بما أستأصل به خضـراءهم). ورد عبـد الله: (لاـ تفعـل، فـإن لهم أرحاما وإن كانوا خالفونا). فلم يبال عمرو تراجع صاحبه، بل قال كمن لم يسـمع رده:

(ولله لاخبرنه أنهم یزعمون أن عیسی بن مریم عبد). وسعی فی الغد إلی قصر النجاشی فاستأذن فی الدخول وقال بعد أن حیاه: - أیها الملک، إنهم یقولون فی عیسی بن مریم قولا ـ عظیما، فأرسل إلیهم فسلهم عما یقولون فیه. وأمر النجاشی فجئ بجعفر بن أبی طالب وصحبه من وفد المهاجرین، وقد سمعوا بمکیدة عمرو، وأجمعوا أمرهم علی أنهم إذا سئلوا عما یقولون فی عیسی بن مریم، لم یجیبوا بغیر ما جاءهم به المصطفی من وحی ربه. فلما اجتمع المجلس ابتدرهم النجاشی یسأل: - ماذا تقولون فی عیسی بن مریم ؟ [صفحه ۱۱۱] أجاب جعفر: - نقول والله ما قال الله وما جاءنا به نبینا صلی الله علیه وسلم: هو عبدالله ورسوله وروحه وکلمته ألقاها إلی مریم العذراء البتول. فمد النجاشی یده فالتقط عودا من الارض ثم قال لجعفر وصحبه: والله ما عدا عیسی بن مریم ما قلت هذا العود. اذهبوا فأنتم آمنون بأرضی، من سبکم غرم، وما أحب أن لی جبلا من ذهب وأنی آذیت رجلا منکم. ثم التفت إلی بطارقته وقال وهو یشیر إلی وافدی قریش: (ردوا علیهما هدایاهما فلا حاجة لی بها. فوالله ما أخذ الله منی الرشوة حین رد علی ملکی فآخذ الرشوة فیه. وما أطاع الناس فی فأطیعهم فیه) [۲۵] . مع المهاجرین إلی الحبشة، کانت (رملة بنت أبی سفیان بن حرب) فی صحبة زوجها (عبید الله بن جحش الاسدی) ابن عمة المصطفی، أمیة بنت عبدالمطلب. خشیت أذی أبیها قائد المشرکین فی حربهم للاسلام، فرحلت مهاجرة، وترکته بمکة قد جن غیظه وقهره، أن أسلمت ابنته ولیس له إلیها سبیل. وفی الحبشة، وضعت رملة بنتها (حبیبة بنت عبید الله) فما [صفحه ۱۱۲] کادت تأنس بها عمن فارقت فی مکة من أهل ووطن، حتی روعت بما لم تروع به مسلمة غیرها: ارتد عبید الله عن دینه الذی هاجر به إلی الحبشة، واعتنق النصرانیة دین الاحباش. وکادت (أم حبیبة) تهلک غما وحسرة: فیم کانت هجرة عبید الله، ومحنة البلاء بأذی قومه ؟ لقد کان أکرم له أن یبقی علی دین آبائه وأن یناضل عنه مع أهله وعشیرته، دفاعا عن مقدسات موروثة. أما أن یکفر بدین قومه ویرضی الاسلام دینا، لیصبأ فی الحبشة ویستبدل بالاسلام دینا لقوم غرباء، کمن یبدل ثوبا بثوب، فأیة مهانة وأی عار ؟ وهذه الولیدة الحبیبة، ما ذنبها لتبتلی بأب صابئ مرتد ؟ وما جریرتها لتبدأ الحیاة فی أرض غریبة وقد انبت ما بین أبویها وتمزق شمل أهلها وتوزعتهم ملل شتی: فأبوها نصرانی، وأمها مسلمة، وجدها مشرک عدو للاسلام ؟ واعتزلت (أم حبیبة) الناس بابنتها، مضاعفة الغربة، قد تقوض بیتها فی منازل المهاجرین، ولا سبیل لها إلی أرض الوطن، وأبوها هناک یضطهد الدین الذی آمنت به، ویؤذی النبی الذی صدقته واتبعته. وأین تراها تقیم فی أم القری لو عادت ؟ [صفحه ۱۱۳] أفی بیت أبویها وقد حیل بینها وبینه منذ أسلمت ؟ أم فی دار آل جحش رهط زوجها، وقد أوصدت أبوابها وصارت منهم مقفرة خلاء ؟ لقد بلغها من أنباء مکة أن (عتبة بن أبی ربیعة، والعباس بن عبدالمطلب، وأبا جهل بن هشام بن المغیرة) مروا بدار بنی جحش وهم مصعدون إلی أعلی مکة، فنظر إلیها (عتبة) تخفق أبوابها یبابا لیس فیها ساکن، ثم تنفس الصعداء وقال معتبرا: وکل دار وإن طالت سلامتها - یوما ستدرکها النوباء والحوب أصبحت دار بنی جحش خلاء من أهلها). فقال أبو جهل: (وما تبکی علیه ؟) ثم استطرد: (هذا عمل ابن أخی، فرق جماعتنا وشتت أمرنا وقطع بیننا) [۲۶] کلا ـ لا سبیل لرملة إلی مکة والمعرکة محتدمة بین أبیها والنبی الذی تصدقه، ودار بنی جحش تخفق أبوابها یبابا ! فی عزلتها الحزینة، جاءتها رسالة النجاشی مع مولاة له: (إن الملک یقول لک: وکلی من یزوجک من نبی العرب، فقد أرسل إلیه لیخطبک له !). [صفحه ۱۱۴] لم تصدق أم حبیبة سمعها، فلما أعادت علیها مولاة النجاشی الرسالة التی جاءتها بها، استیقنت من البشری فنزعت سوارین لها من فضة، قدمتهما إلی أبرهة حلاوة البشری . ثم أرسلت إلی (خالد ابن سعید بن العاص بن أمیة بن عبد شمس) - کبیر المهاجرین من قومها بنی أمیة، فوکلته فی زواجها. وتم عقد الزواج، وأولم النجاشی ولیمته لشهود العقد من المسلمین المهاجرین. وباتت أم حبیبة لیلتها وهی أم المؤمنین. وفی الصباح حملت إلیها مولاة النجاشی هدایا نسائه من عود وعنبر وطیب. فقالت أم المؤمنین وهی تقدم إلیها خمسین دینارا، من صداقها: (کنت أعطیتک السوارین أمس ولیس بیدی شئ من المال، وقد جاءنی الله عزوجل بهذا). فأبت الفتاة أن تمس الدنانیر، وردت السوارین قائلة إن الملک أجزل لها العطاء وأمرها ألا تأخذ من السیدة زوج النبی العربی شیئا، کما أمر نساءه أن یبعثن إلیها مما عندهن من طیب. وتقبلت أم المؤمنین الهدیة شاکرة، فاحتفظت بها حتی حملتها معها إلی بیت النبی حین ترکت الحبشة إلی المدینة فی السنة السادسة للهجرة، فکان النبی صلی الله علیه وسلم یری عندها طیب الحبشة

وعودها فلا ينكره. [۲۷] . [صفحه ۱۱۵] في انتظار عودة عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة من الحبشة، التمست قريش غفوة تنسى فيها قهرها وهمها، وتستمرئ مذاق أحلامها برجوع وافديها إلى النجاشي، ومعهما المهاجرون مطرودين من جواره وأرضه، لتسومهم سوء العذاب فيكونوا عبرة لغيرهم من المسلمين، لا- رجاء لاحد منهم بعدها في مهرب، وقريش من ورائهم تطاردهم فتدركهم حيثما ذهبوا، فكأنهم وإياها نابغة بني ذبيان إذ يقول للنعمان ابن المنذر: فإنك كالليل الذي هو مدركي - وإن خلت أن المنتأى عنك واسع لكنها غفوة لم تطل: خبر تردد في أحياء مكة، هز مضاجع الغافين وأطار النوم من عيونهم ومزق أحلامهم بددا. واسترابوا في يقظتهم تحت صدمة المباغتة، فخيل إليهم أن ما يسمعون عن (عمر بن الخطاب) لا يعدو أن يكون من أضغاث الهواجس وهذيان الوهم. أيمكن أن يسلم عمر ؟ لا بد أن من نقل الخبر وهم فيه كما وهمت (أم عبدالله بن عامر) حين مر بها عمر بن الخطاب وهي وأهلها يترحلون إلى أرض الحبشة، وقد خرج زوجها عامر بن ربيعة في بعض حاجاتهم. قال لهم عمر: إنه للانطلاق يا أم عبدالله ؟ [صفحه ۱۱۶] فردت عليه وقد ذكرت ما كانوا يلقون من البلاء والاذى: - نعم والله، لنخرجن في أرض الله. آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجا. فما زاد عمر على أن قال: صحبكم الله ! فأحست منه رقة لم تكن تراها من قبل، وتحدثت بذلك إلى زوجها عامر حين عاد، وقالت فيما قالت: - يا أبا عبدالله، لو رأيت عمر آنفا، ورقته وحزنه علينا ؟ سألها زوجها مستخفا بسذاجتها وطيب قلبها: - أطمعت في إسلامه ؟ أجابت: نعم. قال عامر: فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار ابن الخطاب ! وتناقل المشركون كلمته، وما منهم إلا وهو على رأى عامر بن ربيعة، يأسا من إسلام عمر بن الخطاب، لما كان يرى من غلظته وشدة قسوته على الاسلام. وما كان الذي ظنته (أم عبدالله بن عامر) من رقته إلا وهما. أو هذا هو ما تعلل به المشركون وهم يسمعون ما أنكرت آذانهم من القصة الغريبة عن إسلام عمر بن الخطاب. خرج متوشحا سيفه، وأخذ مسراه إلى (الصفا) وفي عينيه بريق يتوهج. [صفحه ۱۱۷] فهناك عند الصفا بيت يعرفه، سمع أن محمدا يجتمع فيه مع رهط من صحابته، نحو أربعين، ليعبدوا رب محمد. وفي طريقه إلى هذا البيت عند الصفا، لقيه (نعيم بن عبدالله) فسأله: أين تريد يا عمر ؟ أجاب: أريد محمدا هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها، فأقتله. قال له نعيم: - غرتك نفسك يا عمر ! أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الارض وقد قتلت محمدا ؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ سأله عمر مستريبا: - وأي أهل بيتي ؟ قال نعيم: - صهرك وابن عمك، سعيد بن زيد بن عمر، وزوجه فاطمة بنت الخطاب. أختك. فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما. وصك الخبر مسمع عمر، فعدل عن طريق الصفا وانطلق إلى بيت صهره وابن عمه، يهدر بالغضب والوعيد. فلما دنا من البيت، توقف يصغي إلى تلاوة خافتة، ثم اقتحم الباب فلمح أخته فاطمة تخفي صحيفة معها. سأل وهو ينقل بصره بينها وبين زوجها سعيد: [صفحه ۱۱۸] - ما هذه الهيمنة التي سمعت ؟ لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه. وبطش بابن عمه سعيد بن زيد، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها فضربها فشجها، وعندئذ قالا معا، في تحد وإصرار: - نعم لقد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. وفجأة تراخت قبضة عمر عن سعيد، وكأنما أخذ بإيمانهما أو كأنه ندم حين رأى دم أخته يتدفق من أثر شجته. قال لها مسترجعا: - أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرأون منها آنفا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد. وأقسم لها بآلهته، ليردن الصحيفة إليها بعد أن ينظر ما فيها. لكنها أبت عليه أن يمسها حتى تطهر، فأعطته إياها وفيها (سورة طه) وقرأها عمر فبدا عليه الخشوع وقال: - ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! وعاد الساري فأخذ طريقه إلى الصفا. طرق باب البيت على المصطفى وصحابته، فقام رجل منهم فنظر من خلل الباب، ثم أقبل على المصطفى فقال وما يخفى فزعه: - يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف. قال عليه الصلاة والسلام: (ائذن له). ونهض إليه فلقيه في الحجرة وسأله: - ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ [صفحه ۱۱۹] أجاب عمر: جئتك لاومن بالله، وبرسوله، وبما جاء من عند الله. عندئذ كبر المصطفى عليه الصلاة والسلام تكبيرة عرف منها أهل البيت من الصحابة (أن عمر قد أسلم). وسرى صداها في أرجاء مكة بخبر إسلام عمر، فبات المشركون بين مصدق ومكذب. حتى غدا (عمر) عليهم في أنديتهم حول الكعبة، وقد تقدمه ابن معمر الجمحي، فصاح بأعلى صوته: - يا معشر قريش، ألا- إن عمر بن الخطاب قد صبأ. قال (عمر) من خلفه: - كذب، ولكني أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن

محمدا عبده ورسوله. وثاروا إليه، فواجههم فردا لا يباليهم، ثم أخذ مجلسه قرب الكعبة وهو يقول: - افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا !. [صفحه ۱۲۰]

الحصار وعام الحزن

(ما عندكم ينفذ وما عند الله باق، وليجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون). (صدق الله العظيم) لم يكن المشركون من قريش قد أفاقوا من صدمة إسلام عمر بن الخطاب، حين عاد وافداهم إلى النجاشي، يحملان إلى مكة صدمة الخيبة وفشل المسعى. فهل لم يبق إلا ـ الحرب ؟ لقد رفض المصطفى كل ما عرضوه عليه من مقترحات ليكف عن دعوته، وأبى أن يساوموه على دينه. [صفحه ۱۲۱] وكذلك فشلت كل المفاوضات مع أبى طالب، ليكف عنهم ابن أخيه أو يخلى بينهم وبينه. والاسلام يفشو في القبائل، وزعامة قريش تهتز وتترنح، وتوشك أن تفقد سيطرتها على الموقف، وقد اعتز الاسلام بحمزة بن عبدالمطلب وعمر بن الخطاب، ومثلهما في الرجال قليل. وهذا النجاشي يفتح بلاده لمن يهاجر من المسلمين، ويؤمن كل من يلجأ إليه منهم، ويأبى أن يمسهم أذى في جواره. وبدأت قريش تتأهب لجولة حاسمة، ولمح أبو طالب نذر الشر فدعا عشيرته الاقربين إلى منع محمد - صلى الله عليه وسلم - والقيام دونه، فأجابوه، إلا أبا لهب، عبد العزى ابن عبدالمطلب بن هاشم. لكن قريشا، وقد عيل صبرها من صبر المسلمين، كرهت أن تخوض حربا مسلحة مع آل عبدالمطلب وبنى هاشم، وهم من صميمها. واستقر الرأى بعد طول مداولات، على أن تفرض عليهم حصارا اقتصاديا واجتماعيا لا يرحم. واجتمع زعماء قريش فائتمروا فيما بينهم على مقاطعة بنى هاشم: لا يصهرون إليهم ولا يبيعونهم شيئا ولا يبتاعون منهم. وسجلوا حلف التعاقد في صحيفة علقوها في جوف الكعبة، توثيقا لحرمتها وتوكيدا على أنفسهم في التزامها [۲۸] . [صفحه ۱۲۲] وأقاموا على ذلك الحلف المشئوم زمنا، سنتين أو ثلاثا، لقى فيها المسلمون والهاشميون من جهد الحصار ما لا يحتمل، وحيل بينهم، وقد انحازوا إلى شعب أبى طالب، وبين الطعام والشراب يشترونه من التجار الوافدين على أسواق مكة، وقد يأتى أحد المنحازين إلى الشعب سوق مكة يلتمس قوتا يشتريه لعياله، فيقوم أبو لهب ويصيح بالتجار: (غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئا، وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى). فيزيد التجار ثمن السلعة أضعافا مضاعفة، ويرجع أصحاب محمد إلى صبيتهم بالشعب وليس في أيديهم طعام، ويرجع التجار إلى أبى لهب فيفيهم ثمن ما غالوا فيه على المحاصرين فلم يدركوه. وبلغ منهم الجوع وجهد الحصار مبلغا يصوره قول (سعد بن أبى وقاص) بعد محنة الحصار بسنين: (لقد جعت حتى إنى وطئت ذات ليلة على شئ رطب فوضعته في فمى وبلعته، وما أدرى ما هو حتى الآن). وكانت التمرة الواحدة ربما وقعت لاثنين منهم يقتسمانها فيكون أحسنهما حظا من وقعت نواة التمرة في قسمه، يلوكها بقية يومه ! وإنما كان طعامهم الخبط وورق السمر، وما قد يأتيهم به سرا بعض ذوى رحمهم، بدافع من المروءة والنجدة، مستخفيا به من طواغيت قريش الساهرين على إحكام الحصار وإنفاذ وثيقة المقاطعة. نقل ابن هشام في (السيرة النبوية) والطبرى في (تاريخه) أن أبا [صفحه ۱۲۳] جهل بن هشام لقى (حكيم بن حزام بن خويلد الاسدى) معه غلام يحمل قمحا، يريد به عمته (خديجة بنت خويلد) مع زوجها المصطفى في شعب أبى طالب. فتعلق أبو جهل بحكيم وقال له: - أتذهب بالطعام إلى بنى هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة. ولمحهما (أبوالبخترى بن هاشم الاسدى) فجاء يسأل أبا جهل: مالك وله ؟ قال: يحمل الطعام إلى بنى هاشم. فما راعه إلا أن قال أبوالبخترى: (وما في هذا ؟ طعام كان لعمته عنده، بعثت إليه فيه. أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل). فرفض أبو جهل أن يستجيب له، وتشادا فأخذ أبوالبخترى لحى بعير فضربه به فشجه، ووطئه وطئا شديدا. وحمزة بن عبدالمطلب يرى ذلك من قرب، ويتأهب للبطش بأبى جهل. وهم يكرهون مع هذا ان يبلغ خبر ذلك ومثله، رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالشعب. ثم كان لليل الحصار آخر: اهتزت ضمائر نفر من قريش فأنكروا الحلف المشئوم الذى تورطوا [صفحه ۱۲۴] في التعاقد عليه منفعلين بعاطفة الجماعة وغريزة القطيع. وقد صبروا عليه طويلا مكرهين، حتى بلغ ذروته القاسية في مثل ما كان من أبى جهل بن هشام مع حكيم بن حزام. وكان أول من تكلم في الحلف وسعى في نقضه (هشام بن

عمرو ابن ربيعة العامرى) وكانت تربطه بالهاشميين صلة رحم، فهو ابن أخى نضلة بن هاشم، لامه. وقد دأب طول مدة الحصار، على أن يصلهم. فكان يأتى ليلا- بالبعير قد أوقره طعاما أو ثيابا، حتى إذا بلغ به مدخل الشعب خلع خطامه من رأسه وضربه على جنبه، فيدخل البعير الشعب على من فيه، بما يحمل. فلما طال عليهم جهد الحصار، مشى هشام بن عمرو بن ربيعة العامرى، إلى (زهير بن أبى أمية بن المغيرة المخزومى زاد الركب) وأمه عاتكة بنت عبدالمطلب، عمة المصطفى. قال له هشام: (يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم ؟ أما إنى أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبى الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدا). ففكر زهير مليا ثم سأل: (ويحك يا هشام، فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجل واحد. والله لو كان [صفحه ۱۲۵] معى رجل آخر لقمت فى نقض الصحيفة حتى أنقضها). قال هشام: قد وجدت رجلا. فسأله: من هو ؟ أجاب: أنا ! قال زهير: ابغنا رجلا ثالثا. فذهب هشام إلى (المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف) فقال له: (يا مطعم، أقد رضيت أن يهلك بطنان من بنى عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك موافق لقريش فيه ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه، لتجدنهم إليها منكم سراعا). فكان جواب مطعم كجواب زهير. وخرج هشام يبغى رجلا رابعا، فاختار (أبا البخترى بن هشام الاسدى) لما عرف من مروءته ونخوته، وما ذاع من خبره مع أبى جهل حين أراد أن يحول بين حكيم بن حزام الاسدى، والذهاب بالطعام إلى عمته. حدثه هشام العامرى بمثل ما حدث به صاحبيه زهيرا ومطعما، وسأله أبوالبخترى: هل أجد من يعين على هذا ؟ أجاب هشام: نعم، زهير بن أبى أمية المخزومى زاد الركب، ومطعم بن عدى بن نوفل، وأنا، معك). فنظر أبوالبخترى بعيدا إلى ما يتوقع من حمق قريش فى غضبها للحلف المعقود الموثق، وطلب إلى هشام أن يبغى مؤيدا خامسا، فذهب [صفحه ۱۲۶] إلى (زمعة بن الاسود بن عبدالمطلب الاسدى) فكلمه فى بنى هاشم، وذكر له قرابتهم منه وحقهم عليه. فأجاب زمعة. وتواعد الرجال الخمسة على اللقاء ليلا- بخطم الحجون، أعلى مكة. وهنالك أجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة الظالمة حتى ينقضوها. واختاروا من بينهم (زهير بن أبى أمية المخزومى. ليكون أول من يجاهر برفض الصحيفة ونقض الحلف، فى مجتمع قريش بأم القرى. فلما أصبحوا وغدت قريش إلى أنديتها، غدا (زهير) عليه حلة، فطاف بالبيت العتيق سبعا ثم أقبل على الناس فقال: (يا أهل مكة، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لا يباع لهم ولا يبتاع منهم ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة). صاح أبو جهل بن هشام، وكان فى ناحية من البيت الحرام: (كذبت، والله لا تشق). فرد عليه زمعة بن الاسود: (أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت !) وثنى أبوالبخترى: (صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها ولا نقره). وأيدهما مطعم بن عدى: (صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها). [صفحه ۱۲۷] وتكلم هشام بن عمرو، فقال نحو ما قالوا. وبهت أبو جهل، والاصوات تأتيه من كل ناحية بالتكذيب والرفض، فنقل بصره حائرا بين هؤلاء الرجال الخمسة، ثم لم يجد فى أخذة المباغتة بموقفهم سوى أن يقول: (هذا أمر قضى فيه بليل، تشوور فيه بغير هذا المكان). لم يلقوا إليه بالا، وقام المطعم على مرأى من الجمع، وأبو طالب هناك قد انتحى ناحية من المسجد - فانتزع الصحيفة من مكانها فى جوف الكعبة ليشقها، فإذا بالارضة قد أكلتها وأتلفتها، لم تدع منها إلا كلمة: (باسمك اللهم) !. وجمت قريش، ونهض أبو طالب يسعى إلى من فى شعبه بالبشرى، وقد ذكر وهو فى طريقه من البيت العتيق، بنيه الذين هاجروا إلى الحبشة، فهتف منشدا، يرجو أن يبلغهم هنالك صدى صوته: ألا هل أتى بحرينا صنع ربنا - على نأيهم، والله بالناس أرود فيخبرهم أن الصحيفة مزقت - وأن كل ما لم يرضه الله مفسد تراوحها إفك وسحر مجمع - ولم يلف سحر آخر الدهر يصعد [صفحه ۱۲۸] جزى الله رهطا بالحجون تتابعوا - على ملا، يهدى لحزم ويرشد قعودا لدى خطم الحجون كأنهم - مقاولة، بل هم أعز وأمجد قضوا ما قضوا فى ليلهم ثم أصبحوا - على مهل إذ سائر الناس رقد وكنا قديما لا نقر ظلامة - وندرك ما شئنا ولا نتشدد فيا لقصى هل لكم فى نفوسكم - وهل لكم فيما يجئ به غد فإنى وإياكم كما قال قائل: - (لديك البيان لو تكلمت أسود) [۲۹] وأيقظ صوته كل من فى الشعب، فهللوا للبشرى وهتف المسلمون منهم: (الله أكبر). وسعوا إلى الكعبة فطافوا بها، ثم آبوا إلى بيوتهم فى أم القرى، ينتظرون ماذا يكون من أمر قريش بعد أن تهاوى الحصار. [صفحه ۱۲۹] لكن محنة الحصار لم

تنجل إلا لتسلم إلى ليل طويل لا يبدو له آخر. ماتت (السيدة خديجة) أم المؤمنين الاولى، وزوج نبيهم المصطفى وسكنه ووزيره، فى العاشر من رمضان سنة عشر من المبعث. ومات فى العام نفسه (أبو طالب) عم المصطفى وكافله ومانعه، ومن كان له عضدا وحرزا وناصرا على قومه. فأحيا موتهما ما مات من أمل المشركين فى النصر بعد تهاوى الحصار، فعادت وطأة الاضطهاد إلى أشد ما كانت عليه قبل (عام الحزن). وأحس المصطفى وحشة الغربة فى بيته وأرض مبعثه، واشتدت عليه وطأة الحزن لفقدهما، حتى خيل لاعدائه أن النصر عليه جد قريب، ما دروا أن الظلمة تشتد قبيل الفجر ! أدرك عليه الصلاة والسلام أن الموقف لا بد أن يتخذ متجها آخر. وراح يمد بصره إلى ما وراء مكة، يستوعب أبعاد الرؤية لما يحتمل من متجه الاحداث. [صفحه ۱۳۰]

الاسراء

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير). (صدق الله العظيم) قبل الهجرة كانت رحلة الاسراء، وقد اقترب أوان التحرك إلى موقع جديد، بعد أن بلغت الجولة المكية ذروة تعقدها. واحتاج مثل ذلك التحول الخطير إلى عملية امتحان قبله، تستخلص الصفوة المؤمنة التى تصلح لاجتياز معبر التحول، وتقدر على حمل تكاليف الجهاد فى الجولة الصعبة التى كانت تنتظر الاسلام فى دار هجرته. [صفحه ۱۳۱] وفى الواقع التاريخى، أن السنوات العشر الاولى من المبعث، مضت تمتحن المسلمين الاولين بالفتنة والاذى والاضطهاد. وقد تأخر الاذن لهم فى القتال، ريثما تتم عملية الامتحان والتمحيص، فكان الثبات لوطأة الفتنة وجهد الحصار، يستصفى للاسلام جنده المخلصين. ثم جاءت آية الاسراء، تتمة حاسمة لهذا الاستصفاء. لم تكد الليلة فى أولها، تختلف عن ليال سابقات تتابعت على مدى سنين، من ليلة المبعث: طواغيت المشركين من قريش مجتمعون فى دار الندوة، يحورون ويدورون فى حلقة مفرغة، التماسا لوسيلة أو ثغرة ينفذون منها عبر الطريق المسدود. والمصطفى عليه الصلاة والسلام، قد أقام صلاة العشاء فيمن كان معه من آله وصحبه، وأوى إلى خلوته يتعبد ويتهجد كعادته فى كل ليلة، وما من أحد يتوقع أن يأتى الفجر القريب بجديد غير المعهود المألوف فى أم القرى. وبزغ نور الفجر، والمصطفى حيث تركه آله وأصحابه بعد صلاة العشاء، وقام عليه الصلاة والسلام فصلى بمن معه، ثم جلس فيهم بعد الصلاة يحدثهم أنه قد أسرى به فى ليلته تلك، من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى. [صفحه ۱۳۲] واشرأبت إليه قلوبهم، وشدت أسماعهم إلى حديث الاسراء، ولو استطاعوا لامسكوا أنفاسهم المبهورة، لكى يخلص إليهم صوت نبيهم فى أنقى صفائه وتفرده. وانتهى الحديث، وران عليهم صمت خاشع، أخذهم فيه العجب كل مأخذ وهم يستعيدون فيما بينهم وبين أنفسهم حديث الاسراء، ويحاولون أن يستوعبوا أبعاد رؤياه الباهرة، ويتمثلوا مشاهده المثيرة. ولعلهم ما كانوا ليجرحوا هذا الصمت، لولا أن رأوا النبى عليه الصلاة والسلام يقوم من مصلاه، آخذا طريقه إلى حيث كان أهل مكة قد بدأوا حركتهم اليومية مع مشرق الصبح. عندئذ قامت (أم هانئ بنت أبى طالب) فتشبثت بابن عمها المصطفى، تضرع إليه ألا يحدث الناس بما رأى، لئلا يكذبوه. وتلبث عليه الصلاة والسلام يسمع ما تقول بنت عمه، وقد أدرك ما يساورها من قلق وخوف. ثم استأنف سيره ليلقى القوم، مسلمين ومشركين، بحديث الاسراء. ماذا قال عليه الصلاة والسلام عن مسراه فى تلك الليلة ؟ وما الذى نزل فى الاسراء من آيات القرآن ؟ فى صحيح الحديث تفصيل لرحلة الاسراء من بدئها فى المسجد الحرام: [صفحه ۱۳۳] جاء (جبريل) أمين الوحى، والمصطفى نائم. فأيقظه من نومه وحمله على البراق - دابة بين البغل والحمار - وانطلق يسرى به حتى وصل إلى بيت المقدس، حيث وجد فيه ابراهيم وموسى وعيسى، فى نفر من الانبياء عليهم السلام، فأمهم المصطفى للصلاة. ومن الصحابة من يقتصر - فيما نقل ابن هشام عن ابن اسحاق فى: السيرة النبوية - على هذه الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصى، ذهابا وأوبة. ومنهم كثير، يروون معها قصة المعراج من بيت المقدس صعودا فى السماء إلى سدرة المنتهى، ثم عودة إليه حيث ينطلق البراق ساريا بالمصطفى إلى موضعه الاول، بالمسجد الحرام [۳۰] وهذا الحديث مروى بإسناد عن عدد من الصحابة رضى الله عنهم، وقد يختلفون فى بعض التفاصيل، لكن الحديث فى جملته ليس موضع خلاف: ففى

المکان الذی بدأ منه الاسراء، هناک روایة تقول إن المصطفی کان نائما بالحجر حین أتاه جبریل فأیقظه. وتؤیدها آیة الاسراء بصریح قوله تعالی: (من المسجد الحرام). وهناک روایة أخری عن (أم هانئ بنت أبی طالب) قالت: (ما أسری برسول الله صلی الله علیه وسلم إلا ـ وهو فی بیتی: نام عندی تلک اللیلة فصلی العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا. فلما کان قبیل [صفحه ۱۳۴] الفجر أهبنا صلی الله علیه وسلم، فلما صلی الصبح وصلینا معه قال: یا أم هانئ، لقد صلیت معکم العشاء الآخرة کما رأیت بهذا الوادی، ثم جئت بیت المقدس فصلیت فیه. ثم قد صلیت صلاة الغداة معکم کما ترین). ومع نص آیة الاسراء: (من المسجد الحرام) حمل المفسرون روایة أم هانئ، علی أن المسجد الحرام یمکن أن یتأول فی معنی الحرم، والحرم کله مسجد. ولم یذکر القرآن الکریم تفصیلا لمشاهد الاسراء، فلیس فی سورته إلا آیتها الاولی التی تحدد مجال الاسراء وغایته: (سبحان الذی أسری بعبده لیلا من المسجد الحرام إلی المسجد الاقصی الذی بارکنا حوله لنریه من آیاتنا إنه هو السمیع البصیر) ومعها، آیة الرؤیا من سورة الاسراء: (وما جعلنا الرؤیا التی أریناک إلا فتنة للناس). فهل کان الاسراء من تجلی الرؤیا، أو کان حقیقة بالجسد ؟ ذلک ما اختلف فیه الصحابة أنفسهم: فی روایة عن (ابن عباس): (إنها رؤیا عین أریها رسول الله صلی الله علیه وسلم، ولیست رؤیا منام). وروایة أخری عن السیدة (عائشة أم المؤمنین) تقول: [صفحه ۱۳۵] (ما فقد جسد رسول الله صلی الله علیه وسلم، ولکن الله أسری بروحه). وقد نقل ابن إسحاق هذا الخلاف بین أن یکون الاسراء بالجسد حقیقة، أو بالروح رؤیا، ثم قال: (وکان رسول الله صلی الله علیه وسلم، فیما بلغنی، یقول: تنام عینای وقلبی یقظان. (والله أعلم أی ذلک کان قد جاءه، وعاین فیه ما عاین من أمر الله، علی أی حالیه کان: نائما أو یقظان، کل ذلک حق وصدق) [۳۱] وکان ما أراد الله للاسراء برسوله، من (فتنة للناس) وابتلاء لمن آمنوا منهم، وللذین أسلموا ولم یدخل الایمان فی قلوبهم. وقد یکفی لبیان ما کان من فتنة الاسراء، أن نقرأ ما نقل (ابن هشام) روایة عن ابن إسحاق: (فلما أصبح صلی الله علیه وسلم، غدا علی قریش فأخبرهم الخبر. فقال أکثر الناس: (هذا والله العجب البین. والله إن العیر لتطرد شهرا من مکة إلی الشام مدبرة، وشهرا مقبلة، أفیذهب ذلک محمد فی لیلة واحدة، ویرجع إلی مکة ؟). (فارتد کثیر ممن کان أسلم. وذهب الناس إلی أبی بکر – ولم یکن قد سمع بعد حدیث المصطفی عن الاسراء – فقالوا له: [صفحه ۱۳۶] – هل لک یا أبا بکر فی صاحبک ؟ یزعم أنه قد جاء هذه اللیلة بیت المقدس وصلی فیه ورجع إلی مکة ! فقال لهم أبو بکر: – إنکم تکذبون علیه. قالوا: بلی، ها هو ذاک فی المسجد یحدث به الناس. قال أبو بکر: – والله لئن کان قاله، لقد صدق. فما یعجبکم من ذلک ؟ فوالله إنه لیخبرنی أن الوحی لیأتیه من السماء إلی الارض فی ساعة من لیل أو نهار، فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه) [۳۲] وغیر بعید من روایة (السیرة) ما نقله (الامام الطبری) فی تفسیره: (قال المشرکون من قریش: تعشی – فینا بمکة – وأصبح فینا، ثم زعم أنه جاء الشام فی لیلة ثم رجع ! وایم الله إن الحدأة لتجیئها فی شهرین: شهرا مقبلة وشهرا مدبرة. ما کان محمد لینتهی حتی یأتی بکذبة تخرج من أقطارها. (فأتوا أبا بکر فقالوا له: – هذا صاحبک یزعم أنه أتی الشام فی لیلته فصلی ببیت المقدس ثم رجع ! فرد أبو بکر: – أو قد قال ذلک ؟ والله لئن کان قاله لقد صدق). [صفحه ۱۳۷] فلما جادلوه فیه، قال: أصدقه بخبر السماء – وحیا – والسماء أبعد من بیت المقدس، ولا أصدقه بخبر بیت المقدس ؟ (ثم أقبل أبو بکر حتی انتهی إلی رسول الله صلی الله علیه وسلم فسأله: – یا نبی الله، أحدثت هؤلاء القوم أنک جئت بیت المقدس هذه اللیلة ؟ قال علیه الصلاة والسلام: نعم. فسأله أبو بکر أن یصفه له، فجعل رسول الله یصفه لابی بکر، فکلما وصف منه شیئا قال أبو بکر: – صدقت، أشهد أنک رسول الله. قال علیه الصلاة والسلام لصاحبه: – وأنت یا أبا بکر الصدیق) [۳۳] وحقق الاسراء آیته: فتنة وابتلاء وتمحیصا: نحی عن حزب الله من رابهم أمر الاسراء بالمصطفی، ولیس أعجب من الوحی یأتیه من الله سبحانه. واستصفی للاسلام جنده المخلصین، ممن صح إیمانهم وصدقت عقیدتهم. وصدق الله تعالی: (وما جعلنا الرؤیا التی أریناک إلا فتنة للناس). [صفحه ۱۳۹]

بوادر التحول

اشاره

نجران. ويثرب - ابواب موصدهٔ - بيعهٔ العقبهٔ ومتجه الاحداث [صفحه ۱۴۱]

نجران ويثرب

(قتل أصحاب الاخدود - النار ذات الوقود - إذ هم عليها قعود - وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود - وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد). (صدق الله العظيم) حتى عام الحزن، كانت نجران ويثرب تبدوان بعيدتين عن مسرح الاحداث. وفى نجران مركز النصرانيهٔ فى بلاد العرب. وفى يثرب وما حولها من شمال الحجاز، مستعمرات يهود. وقد يظن ألا يختلف موقف نصارى نجران من الاسلام عن موقف [صفحه ۱۴۲] يهود الشمال، وهؤلاء وأولئك أهل كتاب يتلون التوراهٔ والانجيل ويصدقون برسالات الله. لكن موقفهما فى الواقع التاريخى كان جد مختلف: نصارى نجران عرب مؤمنون، فيهم رهبان بررهٔ كانوا هناك ملء القلوب والاسماع، إخلاصا فى العبادهٔ وعزوفا عن الشهوات وعزوفا عن أعراض الدنيا. ويهود يثرب أجانب طارئون دخلاء، يدعون الموسويهٔ ذريعهٔ استغلال، وفيهم أحبار ذوو عدد، شغلوا عن الدين بالدنيا. راب نصارى نجران قبيل الاسلام، أن كان اليهود ممن روجوا لبشرى المبعث. فهل قصدوا بهذا إلى أن يلقوا غشاوهٔ على أبصار العرب، كيلا تلمح على سحنتهم بصمهٔ الجريمهٔ النكراء للائتمار بالسيد المسيح عليه السلام ؟ لقد بعد العهد بها، كما بعد مسرحها فى القريهٔ الظالمهٔ عن بلاد الحجاز وأرض المبعث، لكن النصارى بوجه عام لم يكونوا لينسوا هذه الجريمهٔ، فضلا عن أن ينسى نصارى نجران جريمهٔ أخرى لم يتقادم عليها الزمن، بلغ ضحاياها عشرين ألفا من نصارى العرب فى نجران، أول عهدها بالنصرانيهٔ. المأساهٔ بدأت حين وفد على ديارهم راهب نصرانى صالح، ابتنى له خيمهٔ بضواحى نجران وعكف على عبادهٔ الله. فمال إليه فتى عربى من أهلها، وكانوا على دين العرب أهل شرك، قد اتخذوا نخلهٔ باسقهٔ [صفحه ۱۴۳] وثنا لهم، وجعلوا لها يوم عيد يعكفون فيه على نخلتهم ويعلقون عليهم أحسن ثيابهم وحلى نسائهم. واسم الفتى العربى (عبدالله بن الثامر) وكان أبوه يرسله إلى ساحر مشهور هناك ليلقنه أسرار الصنعهٔ، فكلما مر فى طريقه إلى الساحر بخيمهٔ الراهب، أطال الوقوف قريبا من بابه، يصغى إلى تراتيله وصلواته. وعلى يد (ابن الثامر) تنصر أكثر عرب نجران، فسار إليهم (ذو نواس) بتحريض من يهود اليمن، فدعاهم إلى اليهوديهٔ وخيرهم بينها وبين القتل، فاختاروا أن يموتوا على دينهم، شهداء. وأمر ذو نواس جنوده، وكلهم يهود، فحفروا أخدودا عميقا أوقدوا فيه النار، وسيق ألوف من النصارى المؤمنين فألقوا فى نار الاخدود، والمجرمون محيطون بهم يقتلون كل من يحاول الخلاص من الحريق، ضربا بالسيف. وظلت مأساهٔ الضحايا الشهداء - وفى الخبر أنهم قاربوا عشرين ألفا من الرجال والنساء - تؤرق نجران حتى أوان المبعث. وفى أولئك الضحايا المؤمنين، وفى السفاحين من أصحاب الاخدود، نزلت آيات البروج: (والسماء ذات البروج - واليوم الموعود - وشاهد ومشهود - قتل أصحاب الاخدود - النار ذات الوقود - إذ هم عليها قعود - وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود - وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله [صفحه ۱۴۴] العزيز الحميد - الذى له ملك السموات والارض، والله على كل شئ شهيد - إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق -) وعرب الحجاز كانوا قبل الاسلام بعيدا عن مأساهٔ الاخدود، فألقوا أسماعهم إلى ما روج يهود من بشرى مبعث نبى حان زمانه، غير مستريبين فيما وراء هذه البشرى من قصد. لكن نصارى نجران، رابهم الامر من يهود عقوا نبيهم موسى، وكفروا بالمسيح وائتمروا به وبمن اتبعه من المؤمنين. وبعث المصطفى عليه الصلاهٔ والسلام، ونجران على نصرانيتها. وكان نصاراها بشهادهٔ مؤرخى الاسلام: (أهل فضل وتقوى واستقامهٔ) وقد سمعوا بأخبار المبعث من جيرانهم وأهل ملتهم نصارى الحبشهٔ، وتوقعوا أن يكون ليهود دور خبيث مع الدين الجديد، وإن لم يكن هذا الدور قد بدأ بعد. وكان لا بد لنصارى نجران من أن يطمئنوا إلى رأى فى الاسلام ونبيه العربى الامى وذلك ما لا سبيل إليه فى دوامهٔ الاخبار والشائعات التى تتعثر وتضطرب فى طريقها إليهم، فتأتيهم مشوشهٔ مختلطهٔ. وكان أن قرروا إرسال وفد منهم إلى مكهٔ، يأتيهم بالخبر اليقين عن هذا الدين الجديد، ليكونوا منه على بينهٔ. [صفحه ۱۴۵] أخذ الوفد طريقه شمالا إلى مكهٔ، عشرين رجلا من أهل الرأى والعلم فيهم، يلتمسون أن يلقوا نبى الاسلام ويكلموه وينظروا فيما جاء به، بعد ستهٔ قرون وبعض

قرن، من ميلاد المسيح عليه السلام. وفى الحرم المكى، كان اللقاء. دنوا من المصطفى وقد أخذ مجلسه عند الكعبة، فسألوه فى دينه. وحدثهم عليه الصلاة والسلام عن الاسلام فعرفوا أنه الحق من ربهم. وتلا عليهم القرآن ففاضت أعينهم من الدمع خشوعا، وتفتحت قلوبهم المؤمنة لتلك الكلمات تخشع لها صم الجبال. واستجابوا لله. وفى طريقهم من مجلس المصطفى إلى باب البيت العتيق، عرض لهم أبو جهل بن هشام فى نفر من طواغيت قريش، شق عليهم أن يصدق هؤلاء النصارى، وهم أهل كتاب، بنبوة محمد، فيوقعوا الريبة فى نفوس العرب، من تكذيب المشركين من قريش. قالوا لهم: (خيبكم الله من ركب ! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم يطمئن مجلسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال. ما نعلم ركبا أحمق منكم). رد المؤمنون: (سلام عليكم، لا نجاهلكم. لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه. [صفحه ۱۴۶] لم نأل أنفسنا وقومنا خيرا) [۳۴] فيروى أن هذه الآيات، من سورة المائدة المكية، نزلت فيهم: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين امنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون – وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين – وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين –) (صدق الله العظيم) فماذا عن (يثرب) عاصمة شمال الحجاز ؟ ماذا عن موقف عصابات يهود من نبى الاسلام الذى طالما بشروا بمبعثه مصدقا لما معهم من التوراة والانجيل، وما عرفهم التاريخ إلا قتلة الانبياء وأعداء كل دين ؟ كمنوا هناك فى مستعمراتهم بالشمال الحجازى، يرصدون المواجهة الاولى بين الاسلام والوثنية، وأسماعهم مشدودة إلى مكة تلتقط أنباء الصراع الدائر هناك، وفى حسابهم أن قريشا سوف تتكفل بالقضاء على الدعوة الجديدة فى مهدها، فتريح اليهود الذين ما هدأ لهم بال منذ [صفحه ۱۴۷] نزلت الكلمات الاولى من كتاب الاسلام، خوفا من أن يكشف عما زيفت يهود من الديانة الموسوية، وما حرفت من التوراة التى اتجروا بها وراحوا يمنون على العرب الاميين بأنهم أهل كتاب. وإن مثلهم فيما حملوا من التوراة ثم لم يحملوها: (كمثل الحمار يحمل أسفارا، بئس مثل الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين). وإذ ألقت قريش بكل ثقلها فى مقاومة الاسلام، توارت يثرب عن مسرح الاحداث، حتى كانت أم القرى هى التى اتصلت بها، والجولة المكية فى عنفوان احتدامها: لقد راب قريشا فى أمر الدين الجديد الذى تصدت لمقاومته فى بغى وعناد، ثبات المصطفى والذين معه فى وجه الوثنية الطاغية، وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم لم يردهم عنها أذى مهلك ولا حصار منهك، ولم تفلح معهم مساومة ولا مفاوضة. ولقد جاوزت قريش المدى فى اضطهاد الدعوة، والمسلمون يزدادون على الاذى صمودا واستبسالا، وإن أحدهم ليلقى الموت فى سبيل دينه، ووجهه يتألق بنور الايمان والغبطة والرضى. أفيمكن أن يكون هذا كله، فى سبيل دعوة كاذبة ورسالة مفتراة ! ؟ وما الذى يعد به محمد أصحابه ؟ إنه لا يملك أن يرد عن نفسه أذى قريش إلا أن يشاء ربه، فضلا عن أن يرده عمن اتبعوه وآمنوا برسالته. وهو قد باع الدنيا ليدعو [صفحه ۱۴۸] إلى ربه، فليس لديه مال يعوض به الذين أوذوا فى سبيل دعوته وخرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين بدينهم من الفتنة والبلاء. إنما يعدهم محمد ثواب الآخرة ويبشرهم برضوان من ربه. وفى الذين صدقوه من عرفوا بالحكمة وسداد الرأى، فهل كانوا بحيث يقبلون هذه الصفقة يبيعون فيها دنياهم بالآخرة، لو لم يكونوا موقنين من صدق الوعد ؟ وقريش تفهم أن يجود العربى بحياته دفاعا عن شرفه وذودا عن حماه، وتفهم كذلك أن يبذل العربى حياته غضبا لموروث العقائد والتقاليد والاعراف، لكنها ما عهدت قط مثل ذلك الجود السخى الباذل، جهادا فى سبيل عقيدة طارئة غير موروثة، يدعو إليها بشر مثلهم يأكل الطعام ويمشى فى الاسواق ! ورابها أكثر، أنه ما من عربى لقى محمدا وأصغى إليه غير معاند، إلا آمن بنبوته وصدق برسالته، وبايعه على الجهاد معه بالنفس والمال ! فماذا لو استفتت أحبار يهود بيثرب، فى أمر هذا النبى البشر، لعلهم يحسمون هذا الهاجس من قلق وارتياب ؟ إنهم أهل كتاب، لديهم ما ليس لدى العرب الاميين من علم بالنبوة والانبياء، وعندهم تستطيع قريش أن تلتمس ما تطمئن به إلى [صفحه ۱۴۹] موقفها العدائى من بشر يدعو إلى دين جديد، وما جربت على هذا الداعى كذبا قط، وإنه فيها للصادق الامين. والكلمات التى يتلوها من وحى ربه، ليست مما يستطيعون أن يأتوا بمثلها. وكان الامد قد طال على يهود فى انتظار ما توقعت من حرب بمكة، تقضى على الاسلام وتنهك قريشا ان

لم تحصـدها حصـدا، فتفتح ليهود أبواب أم القرى، وتمكن لهم من النفاذ إلى المركز التجارى الاكبر فى بلاد العرب. وغاظ اليهود أن تشتد وطأة قريش على المسلمين فلا ينفد لهم احتمال ولا يغلب لهم صبر ! كما غاظهم أن يطول صبر قريش على الموقف، فتلجأ إلى المساومة والمفاوضة، والى الايذاء والاضطهاد، ثم إلى المقاطعة والحصار، دون أن تتجاوز بالموقف حافة الحرب ! فمتى يفلت الزمام من أيـدى المكيين فتخرج السيوف من أغمادها لتنهى الصراع الذى طال سـنين ؟ فى مثل هذا كانت يهود تفكر، حين جاءها خبر من مكـة عن تشاور قريش فى إرسال وفـد منها إلى يثرب، يستفتى لها أحبار يهود فى أمر النبى، بما لـديهم من علم الكتاب. واستعدت يهود للفرصـة المواتيـة: شـهدتهم مستعمراتهم فى يـثرب وتيمـاء وخيبر وفـدك ووادى القرى. يجتمعون إلى أحبـارهم ويتـدارسون. [صفحه ١٥٠] وتـذاكروا فيما بينهم أنهم الـذين روجوا فى العرب لبشـرى نبى حان مبعثه، وأنهم كذلك، طالما منوا على العرب الاميين بأنهم أهل كتاب ودين، وهذا النبى العربى يدعو إلى دين مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل، فكيف السبيل إلى تكذيب اليهود بمن بشـروا بمبعثه ؟ ومن أى طريق يظاهرون عبدة الاوثان على داع إلى عبادة الله، رب موسـى وعيسـى، وابراهيم وإسحق وكل الانبياء المرسـلين ! ؟ الموقف بـالغ التعقيـد والحرج، ولكن هـل يخونهم دهاؤهم فلا يسعفهم بما يحتالون به عليه ؟ إنها فرصـة سانحـة للكيد للاسـلام وقريش معا، لو تركوها تفلت منهم لعقوا دماءهم. من هنا التشاور والمدارسة والتواطؤ، احتيالا على الموقف الصـعب والتماسا لمخرج منه، وإعـدادا للفتوى يقدمونها إلى وفد قريش المنتظر. تسامع بنو هاشم بما عزمت عليه قريش من اسـتفتاء يهود يثرب فى نبوة محمـد بن عبـدالله، فتوجسوا شـرا من هـذه العصابـة الخبيثـة، واسترجعوا ذكرى بعيدة للعم أبى طالب بن عبدالمطلب، حين مر بالراهب (بحيرى) فى طريقه إلى الشام فى رحلـة صـيف. وكان قـد صـحب معه ابن أخيه محمـدا، غلاما لم يبلغ العاشـرة بعـد. فلما رآه الراهب بحيرى توسم فيه مخايل غـد موعود، ونصح لعمه (أن يعود [صـفحه ١٥١] به إلى بلده، وأن يحذر عليه شـر يهود !) [٣٥] وقد مر على ذلك التحذير نحو أربعين سـنة، نسـى فيها بنو هاشم ما كان، وغاب صوت الراهب التقى العابد فى ضجيج الاحداث وكر السنين. حتى بـدا لقريش ان تسـتفتى فى أمر محمـد، هؤلاء اليهود الذين ذكرهم الراهب بحيرى لعمه أبى طالب، وحذره على ابن أخيه من شـرهم. وإذ لم يكن فى اسـتطاعة بنى هاشم أن يردوا قومهم قريشا عما أرادوا، وقد فسد ما بينهم منذ انحازوا إلى أبى طالب فى منع محمد ابن عبـدالله من قريش، لم يبـق إلاـ أن ينتظروا وتنتظر مكـة كلهـا، مـا يكـون من فتوى يهود. أخـذ (النضـر بن الحـارث، وعقبـة بن معيـط) طريقهمـا إلى يثرب، موفـدين من قريش إلى أحبـار يهود، التماسـا لرأيهم فى أمر محمـد ودعوته. وكـانت يهود قـد اسـتعدت للقائهما وأعـدت فتواها. أسـعفها مكرها فلم تفجأ قريشا بجحد صـريح لنبوة طالما بشـرت بها، وإنكار مباشـر لدين يرفض عبادة الاوثان ويدعو إلى عبادة رب موسـى وسائر الانبياء. وآثرت أن تشـغل القوم بمسائل تبلبل أفكارهم وتعنت نبى الاسـلام. [صفحه ١٥٢] فكانت فتوى الاحبار للنضـر وعقبة، أن يعودا إلى قومهم فليسألوا هذا الداعى عن ثلاث. قالوا: (سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الاول، ما كان أمرهم ؟ فإنه قـد كان لهم حديث عجيب. (وسـلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الارض ومغاربها، ما كان نبؤه ؟ (وسـلوه عن الروح ما هى ؟ فـإن أخبركم بـذلك فاتبعوه، وإن لم يفعل فهو رجل متقول، فاصـنعوا فى أمره ما بـدا لكم) [٣٦] وعاد الرجلان إلى مكـة، فاتجها فور وصولهمـا إلى منتـدى قريش، فأبلغـاهم فتوى الاحبار. وعجلوا إلى النبى الامى - عليه الصـلاة والسـلام - يعنتونه بالمسائل الثلاث، فما درى عليه الصـلاة والسـلام بم يجيب عنها، وما كان يتلو من قبل القرآن من كتاب ولا يخطه بيمينه. واسـتمهلهم فى الجواب عما سألوا عنه، عساه يتلقى الوحى بما يقول فيها. لكنهم ألحوا عليه بإعناتهم، وقـد عرفوا ألا جواب لـديه عما يسألون من فتوى أحبار يهود. حتى نزلت آية الاسراء (٨٥) فى الروح: [صفحه ١٥٣] (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا). وبعـدها نزلت سورة الكهف، وفيها الخبر عن أمر الفتيـة أصـحاب الكهف: (أم حسـبت أن أصـحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا - إذ أوى الفتيـة إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لـدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا - فضـربنا على آذانهم فى الكهف سـنين عددا - ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصـى لما لبثوا أمـدا - نحن نقص عليك نبأهم بالحق، إنهم فتيـة آمنوا بربهم وزدناهم هـدى.) الآيات ٩ - ١٢. ومعها الآيات عن ذى القرنين الطواف: (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا - إنا مكنا له فى الارض وآتيناه من

كل شئ سببا، فأتبع سببا. حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة ووجد عندها قوما، قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا) إلى آخر الآيات من سورة الكهف ۸۳ – ۹۸. وخاب مكر يهود وحبط سعيهم، وصدق الله تعالى: (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا – الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا – أولئك [صفحه ۱۵۴] الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيمة وزنا – ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا –) الكهف ۱۰۳ – ۱۰۶. وعادت يثرب فتوارت عن مسرح الاحداث إلى حين، دون أن تصرف سمعها عن الصراع الدائر بين الاسلام والوثنية بمكة، وهو يدنو من ذروة تعقده مؤذنا بوشك تحول فى متجه الاحداث. بل لقد بدا فى ظاهر الامر أن (يثرب) حددت موقفها بالرفض البات للدعوة الاسلامية، حين أوشكت أن تصل إليها من بعيد. وكان الخزرج، لا اليهود، هم الذين ردوها بحد السيف. حدث أن قدم (سويد بن الصامت الاوسى) مكة حاجا فى الموسم، فلقيه المصطفى حين سمع بمقدمه، ودعاه إلى الاسلام. قال سويد: (فلعل الذى معك مثل الذى معى ؟). ولما سأله النبى صلى الله عليه وسلم عما معه ؟ قال: (مجلة لقمان) – يعنى صحيفة حكمته. فتلا عليه المصطفى آيات من القرآن، فلم يبعد منه حتى عاد إليه وقال: (إن هذا لقول حسن). وانصرف وهو يتدبر ما سمع من القرآن، وكان شاعرا حكيما [صفحه ۱۵۵] لا ـ يخفى عليه وجه القول، فقدم يثرب على قومه وراح يتحدث إليهم عن معجزة الكتاب العربى المبين، فلم تلبث الخزرج أن قتلته، وفى حسابها أن يثرب ليست بحيث تحتمل وطأة دين جديد، وحسبها ما لقيت من شر يهود، يزعمون أنهم أهل كتاب ! [۳۷] وتكرر المشهد مع وفد آخر من الاوس جاءوا من يثرب، وإن اختلفت الاشخاص واختلف المكان. وكان الاوس، هذه المرة، هم الذين ردوا الاسلام عن يثرب ! قدم (أنس بن رافع) مكة ومعه فتية من بنى عبد الاشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم الاعداء من لخزرج. وسمع بهم المصطفى عليه الصلاة والسلام، فأتاهم حيث نزلوا بأم القرى، فعرض عليهم الاسلام وتلا فيهم آيات من القرآن. قال إياس بن معاذ، وكان فتى حدثا سليم الفطرة: (أى قوم، هذا والله خير مما جئتم فيه، فما كان من زعيم الوفد، أنس بن رافع، إلا أن أخذ حفنة من تراب البطحاء فضرب بها وجه الفتى وهو يقول زاجرا: (دعنا منك، فلعمرى لقد جئنا لغير هذا) [۳۸] فصمت إياس، [صفحه ۱۵۶] وقام عنهم المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد هموا بارتحال عائدين إلى يثرب. لكن منطق التاريخ لم يكن ليبقى يثرب طويلا بمعزل عن الاحداث، مهما يبد من ظاهر هذا الموقف أو ذاك. [صفحه ۱۵۷]

ابواب موصدة

(قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون، فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون – ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نباءى المرسلين) (صدق الله العظيم) حتى عام الحزن، فى السنة العاشرة من المبعث، لم يكن المصطفى عليه الصلاة والسلام قد خرج بدعوته من أم القرى، مهد مولده ومنزل مبعثه، إلا أن يلقى بعض الوافدين على الموسم فيدعوهم إلى الاسلام. [صفحه ۱۵۸] ففى مكة قبل سواها، كان ينبغى أن تستقر الدعوة، بحكم التاريخ الدينى العريق للبلد الحرام والبيت العتيق. لكن عشر سنين من الصراع المرير بين الاسلام والوثنية القرشية، بلغت بالجولة المكية ذروة تعقدها وفرضت أن تأخذ الاحداث متجها آخر. وبدأ المصطفى بالطائف، فخرج من مكة يلتمس النصرة من ثقيف والمنعة بهم من قومه، ويرجو أن يقبلوا منه دعوته التى تصدت لها قريش بالمقاومة والاضطهاد، بغيا وعنادا.. خرج وحده، فلما انتهى إلى الطائف اتجه إلى ثلاثة إخوة، أبناء عمرو بن عمير الثقفى، هم يومئذ سادة ثقيف. وكان أحدهم زوجا لقرشية من بنى جمح. فجلس إليهم صلى الله عليه وسلم حيث وجدهم فى بستان لهم ودعاهم إلى الاسلام والتمس نصرتهم. فكان رد أولهم، أنه يمرط ثياب الكعبة – أى ينزعها ويرمى بها – إن كان الله قد أرسله ! ورد الثانى: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال ثالثهم: والله لا أكلمك أبدا ! لئن كنت رسولا من الله كما تقول، لانت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله فما ينبغى لى أن أكلمك. فقام صلى الله عليه وسلم من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف. وأقصى ما طمع فيه منهم، أن يستجيبوا لرجائه فى أن يكتموا أمره معهم، كيلا

تزداد قريش جرأة عليه. [صفحه ۱۵۹] لكنهم أغروا به سفهاءهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة، وهما فيه. فجلس عليه الصلاة والسلام هناك ريثما ينصرف عنه الناس، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف. رفع المصطفى وجهه إلى السماء وقال فى ضراعة وابتهال: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى. أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك !). فكأنما تحركت لضراعته رحم ابنى ربيعة، فبعثا إليه بعض العنب مع غلام لهما نصرانى يدعى (عداس). ودهش عداس، حين سمع المصطفى يقول: باسم الله. قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد. ولما حدثه المصطفى عن الاسلام، أكب عليه يقبل رأسه ويديه وقدميه. لمحه سيداه، فانتظرا حتى عاد إليهما وسألاه: - مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ [صفحه ۱۶۰] أجاب: يا سيدى، ما فى الارض خير من هذا، لقد أخبرنى بما لا يقوله غير نبى. قالا: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه. رجع المصطفى إلى مكة محزونا يائسا من خير ثقيف، والموسم قد أهل. فمضى على عادته يعرض دعوته على وفود القبائل العربية التى سعت إلى أم القرى. وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه، إلا قليلا ممن آمن به. وبدت الجولة فى أولها مدعاة إلى يأس وقنوط: سعى إلى (منى) حيث مجتمع الحاج، فوقف على الحشود هناك يقول: (يا بنى فلان، إنى رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به). فخرج له من جمع قريش رجل أحول وضىء، له غديرتان وعليه حلة عدنية، فقام فى الناس وقال: (يا بنى فلان، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه). سأل سائل لا يعرفه: [صفحه ۱۶۱] - من هذا الذى يتبع محمدا ويرد عليه ما يقول ؟ وأجاب مجيب: - ذاك عمه، عبدالعزى، أبو لهب، بن عبدالمطلب. وانتظر المصطفى حتى انصرفت القبائل من (منى) إلى منازلها فى مكة، فأتى كندة فدعاهم إلى الاسلام فأبوا عليه. وكذلك رده بنو كلب، لم يقبلوا منه دعوته. ثم أتى بنى حنيفة فى منازلهم، فلم يكن أحد من العرب أقبح ردا منهم. وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة، فتداولوا أمره فيما بينهم، وإن أحدهم، فراس بن عبدالله بن سلمة العامرى، ليقول: (والله لو أنى أخذت هذا الفتى من قريش لاكلت به العرب). ثم قام إلى المصطفى فقال يساومه: (أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الامر من بعدك ؟). قال عليه الصلاة والسلام: (الامر إلى الله يضعه حيث يشاء). ورد المساوم عن بنى عامر: (أفتهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الامر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك !). [صفحه ۱۶۲]

بيعة العقبة ومتجه الاحداث

(واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون). (صدق الله العظيم) ومن حيث بدت الابواب كلها موصدة فى وجه الاسلام، ظهرت يثرب على الافق الشمالى البعيد، تجذب إليها مجرى الاحداث من دائرته المقفلة فى أم القرى. [صفحه ۱۶۳] خرج المصطفى فى الموسم كدأبه فى كل موسم، يعرض الاسلام على وفود القبائل. وبلغ العقبة فلقى رهطا من العرب، سألهم لما عرف أنهم من الخزرج: - أمن موالى يهود ؟ قالوا: نعم. قال: أفلا تجلسون أكلمكم ؟ جلسوا، فدعاهم إلى الله عزوجل، وعرض عليهم الاسلام وتلا عليهم القرآن. وذكروا ما طالما سمعوا من اليهود الذين غزوهم ببلادهم، عن نبى حان زمانه، يظاهرونه على عرب يثرب من أوس وخزرج فيقتلونهم. قال بعضهم لبعض: (يا قوم، تعلموا والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه). وأجابوه صلى الله عليه وسلم إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: (إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم. فعسى أن

يجمعهم الله بـك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الـذى أجبنـاك إليه من هـذا الـدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجـل أعز منك). ثم أخـذوا طريقهم إلى الشـمال عائـدين إلى بلادهم وقـد آمنوا بالله ورسوله عليه الصـلاة والسـلام. [صـفحه ۱۶۴] وشـغلت يثرب بأمر الاسـلام، منذ عاد إليها الخزرجيون الذين بايعوا المصـطفى: العرب من أوس وخزرج، يلقون أسماعهم إلى حديث هؤلاء الانصار، ولا يكاد يفرغ لهم عجب لما يشهدون من حماستهم للدعوة، وصدق حبهم للرسول وإيمانهم برسالته. ويهود، فى شغل شاغل بهذه البادرة الخطرة. كان الخزرجيون أصـحاب البيعة الاولى، سـتة نفر أو سـبعة، لم يكن عددهم هو الذى شـغل يهود، بقدر ما شغلهم أن الدين الاسـلامى وصل إلى يثرب وكان الظن أن يبقى محصورا فى مكة بين أحياء قريش يمزقها بددا. وقد راحوا يترصدون خطوات الـدعاة الاولين من الانصار، متعلقين بالرجاء فى أن عرب يثرب لن يلبثوا أن يختلفوا على الاسـلام، وأن الاوس لن ترضـى عن دعوة حملهـا رهط من الخزرج، ومثل هـذا الخلاف المتوقع مرجو لان يلهب نار العـداوة والبغضاء بينهم، ويمـدها بوقود يزيـدها حـدة وضـراما: لكن عامـا مضـى والانصار الخزرجيون ماضون فى دعوتهم لا يصـدهم عنها من قومهم صاد. حتى إذا حل موسم الحـج، ذاع خبر من مكـة ان اثنى عشـر يثربيا ممن وافوا الموسم، لقوا نبى الاسـلام عنـد العقبـة وبايعوه. وجن غيظ يهود وهى ترى فى هذه البوادر إيـذانا بتحول خطير فى حركة الدعوة الاسـلامية التى عاشت فى مكة أكثر من عشـر سـنين، [صـفحه ۱۶۵] صامـدة لكل ما قاومتها به الوثنية القرشـية من أذى واضطهاد وحصار وفتنة، رافضة كل ما عرضت عليها من مساومات. وانتظرت يثرب حتى عاد هؤلاء الرهط من الانصار، وفى الظن أنهم خزرجيون كسابقيهم أصـحاب البيعـة الاولى. فكانت المفاجأة، أن فيهم ثلاثة من زعماء الاوس، مع تسـعة من أحياء الخزرج. جمعهم الاسـلام ووحد بينهم وألف بين قلوبهم، وقد كانوا من قبل متباغضـين، بعضـهم لبعض عدو. استقبلت يثرب مع الانصار العائدين من بيعة العقبة، صحابيا جليلا من صميم قريش، هو (مصعب بن عمير بن هاشم) موفدا من قبل المصطفى عليه الصلاة والسـلام، مع الـذين بايعوه من اليثربيين، ليقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين. ونزل مصـعب على أنصارى من سادة الخزرج: (أسـعد بن زرارة) كبير بنى النجار، أخوال عبـدالله بن عبـد المطلب، والـد المصـطفى.. وكانت يثرب قد تسامعت قبل ذلك بما شاع وذاع من أمر مصـعب بن عمير. قبل إسـلامه، كان فتى مكـة شـبابا وجمالا وزهوا، تلتمس له أمه، لفرط شـغفها به، أفخر الثياب وأنـدر العطور، حتى ليذكره النبى صلى الله عليه وسلم فيقول: [صفحه ۱۶۶] (ما رأيت بمكة أحسن لمة ولا أرق ولا أنعم نعمة، من مصـعب ابن عمير). بلغ مصعبا يوما أن محمد بن عبدالله الهاشمى، فى دار الارقم يدعو إلى الاسلام. فاتجه إليه من تلقاء نفسه فبايعه. وكتم إسلامه إشفاقا على أبويه اللذين شغفهما حبا. حتى بصر به (عثمان بن طلحة) يصلى صلاة المسلمين، فأخبر قومه فأخذوه وحبسوه ليفتنوه عن دينه. فلم يزل محبوسا إلى أن لاحت له فرصـة الافلات فهاجر بـدينه إلى أرض الحبشـة. وعاد إلى مكة مع من عادوا من مهاجرة الحبشة حين بلغتهم بشـرى انهيـار الحصـار المنهك الـذى ضـربه المشـركون على المسـلمين ومن والاهم من بنى هاشم. فما رأت مكـة فتى مثل مصـعب، استبدل بأناقـة المظهر بهـاء الايمـان، وبخيلاء النعمـة جلال التقى وتواضع الخشوع. واختـاره المصـطفى من بين أصـحابه ليكون إمام الانصـار فى يـثرب، فأقـام عامـا هنـاك يتنقـل بين دورهـا: يـؤم المسـلمين فى الصـلاة ويعلمهم الـدين ويتلو القرآن، فتخشع له القلوب والضـمائر متفتحـة لنور الهـدى. خرج مصـعب يوما مع (أسـعد بن زرارة) سـيد الخزرج، وكان منزله عليه، إلى حى بنى عبـد الاشـهل، واجتمع إليهما رجال من الانصار. فسـمع بمقدمهما (سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير) وهما يومئذ سيدا قومهما، وكلاهما على الشرك، دين العشيرة والآباء. [صفحه ۱۶۷] وتحرج سـعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة، وهو ابن خالته. فحرض أسيد بن حضير على أن يقوم فيرده وصـاحبه عن الحى. قـال: (لا أبا لك ! انطلق إلى هـذين الرجلين - أسـعد ومصـعب - اللـذين أتيا دارينا ليسـفها ضـعفاءنا، فازجرهمـا وانههمـا عن أن يأتيـا دارينـا، فـإنه لولاـ أن أسـعد بن زرارة منى حيث علمت، كفيتـك ذلك. هو ابن خالتى ولا أجـد عليه مقـدما). فالتقـط أسـيد بن حضـير حربته، ثم أقبـل إليهمـا فقال متوعـدا: (ما جاء بكما إلينا تسـفهان ضـعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسـكما حاجة). قال له مصـعب بن عمير: (أو تجلس فتسـمع، فإن رضـيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره ؟). فركز أسيد حربته وجلس متكئا عليها يسـمع حـديث مصـعب عن الاسـلام وتلاوته القرآن، وقـد زايله تقبضه وتجهمه. ثم قال متهلل الاسارير: (ما

أحسن هـذا الكلام وأجمله !). وأسلم. وانطلق عائدا إلى حيث ترك (سعد بن معاذ) ينتظره فى الجمع من قومه. فما لمحه سعد حتى قال لمن حوله: (أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بن حضير بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم). [صفحه ۱۶۸] ثم سأله عما فعل بأسعد بن زرارة وضيفه مصعب، فرد أسيد محاذرا: (كلمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسا ! وقد نهيتهما، وإنى لاخشى على ابن خالتك من بعض القوم). فقام سعد مغضبا، فما أبعد حتى رأى أسعد ومصعبا يتجهان إليه مطمئنين، فعرف أن أسيد بن حضير إنما أراد له أن يسمع منهما. وتجاهل مصعبا وقال لاسعد، ابن خالته: (يا أبا أمامة، أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى. أتغشانا فى ديارنا بما نكره). همس أسعد لصاحبه: (أى مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك اثنان). وأقبل مصعب على سعد بن معاذ فقال له مثل الذى قال لاسيد بن حضير: (أو تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره ؟). قال ابن معاذ: (أنصفت). وتكلم مصعب وقرأ القرآن. وقبل أن يلفظ سعد بكلمة، عرف القوم الاسلام فى وجهه، لاشراقه وتهلله. [صفحه ۱۶۹] وأسلم سعد، ومضى من فوره إلى قومه فسألهم: (كيف تعلمون أمرى فيكم) ؟ قالوا: (سيدنا، وأفضلنا رأيا وأيمننا نقيبة). فدعاهم إلى الاسلام فأجابوا جميعا، فما أمسى فى حى بنى عبد الاشهل رجل ولا امرأة، إلا مسلما ومسلمة [۳۹] وكانت دور المسلمين تتجاوب منذ أول بيعة فى العقبة، بشعر فى السعدين: سعد بن عبادة وسعد بن معاذ، قبل إسلامهما: فإن يسلم السعدان يصبح محمد - بمكة لا يخشى خلاف المخالف فيا سعد، سعد الاوس، كن أنت ناصرا - ويا سعد، سعد الخزرجين الغطارف أجيبا إلى داعى الهدى وتمنيا - على الله فى الفردوس منية عارف دون أن يعرف لمن الشعر، وكأنما هو هاتف يشدو بما كان المسلمون يرجونه من إسلام هذين الرجلين. [۴۰] وهذا سعد الاوس قد أسلم. وبعده، فى بيعة العقبة الكبرى، أسلم سعد الخزرج، ابن عبادة، وكان أحد اثنى عشر نقيبا لاصحاب البيعة الكبرى. [صفحه ۱۷۰] وتوقعت يهود، بل توقعت يثرب كلها والحجاز، أن يكون لهذا الامر ما بعده. بعد إسلام (سعد بن معاذ) وكل قومه من بنى عبد الاشهل، فشا الاسلام فى يثرب فما من دار للعرب هناك، إلا وفيها للدين الجديد ذكر. وأهل موسم الحج، لاثنتى عشرة سنة بعد المبعث. وخرج إمام يثرب (مصعب بن عمير) ساعيا إلى أم القرى، يصحب رهطا من الانصار، فيهم من لم يكن لقى المصطفى بعد. وفى الركب اليثربى، حجاج آخرون غير مسلمين.. ودنا الركب من مشارف مكة، فتهللت وجوه الانصار ورنت قلوبهم إلى لقاء نبيهم عليه الصلاة والسلام، وهم على موعد معه بالعقبة، فى ليلة حدودها من ليالى التشريق، دون أن يعلم بقية اليثربيين بهذا الموعد. فيما عدا (عبدالله بن عمرو) الذى آنس فيه الانصار خيرا، فأسروا إليه بموعدهم مع نبيهم المصطفى وقالوا له: (يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه) [۴۱] . [صفحه ۱۷۱] فى الليلة الموعودة، أوى الانصار إلى مضاجعهم حيث نزلوا مع سائر قومهم فى رحالهم. فلما مضى ثلث الليل خرجوا لميعاد النبى صلى الله عليه وسلم، يتسللون تسلل القطا مستخفين، حتى وافوه عند العقبة. كانوا ثلاثة وسبعين رجلا، فيهم أبو جابر عبدالله بن عمرو وامرأتان: أم عمارة، نسيبة بنت كعب المازنية. وأم منيع، أسماء بنت عمرو بن عدى، من بنى سلمة. قال العباس بن عبادة بن فضلة يخاطب قومه: (يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟) قالوا: نعم. قال: (إنكم تبايعونه على حرب الاحمر والاسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن: فهو والله خزى الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون إنكم وافون له بما دعوتموه إليه فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة). قالوا للمصطفى: ابسط يدك. فبسط عليه الصلاة والسلام يده فبايعوه، الخزرج منهم والاوس. وأمرهم صلى الله عليه وسلم فاختاروا من بينهم اثنى عشر نقيبا: تسعة من الخزرج وثلاثة من الاوس. قال أحد النقباء، العباس بن عبادة: [صفحه ۱۷۲] (يا رسول الله، والله الذى بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى، من المشركين، غدا بأسيافنا). فرد عليه الصلاة والسلام: (لم نؤمر بذلك، لكن ارجعوا إلى رحالكم. ورجعوا إلى رحالهم فتسللوا إلى مضاجعهم فناموا مطمئنين، والدنيا من حولهم ساهرة لا تنام. لم يكن النبأ الخطير لبيعة العقبة الكبرى، بحيث يخفى على المشركين من قريش، وأصحاب العقبة هذه المرة، خمسة وسبعون من الخزرج والاوس، بايعوا نبى الاسلام على أن ينصروه ويمنعوه. ومتى ؟ وأين ؟ فى ليلة من ليالى التشريق بموسم الحج، وفى مكة، معقل قريش والعاصمة الدينية للوثنية العربية. وقبل أن

یسفر الصبح، تسرب النبأ إلی مکة فهاج غضب المشرکین. وإذ ظنوا أن المبایعین من الخزرج دون الاوس، بادر إلیهم نفر من طواغیت قریش فقالوا بین وعد ووعید: (یا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنکم جئتم إلی صاحبنا تستخرجونه من بین أظهرنا وتبایعونه علی حربنا. وإنه والله ما من حی من العرب أبغض الینا أن تنشب الحرب بیننا وبینهم، منکم). [صفحه ۱۷۳] فهب مشرکو الخزرج یحلفون لهم أنه ما کان من ذلک شیء، وما علموه. ولم یطمئن القرشیون، بل ذهبوا إلی (عبدالله بن أبی بن سلول الخزرجی). وکان یمنی نفسه بملک یثرب تؤازره یهود. فسأله فأنکر الامر کله إنکارا باتا، وقال لقریش: (إن هذا الامر لجسیم، ما کان قومی لیتفوتوا علی بمثله، وما علمته کان). وانصرفوا وما یزال فی نفوسهم ریب مما بلغهم من الامر الجسیم، فما زالوا یتثبتون حتی علموا یقینا أنه قد کان لقاء فی العقبة علی موعد بین محمد وأنصاره، وأن بضعة وسبعین یثربیا من الاوس والخزرج قد بایعوه، وأن أحد نقبائهم قال له فیما قال: (نعم والذی بعثک بالحق لنمنعنک. فبایعنا یا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة، ورثناها کابرا عن کابر). وکرت قریش راجعة إلی منزل الحجاج من یثرب، فإذا بهم قد شدوا رحالهم وأبعدوا فی طریقهم إلی شمال الحجاز. والاسلام معهم، قد بدأ ببیعة العقبة الکبری مرحلة جدیدة مؤذنة بتحول حاسم فی اتجاه الاحداث: فی قلب الحجاز معقل الوثنیة القرشیة والعربیة، وفی الشمال، بیثرب وما حولها، وکانت حتی ذلک الحین معقلا لیهود. [صفحه ۱۷۴] ببیعة العقبة الکبری، أوشکت الجولة الاولی من جولات الصراع بین الاسلام والوثنیة، أن تنتهی فی مکة لتبدأ جولة أخری. بعد أن استنفذت تلک المواجهة الاولی، کل ما لدی قریش من وسائل وذرائع لمقاومة الدعوة، دون أن تنتقل من موقفها علی حافة الحرب إلی صدام مسلح. وبدأ التاریخ یلتفت إلی یثرب التی یتجه إلیها مؤشر التحول، ویستعید ما طوی من قدیم أخبارها [۴۲] من قدیم بعید موغل فی أعماق الماضی إلی عصر ما بعد الطوفان، بدأ الوجود العربی فی یثرب والحجاز. الروایة العربیة تقول إن (سفینة نوح) رست قریبا من بابل فی موضع سمی (سوق الثمانین) بعدد من کانوا فی السفینة الناجیة من الطوفان. وقد مکثوا هناک حتی کثروا وضاقت بهم المنطقة، فتفرقوا. اتجه بنو عبیل، أخی عاد، إلی موضع یثرب، وهو اسم أحد أبناء عبیل، فنزلوا به وعمروه. ثم مالوا إلی موضع آخر فی المنطقة دهمهم فیه سیل جاحف، فسمی الجحفة. وظلت یثرب مهجورة إلی أن عمرتها قبیلة من العرب القحطانیة العاربة، بعد تصدع سد مأرب. هذه القبیلة العربیة الصمیمة، هی الاوس والخزرج. [صفحه ۱۷۵] أخوان شقیقان، أبوهما (عمرو بن عامر) آخر ملوک سبأ قبل خرابها. وأمهما (قیلة) التی ینسب إلیها عرب یثرب، بنو قیلة. ونزح إخوتهم (بنو جفنة بن غسان) إلی أرض الشام فأسسوا بها إمارة الغساسنة العربیة. وآخرون من جرهم، نزلوا حول مکة. وهم الذین أصهر إلیهم (إسماعیل بن ابرهیم) جد العرب العدنانیة. أقام بنو قیلة فی یثرب دهرا طویلا فی أمن وسلام ورخاء ونعمة، والمنطقة خالصة لهم. حتی طرأت علیهم من الشمال شراذم من فلول یهود، فارین من وطأة الرومان الساحقة، بعد المؤامرة علی السید المسیح علیه السلام. وحطوا علی أخصب منطقة هناک، فما لبثوا أن أنشبوا مخالبهم فیها واستنزفوا خیرها. وأقاموا لهم مستعمرات حصینة فی یثرب وقریظة وخیبر وفدک وتیماء ووادی القری، وأثروا ثراء فاحشا علی حساب الوجود العربی الذی بدأ یتصدع من وطأة الغزاة [۴۳] حاول العرب أول الامر أن یأمنوا شر یهود، بعقد حلف جوار معهم. وفی ظل ذلک الحلف استطلع بنو قیلة أن یواصلوا حیاتهم ویمارسوا نشاطهم. فخافت یهود علی وجودها المغتصب، وقطعت الحلف الذی بینهم، وصرح الشر منهم حتی خاف بنو قیلة أن تجلیهم یهود عن أرضهم. [صفحه ۱۷۶] إلی أن شب (مالک بن العجلان) أخو بنی سالم بن عوف بن الخزرج، وسوده الحیان من بنی قیلة، فکان الذی تصدی لافاعی یهود وقتل بضعة وثمانین من رؤوسها، فانکمشوا خائفین یلعنونه فی بیعهم ومعابدهم کلما دخلوها. ولجأوا إلی أحیاء العرب یستجدون الحمایة والجوار (وقد ذلوا وانکسرت شوکتهم وقل امتناعهم). وإنما مکن لهم من یثرب بعد ذلک، ما شب بین الاوس والخزرج من خصام خب فیه یهود ووضعوا، وسهروا علی إلهاب ضرامه لتخلو لهم الارض الطیبة. وبدأت مرحلة مظلمة فی تاریخ یثرب، استغرقت بضعة قرون قبل الاسلام - من القرن الاول إلی السادس للمیلاد - لم تنطفیء فیها نار الحروب بین الاوس والخزرج، فی کل حرب منها نلمح أثر الیهود فی تدمیر الوجود العربی هناک [۴۴] وآذن العصر الجاهلی بمغیب، وهذا العدو الخبیث یتربص بالاوس والخزرج الداوئر، لیمیل مع المنتصر منهما ویسلب المهزوم. والمستعمرات الیهودیة فی شمال

الحجاز تزداد ثراء بما تستنزف من خير الارض. ومرافق البلاد الحيوية فى قبضة مخالب الذئاب الفارة من مخالب النسر الرومانى. وقد كانت آخر حرب بين الاوس والخزرج، يوم بعاث قبل بيعة العقبة الكبرى بأربع سنوات. ودور يهود فيها معروف مشهور: [صفحه ۱۷۷] فحين ظهرت بوادر الحرب بين بنى قيلة، تدخل يهود بنى قريظة يلهبونها بالتواطؤ سرا مع الاوس. فلما علم الخزرج بهذا التواطؤ، بعثوا إلى يهود منذرين: (إنكم إن فعلتم لم ننم عن الطلب أبدا. وأسلم لكم أن تدعونا وتخلوا بيننا وبين إخواننا). رد يهود على نذير الخزرج: (إنه قد كان الذى بلغكم، والتمست الاوس نصرنا، وما كنا لننصرهم عليكم أبدا). لكن الخزرج أصروا على أن يأخذوا رهائن من غلمان بنى قريظة، ضمانا لعدم غدرهم. فدفعوا إليهم أربعين غلاما يهوديا، وإن قائلهم ليقول: (خلوهم يقتلوا الرهن، إن هى إلا ليلة يصيب فيها أحدكم امرأته، حتى يولد له غلام مثل الرهن) [۴۵] وغدرت يهود بوعدها للخزرج، حين لمحت غلبة الاوس عليهم. وانهزمت الخزرج يوم بعاث، ووضعت فيها الاوس السلاح، وسلبتهم قريظة والنضير. اجتاحت العصابة اليهودية دور الخزرج تنهب وتسلب، حتى أتوا دار (عبد الله بن أبى بن سلول) ليهدموها، فاشترى منهم الامان بدفع رهائنهم إليهم ! [صفحه ۱۷۸] ومن ذلك اليوم بدأ بينه وبينهم حلف الشيطان. وكان لا بد من حرب جديدة يصلاها عرب يثرب، تصفية ليوم بعاث. والامر فى مثلها لا يعدو انطلاق شرارة من هنا أو من هناك، تؤجج ضرام الجذوة التى لبثت متقدة قرونا، تلتمس بين حين وآخر من ينفخ فيها، لتستعر بوقود من رجال الاوس والخزرج. وقد كان الخزرجيون أصحاب الثأر لبعاث، ومن هنا كان سعى الاوس إلى مكة التماسا لحلف قريش على الخزرج. ومن حيث توقعت يثرب أن تلتهب الجذوة بشرارة هذا الحلف، وألقت عاصمة الشمال سمعها إلى مكة فى انتظار عواقب المفاوضة بين وفد الاوس وزعماء قريش. جاءت المعجزة من هناك فأطفأت الجذوة وبددت رمادها هباء منثورا. وكان عجبا من العجب، أن تأتى (يثرب) بشرى السلام من مكة، فى الوقت الذى بلغت فيه معركتها بين الاسلام والوثنية ذروة احتدامها. وحين هم التاريخ بأن يضيف حربا جديدة إلى الحروب التى مزقت الاوس والخزرج، وقف بعد بيعة العقبة الكبرى فطوى الصفحات الداميات التى خضبت حياة يثرب قرونا ستة، ليبدأ صفحة جديدة بآية الاسلام التى من الله بها على المؤمنين الانصار، فأصبحوا بنعمته إخوانا. [صفحه ۱۷۹] وكانت عبرة، أن تجمع العقيدة ما تفرق وانتثر من شتات القوم، وأن تزيل ما تراكم فى قلوبهم من ثارات وأحقاد، وتنسخ جاهليتهم المخضبة بالدماء.. وفى ظل هذه العقيدة الجامعة المؤلفة للقلوب، وتحت لوائها المبارك الميمون، التقى الاوس والخزرج إخوانا فى الدين وعادوا بعد بيعة العقبة الكبرى أنصارا للاسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام، فكانوا هم الدعاة الاولين الذين حملوا نوره إلى عاصمة الشمال فى الحجاز، وهيأوها لاستقبال المهاجر العظيم عليه الصلاة والسلام. وما يزال اليهود، حتى عصرنا هذا، يقفون عند بيعة العقبة مأخوذين بما كان من جسيم خطرها وبعد أثرها. وإن فيهم من يعدها بدء التاريخ الاسلامى، ويراها أولى بذاك من عام الهجرة التى هى فى رأيهم أثر للبيعة الكبرى. قال المؤرخ اليهودى (اسرائيل ولفنسون، أبو ذؤيب): (ومهما يكن من شأن هذه البيعة العظيمة فإنها من الحوادث ذات النتائج الخطيرة فى التاريخ الاسلامى. وإنى أعتقد أنه كان من الحق على المسلمين أن يبتدئوا تاريخهم من تلك السنة، لان قيمتها لم تكن أقل شأنا من قيمة هجرة الرسول إلى يثرب) [۴۶] وما كان لليهود يومها أمل، إلا (أن يفلح زعماء قريش فى استمالة(۱، ۲) [صفحه ۱۸۰] زعماء الخزرج (؟) وإلا فإنهم لا بد ذاهبون للتقرب من بعض زعماء اليهود ليعملوا على إحباط أعمال المسلمين فى المدينة) ! [۴۷] تلاحقت الاحداث بعد بيعة العقبة الكبرى. فقدت قريش ما بقى من رشدها، فصبت على المسلمين حمما من الاذى والاضطهاد. والتقطت يهود أنفاسها، أملا فى أن تشتعل نار الحرب فتأكل الجمعين من أهل مكة. لكنهم فوجئوا بتدفق المهاجرين من مسلمى مكة نحو يثرب، بتوجيه من المصطفى عليه الصلاة والسلام، حيث نزلوا على الانصار إخوانهم فى الدين، بمأمن من قريش. وأمست دور المهاجرين فى مكة، موحشة خلاء. لم يبق منهم فى أم القرى، غير من حبس أو فتن، إلا الرسول عليه الصلاة والسلام، وصاحباه الصديق أبو بكر، وعلى بن أبى طالب. [۴۸] وتوقعت قريش أن يلحقوا بالمسلمين فى دار الهجرة، فهل تدع الامر يفلت من يدها بعد ثلاث عشرة سنة من الصراع المرير المنهك ؟ لا بد من ضربة باترة، تحسم الامر كله. وقد حاولتها قريش، فى جنون غيظها وقهرها. [صفحه ۱۸۱] نقل كتاب السيرة ومؤرخو الاسلام، أن قريشا (لما رأت أن محمدا، صلى الله عليه

وسلم، قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا بيثرب دارا وأصابوا منهم منعة. فحذروا خروج الرسول إليهم وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا فى دار الندوة - وهى دار جدهم قصى بن كلاب. حيث كانت قريش لا تقضى أمرا إلا فيها - يتشاورون فيها ما يصنعون فى أمر محمد، عليه الصلاة والسلام، حين خافوه. (قال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن اتبعه من غيرنا. فأجمعوا فيه رأيا). وتعددت مقترحاتهم، طائشة هوجاء. حتى قال أبو جهل بن هشام: (والله إن لى رأيا ما أراكم وقعتم عليه بعد). سألوه: (وما هو يا أبا الحكم ؟). قال: (أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا فينا، ثم نعطى كل فتى منهم سيفا صارما فيعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعا فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا، فرضوا منا بالعقل فعقلناه لهم) - يعنى الدية [۴۹] . [صفحه ۱۸۲] وانصرفوا وهم مجمعون على هذا الرأى المخبول، وحددوا ليلتهم لذلك موعدا. وفى تلك الليلة، خرج المصطفى عليه الصلاة والسلام ناجيا إلى دار هجرته.. [صفحه ۱۸۳]

مع المصطفى فى دار هجرته

اشاره

- هجرة. وتاريخ - أبعاد الموقف فى ميدان الصراع - يوم بدر، وموازين القوى - درس من أحد. ورسالة من شهيد - الاسلام فى الجبهات الثلاث: مع عصابات يهود مع الوثنية القرشية مع المنافقين (ودخل الناس فى دين الله أفواجا [صفحه ۱۸۵]

هجرة وتاريخ

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هى العليا، والله عزيز حكيم). (صدق الله العظيم) فى السنة الثالثة عشرة للمبعث، كانت الهجرة التاريخية التى اختارها، بعد، ثانى الخلفاء الراشدين (عمر بن الخطاب) رضى الله عنه، بداية للتاريخ الاسلامى. [صفحه ۱۸۶] تقديرا لجلال الحدث الذى كان منطلق تحول حاسم وخطير، فى تاريخ الاسلام. وعلى امتداد الزمان، يحتفل المسلمون حيثما كانوا، بمستهل عام الهجرة، دون أن يفوتهم لمح ما كان لها من أثر بعيد فى حركة سير الدعوة الاسلامية. ودون أن يخطئهم إدراك ما أعقب تلك الهجرة التاريخية من تغير فى موازين القوى بين حزب الله، وبين الوثنية الباغية من قريش. وإن فاتهم، أو فات كثيرا منهم، وعى حركة التحول ذاتها، وأعوزهم فهم التفسير التاريخى لتلك الهجرة الفاصلة بين أخطر المرحلتين من عصر المبعث. ولقد مضى عليها ما يقرب من ألف وأربعمائة عام، وكلما بدأت السنة القمرية بهلال المحرم، تحركت أقلام تحيى الذكرى الخالدة، وشدت أبصار وقلوب إلى خطوات المهاجر العظيم ما بين مكة ويثرب، منذ خرج صلى الله عليه وسلم من بيته فى مكة ذات نهار - وقد بلغت محنة الاضطهاد أقصى مداها، بعد ثلاث عشرة سنة من المبعث - فاتجه إلى بيت صاحبه الصديق أبى بكر، وأسر إليه أن الله تعالى قد أذن له فى الخروج والهجرة. هتف الصديق: (الصحبة يا رسول الله. الصحبة). وبدأ التأهب لرحيل عاجل: بعث أبو بكر يدعو (عبدالله بن أريقيط) وكان دليلا ثقة، [صفحه ۱۸۷] خبيرا بمجاهل الطريق، فدفع إليه براحلتين يرعاهما لميعاد موقوت. ودعا المصطفى ابن عمه (على بن أبى طالب) فاستخلفه بمكة ليؤدى عنه ودائع كانت للناس. ثم لما حانت ساعة الرحيل، وقف صلى الله عليه وسلم على مرتفع هناك ببيت صاحبه، فرنا إلى البيت العتيق طويلا، ثم أشرف على أم القرى فاستوعبها بنظرة حزينة وقال مودعا: (والله إنك لاحب أرض الله إلى الله، وإنك لاحب أرض الله الى. ولولا أن أهلك أخرجونى منك ما خرجت). وتسللل الصاحبان من خوخة فى ظهر الدار، فأخذا طريقهما إلى غار يعرفانه فى جبل ثور بأسفل مكة، فأقاما فيه ينتظران ما يكون من أصداء الرحيل. وجاء

اليوم التالى يحمل إليهما فى الغار، الانباء عن خروج نفر من طواغيت قريش لمطاردة المصطفى عليه الصلاة والسلام. وفى الخبر أنهم بلغوا غار ثور فتلبثوا عنده وهموا بأن يدخلوه، لولا أن صدهم عنه نسيج عنكبوت على مدخله، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه [۵۰] قال الصديق للمصطفى: (لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا). فكان جوابه، صلى الله عليه وسلم: [صفحه ۱۸۸] (لا تحزن إن الله معنا). وفى هدأة المساء من الليلة الثالثة لمقامهما فى الغار، جاء الدليل يسوق الراحلتين حذرا، فأناخ قريبا من فتحته. وخرج المصطفى وصاحبه. وجاءت أسماء بنت أبى بكر بطعام لهما، فلما أعوزها عصام تشد به الزاد إلى الرحل، حلت نطاقها فشقته نصفين، علقت الزاد بأحدهما وانتطقت بالشق الآخر. وسرى الركب فى تلك الليلة التاريخية، آخذا طريق الجنوب من أسفل مكة، وكان غير مطروق. وودعتهما (أسماء) ذات النطاقين، ثم تلبثت تتبعهما بصرها وقلبها حتى أبعدا، فعادت إلى بيت أبيها مستخفية حذرة، وهى توجس خيفة من المطاردين. ولم تمض لحظات حتى فوجئت بطرقات عنيفة تلح على باب الدار، وإذا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، يسألونها فى غلظة: (أين أبوك يا بنت أبى بكر ؟) أجابت: (لا أدرى والله أين أبى). وما كذبت، فقد كان آخر عهدها بأبيها مع المصطفى عليه الصلاة والسلام، منطلقين من الغار إلى حيث لا- تدرى أين بلغ بهما المسرى فى مجاهل الفلاة. [صفحه ۱۸۹] وفجأة، بغتتها لطمة فاحشة على خدها، من يد أبى جهل، طرحت قرطها. وانصرف بمن معه، يتهددون ويتوعدون. ومضت أيام وليال لم يكن لمكة فيها شاغل، غير تلك المطاردة العنيفة، تعدو فيها قريش وراء مهاجر أعزل إلا من إيمانه. وتضاربت الانباء فى الطريق التى أخذها -، حتى جاء الخبر من يثرب أن النبى عليه الصلاة والسلام بلغ دار هجرته آمنا. ووعت أذن الزمان ما لا نزال نردده فى كل عيد للهجرة، من هتاف المدينة ترحيبا بالمهاجر العظيم، وما وجد فى دار هجرته من مأمن ونصر.. وفى واقع التاريخ أن الهجرة لم تنه الجولة الفاصلة بين الاسلام والذين تصدوا له بالعداوة والكيد والحرب. وإنما كانت بداية لهذه الجولة الفاصلة، بقدر ما كانت أثرا لما سبقها من أحداث، وتحركا إلى موقع جديد، بعد جولة مريرة وطويلة، فى البلد العتيق. فإذا كان فى الناس من يتصورون أن منافذ الخطر قد سدت بمجرد انتقال المصطفى من دار مبعثه، وأن الاسلام صار بمأمن من كيد أعدائه بمجرد أن تلقاه الانصار فى دار هجرته، فالذى يعرفه الواقع التاريخى أن الصدام المسلح بين الاسلام والوثنية [صفحه ۱۹۰] القرشية لم يبدأ إلا بعد الهجرة، وبدأ معه فى الوقت نفسه، نضال شاق بالغ الصعوبة والحرج، مع عصابات يهود التى تصدت للاسلام بعد الهجرة، بكل ما تملك من أسلحة خبيثة مسمومة. والذى تعرفه السيرة النبوية، أن النبى والذين آمنوا معه من المهاجرين والانصار، واجهوا مع الهجرة مرحلة خطرة معقدة، كان عليهم فيها أن يخوضوا حربا فى أكثر من جبهة، وأن يستبسلوا فى الجهاد تحت لواء عقيدتهم من حيث يأتيها الخطر: من مواقع مكشوفة سافرة، وأخرى خفية ماكرة. والتحول التاريخى لموقع المعركة، لا يمكن فهمه على الوجه الشائع الذى يحسب أن الهجرة عزلت مكة عن مسرح الاحداث، بل تظل مكة فى صميم الصراع الدائر مهما ينتقل موقعه إلى شمال الحجاز. ويظل البيت العتيق مهوى أفئدة المهاجرين والانصار فى دار الهجرة، كما كان مثابة حج العرب من قديم العصور والآباد. وفى مكة كان مهد المصطفى ومبعثه. وفيها مستقر الوثنية العربية من قديم موغل فى القدم. ولم تكن الارستقراطية القرشية التى ورثت وظائف الشرف الدينية فى أم القرى وحققت بها نفوذها وسلطانها، مستعدة لان تتخلى عن نضالها للابقاء على الاوضاع الموروثة والاعراف الراسخة، والدفاع عن دين الاسلاف. [صفحه ۱۹۱] وما تجنبت الصدام المسلح مع الاسلام فى مكة، إلا رعاية لما للبلد العتيق من حرمة جعلته معبد القبائل العربية ومركز مواسمها التجارية. كان فى حسابها أن تواجه الخطر بالمفاوضة والمساومة، ثم بإلالحاح فى إيذاء المسلمين وتعذيب المستضعفين منهم، وتحذير كل وافد إلى مكة فى الموسم، من الاصغاء إلى ما يتلو محمد - صلى الله عليه وسلم - من كتاب الاسلام. ثم كان الحصار المنهك وسيلة أخرى من وسائلهم فى مقاومة الدعوة، والترصد لمن يحاول الهجرة من المسلمين، ومطاردتهم حيثما ذهبوا. حتى كان عام الحزن، إيذانا بحتمية التماس منفذ من الاسوار التى سدت الطريق. أحس المصطفى بموت زوجه السيدة خديجة وعمه أبى طالب، فراغ مكانهما فى دنياه، إحساسا شديد الوطأة، حتى لتقول إحدى الصحابيات (خولة بنت حكيم السلمية): (يا رسول الله، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة). وثقل عليه شعور بالغربة، فى بلده وبين أهله وعشيرته. لكن بيعة العقبة الكبرى هى

التى وجهت مؤشر الاحداث نحو يثرب. دون أن تنأى بمكة عن مكانها فى مركز الثقل لمصير التحول. احتشدت يثرب فى انتظار المهاجر العظيم الذى لم يكن هناك أدنى [صفحه ۱۹۲] شك فى وجهته، برغم ما ذاع من توغل المطاردين فى طريق مكة إلى يثرب، دون أن يظفروا بأثر منه. اليهود أرسلوا راصدهم يرقب مقدم النبى المهاجر، فأخذ مكانه على مشارف يثرب. وغير بعيد منه كان المهاجرون والانصار من أوس وخزرج، يخرجون كل صباح بعد الصلاة إلى ظاهر المدينة، فما يزالون ينتظرون حتى تغلبهم الشمس على الظلال فيعودوا إلى دورهم. واليهودى قائم هناك فى مرصده لا ـ يريم. وإذ هم يدخلون بيوتهم ذات يوم بعد أن لم يبق ظل، سمعوا اليهودى يصرخ بأعلى صوته: (يا بنى قيلة، هذا جدكم قد جاء). وسرت البشرى فى أنحاء دار الهجرة، فتعالى الهتاف من الاحياء العربية يشق أجواز الفضاء ترحيبا بالمهاجر العظيم. صرخة اليهودى المعلنة بأعلى الصوت، عن وصول المصطفى إلى دار هجرته، زلزلت الارض تحت يهود فى مستعمراتهم الناشبة فى شمال الحجاز: من حى بنى قينقاع فى قلب يثرب، إلى قريظة وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى. ورج صداها حصون الابلق والوطيح والسلالم وناعم والقموص، وعشرات غيرها من الحصون المنيعة والآطام العازلة التى (أقاموها على [صفحه ۱۹۳] رءوس الجبال والقلاع ليتحصنوا بها وقت الخطر [۵۱] وبدأ من اليوم الاول للهجرة، تأهبهم لدورهم الخبيث فى مقاومة الاسلام. وقبل أن نمضى مع المصطفى عليه الصلاة والسلام فى دار هجرته، نقف عند نقطة التحول لنتدبر منطقه ونلمح أبعاده، دون إيغال فيها. لم تكن الهجرة الاولى إلى الحبشة، ضنا بحياة ذلك الرهط من المسلمين الاولين، وإنما كانت هجرة فى سبيل العقيدة بذلا واحتمالا، وسلاحا شهروه فى وجه الوثنية الغاشمة، لتدرك مدى ما يطيق المؤمنون احتماله من التضحية والبذل فى سبيل ما آمنوا به. أما الهجرة التاريخية إلى يثرب، فلم تكن بذلا واحتمالا فحسب، بل كانت كذلك تحركا إلى موقع خطير على حافة الحرب، فقد أذن الله فى القتال للمسلمين الذين أوذوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله. وكان الاذن بالقتال، من حيث لم تتوقع قريش أو تحتسب. وقد مضى على المبعث أكثر من عشر سنين ونبى الاسلام يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويواجه جبروت الوثنية بكلمات من وحى ربه، كانت على المدى الطويل سلاحه الذى يشهره فى وجه الوثنية. [صفحه ۱۹۴] وقد أمنت قريش جانب المسلمين فيما تحرص عليه من تجنب الحرب فى البلد الحرام. فلم يخطر لها على بال، أن نبى الاسلام يمكن أن يخوض بالقلة العزلاء من صحابته، معركة حربية مع الوثنية المعتزة بما لها من سلطان، ودونها قوة باطشة من العدد والسلاح. من هنا أنكر سمعهم آيات الاذن للمسلمين فى القتال، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون: أو يريد محمد أن يفرض عقيدته بالسيف ؟ كأنه لم يتل من قبل، من كلمات ربه: (لكم دينكم ولى دين). (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا، إن عليك إلا البلاغ). (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ؟ وفى أخذة المباغتة، فاتهم أن يدركوا مغزى الاذن للمسلمين فى القتال: دفاعا عن دينهم، وتقريرا لمبدإ الاسلام فى حرية العقيدة. وانتصارا للذين أوذوا وأخرجوا من ديارهم بغير حق (إلا أن يقولوا ربنا الله). وإلزاما بتكليف الجهاد فى سبيل الحق والخير، فى مواجهة الحشد الكاثر والقوى الباغية: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير - الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا إن يقولوا ربنا الله ولولا [صفحه ۱۹۵] دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز - الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور - وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود - وقوم ابرهيم وقوم لوط - وأصحاب مدين وكذب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير - فكأين من قرية أهلكناها وهى ظالمة فهى خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد - أفلم يسيروا فى الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور. (صدق الله العظيم) وهذه هى الجبهة الاولى التى كان على الاسلام أن يخوض معركته معها إثر الهجرة. ضد الوثنية القرشية الباغية التى وعت منطق الهجرة أتم الوعى، فانكفأت بعد خيبة المطاردة الشرسة، تعبئ قواها استعدادا للصدام. دون أن يتصور أحد من الفريقين أن الهجرة كانت نهاية مريحة للجولة المكية التى استغرقت ثلاث عشرة سنة، أجهدت المسلمين أذى وفتنة واضطهادا ومقاطعة وحصارا، بقدر ما أجهدت

قريشا وأرقت لياليها واستنفدت كل ما لديها من وسائل. وهل كانت قريش بحيث تغمض عينها وتنام، وقد أعجزها، [صفحه ۱۹۶] بكل عتوها وجبروتها أن تنال من دعوة أذلت كبرياءها وسفهت أحلامها وحقرت آلهتها ؟. أو كانت بحيث تأمن على وجودها الجاهلى ودينها الموروث، وهذا النبى المهاجر قد أخذ موقعه الجديد فى عاصمة الشمال، يهدد طريقها التجارية إلى الشام، مصمما على أن ينسخ برسالته دين قومه ويدك صروح وثنيتهم، ومعه رجال مؤمنون قد باعوا الدنيا بالآخرة، فهم يرون الموت فى سبيل عقيدتهم شهادة وحياة وانتصارا ؟ هيهات هيهات. ولو ترك القطا ليلا لنام ! على أن هذه الجبهة لم تكن أخطر ولا أضرى من جبهة ثانية كانت تنتظر الاسلام فى دار هجرته. يهود كانوا هناك، يرصدون مجرى الاحداث فى ذعر وقلق: لقد لبثوا طوال العهد المكى يتعلقون بالامل فى أن ينهك الصراع أهل مكة، مسلمين ومشركين، فيخلو ليهود الطريق إلى أم القرى، وفيها أسواق العرب التجارية الكبرى: عكاظ ومجنة وذو المجاز. لكن بيعة العقبة الكبرى خيبت هذا الرجاء، كما خيبت الهجرة أملهم فى أن يبقى الاسلام محصورا فى البلد العتيق، بعيدا عن شمال الحجاز. ولم يبق لهم إلا أن يتربصوا بالاسلام ويكيدوا له، بكل ما وسعهم من خبث وشر ودهاء. [صفحه ۱۹۷] ثم كانت هناك جبهة ثالثة من المنافقين الذين ابتلى بهم الاسلام فى دار هجرته، ولقى المصطفى صلى الله عليه وسلم من عنتهم ونفاقهم وتخاذلهم، أشد مما لقى من طواغيت المشركين. وكان رأس المنافقين فى المدينة: عبدالله بن أبى بن سلول، مولى يهود وحليف الشيطان. ذلك هو منطق الهجرة: بذلا واحتمالا واستبسالا، وتحركا إلى موقع جديد خاض فيه المسلمون معركتهم فى الجبهات الثلاث، جهادا بالنفس والمال، حتى جاء نصر الله والفتح. استحدثت (يثرب) بهجرة المصطفى إليها، اسما إسلاميا جديدا هو (المدينة المنورة): مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام. وكان وصوله إليها قبيل الظهر من يوم الاثنين، وقد مضت اثنتا عشرة ليلة من ربيع الاول، فى السنة الثالثة عشرة للمبعث. وأقام فى (قباء) بظاهر المدينة، فى بنى عمرو بن عوف، أيام الاثنين والثلاثاء والاربعاء والخميس، أسس فيها بقباء أول مسجد فى الاسلام. ثم ركب ناقته (القصواء) يوم الجمعة، وسط حشد من المهاجرين والانصار، فأدركته صلاة الجمعة فى حى بنى عوف بن سالم، فصلى بالصحابة أول جمعة بالمدينة المنورة. وأرخى العنان لناقته وهى تشق أمواج الزحام، ولم يدر أحد يومها أين يكون منزل المصطفى، وكل بيوت المدينة مفتوحة له ترحب به، [صفحه ۱۹۸] وإن لم يكن له صلى الله عليه وسلم دار هناك. وبدا الموقف صعبا: كلما مر عليه الصلاة والسلام بحى من أحياء الانصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزول فيهم، وهو عليه الصلاة والسلام يتحرج من إيثار حى على آخر أو دار على دار، فيقول معتذرا شاكرا: (خلوا سبيل ناقتى). حتى إذا مر بحى بنى عدى بن النجار، توقعوا أن يكون لهم من خئولتهم لابيه عبدالله بن عبدالمطلب، حق الحظوة بالشرف الذى رنت إليه كل بيوت الانصار. هتفوا: (يا رسول الله، هلم إلى أخوالك، إلى العدد والعدة والمنعة). وتلبث عليه الصلاة والسلام برهة يملا عينيه من هذا الحى، ويسترجع ذكريات رحلته الاولى إلى يثرب، حين جاءت به أمه (آمنة بنت وهب) من مكة وهو فى السادسة من عمره، لتزيره قبر أبيه الثاوى هناك. وتخطى بصره الجموع الزاخرة التى حفت بركابه، وتعلق بطيف أمه، ماثلا- شاخصا لا- يغيب. ومع الذكريات، طوى سبعة وأربعين عاما من عمره، ليجد نفسه غلاما غض الصبا، يعود مع أمه فى رحلة الاياب إلى أم القرى، ومعهما (بركة أم أيمن) فما قطعوا بعض مراحل الطريق حتى وعكت أمه، ثم أسلمت الروح بين يديه فى بقعة موحشة من الفلاة، بين يثرب ومكة. [صفحه ۱۹۹] وحملت (بركة) جثمان (آمنة) إلى قرية الابواء فدفنوها هناك. واستأنف الرحلة إلى مكة واجما صامتا محزونا مضاعف اليتم. ومن وراء نحو نصف قرن، أتاه صدى من حشرجة الاحتضار التى روعته فى الفلاة، مختلطة بهتاف الترحيب وأناشيد الاستقبال. وبنو النجار يكررون دعوته: (هلم إلى أخوالك.). قال وما يزال يملا عينيه من ساحة الحى التى كانت ملعب حداثته أياما، مع لداته من صبية بنى النجار: (خلوا سبيل ناقتى). إلى أين إذن ؟ إلى حيث تمضى به ناقته القصواء. وقد خطت وئيدا تشق الزحام حتى توقفت غير بعيد، وبركت فى مربد هناك لسهل وسهيل، ابنى عمرو. فحط المهاجر رحله، وقام يصلى. على ساحة المربد الذى بركت فيه (القصواء) حين دخل المصطفى دار هجرته، أمر عليه الصلاة والسلام أن يبنى هناك مسجده، ثانى الحرمين ومزار المسلمين على مر السنين والدهور. وتنافس المهاجرون والانصار فى بنائه بما تيسر من مواد البناء: [صفحه ۲۰۰] اللبن والجريد والليف، وبعض

الحجارة والخشب. والمصطفى معهم، يشارك ويوجه ويعين. وقد يمد يده فينفض الغبار عن لحى بعض صحابته، داعيا للمهاجرين منهم والانصار فيرددون دعاءه مرتجزين: لا ـ عيش إلا ـ عيش الآـخره اللهم ارحم الانصار والمهاجره ولم يستغرق البناء أكثر من أيام معدودات. ومن حول المسجد بنيت تسع حجرات تفتح على ساحته، لتكون دار المصطفى المهاجر. وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطا متواضعا: بعضه من حجارة مرصوصة، وبعضه من جريد يمسكه الطين. والسقف كله من جريد. ذكره سبط المصطفى عليه الصلاة والسلام: (الحسن بن على بن أبى طالب) فقال: (كنت أدخل بيوت النبى صلى الله عليه وسلم وأنا غلام مراهق، فأنال السقف بيدى). وشدت خشبات بالليف، فكانت سريرا لمن اصطفاه الله تعالى خاتما لرسل الانبياء. وغير بعيد من المدينة والحجاز، كانت قصور الحكام والامراء والاغنياء، فى الحيرة وغسان واليمن، وفى فارس ومصر والحبشة، تعلو سامقة شامخة، ساطعة ببريق البذخ والترف، فتخطف أبصار [صفحه ۲۰۱] الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذى لم يلبث سنا جلاله أن كسف كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون، أو نجاشى وملك وامبراطور. وفى الاحياء اليهودية الناشبة فى المدينة وما حولها من مستعمراتهم شمالى الحجاز، دور مشيدة وحصون منيعة، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبى الاسلام، فيبدو لها فقيرا أشد الفقر. ويلتقط أهلها ما يتلو المصطفى من كلمات ربه فى الحث على الانفاق فى سبيل الخير، قرضا لله تعالى، فتذيع قالتهم الفاحشة: (إن الله فقير ونحن أغنياء) ! فى تلك الايام الاولى بدار الهجرة، نزل المصطفى صلى الله عليه وسلم بدار صاحبه (أبى أيوب الانصارى) ريثما تم بناء المسجد والحجرات حوله. أما صحابته المهاجرون، فنزلوا على الانصار من الاوس والخزرج، وقد آخى الرسول بينهم. واختار صلى الله عليه وسلم ابن عمه (على بن أبى طالب) فجعله أخاه. وهكذا ذهب كل أنصارى بأخ له من المهاجرين، وذهب على بن أبى طالب بالمصطفى أخا. وأغلقت دور المهاجرين بمكة. وتركت مهجورة موحشة خلاء. [صفحه ۲۰۲] بعد أن تم بناء بيت المصطفى فى دار هجرته، بدت الحاجة إلى زوج تملا ـ هذا البيت، وتهيئ للمصطفى سكنا وراحة، فيما يواجه من أعباء الرسالة فى مرحلتها الحرجة الصعبة. وكانت (عائشة بنت أبى بكر) قد لحقت بأبيها فى المدينة مهاجرة. وقبل الهجرة بثلاث سنين، كان المصطفى قد عقد عليها بمكة، ثم تمهل لم ينقلها إلى بيته هناك، إذ كانت ظروفهما كليهما، لا تعين على التعجيل بإتمام الزواج. وقد سبقتها إلى بيت المصطفى فى المدينة، أم المؤمنين (سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس) التى مات عنها زوجها (السكران ابن عمرو) إثر عودتهما من هجرة الحبشة، فأشفق عليها المصطفى، وتزوجها ليحمل عبئها الذى لقيت من غربة وترمل. [۵۲] وقنعت (سودة) بحظها من زوجها المصطفى: بر ورحمة، لا حب وتآلف وسكن. وأرضاها كل الرضى أن يشرفها النبى عليه الصلاة والسلام فيدخلها بيته أما للمؤمنين. وبقيت حياة محمد – عليه الصلاة والسلام – فى بيته، تقتات من ذكريات الزوج الحبيبة الراحلة (خديجة بنت خويلد) التى أوحشت دنياه منذ رحيلها، فى عام الحزن، بعد أنس عشرة هنيئة امتدت خمسا [صفحه ۲۰۳] وعشرين سنة، لم تشاركها فيها زوج أخرى فى بيت زوجها، أو فى قلبه ودنياه. وتهيأ مجتمع المدينة ليزف إلى محمد صلى الله عليه وسلم، عروسه الصبية المليحة الذكية (عائشة بنت أبى بكر) وتعلق بها الامل أن تملا فى بيته وقلبه، ذلك الفراغ الموحش الذى تركته أم المؤمنين الاولى. وتم حفل العرس بسيطا غاية البساطة. مضى محمد صلى الله عليه وسلم، إلى منزل صهره الصديق، فجاءت (أم رومان: زوج أبى بكر) بابنتها العروس بعد أن سوت شعرها وغسلت وجهها وطيبتها، وقدمتها إلى زوجها المصطفى وهى تدعو الله أن يبارك له فيها ويبارك لها فيه. ولم تنحر جزور ولا ذبحت شاة، بل كان طعام العرس جفنة من طعام، هدية من (سعد بن عبادة الخزرجى الانصارى) وقدحا من لبن، شرب المصطفى بعضه ثم قدمه إلى عروسه فشربت منه. ونقلها إلى بيتها الجديد، وما كان هذا البيت سوى حجرة من الحجرات البسيطة التى شيدت حول المسجد النبوى من اللبن والجريد. وأثاثه فراش من أدم حشوه ليف، ليس بينه وبين الارض إلا الحصير. وفى مدخل الحجرة، أسدل على فتحة الباب ستار من وبر وشعر. وفى هذا البيت البسيط المتواضع، بدأت (عائشة) حياتها الزوجية الحافلة، وشغلت مكانها المرموق فى حياة الرسول والاسلام. ولم يكن وجود (سودة) على مقربة منها، فى بيت الزوج الذى أحبته عائشة بقلبها البكر ووجد انها المرهف وعاطفتها المتوهجة، يشغل [صفحه ۲۰۴] بالها فى كثير أو قليل. فما غاب عنها أن ليس لسودة فى قلب زوجها مكان ! وإنما

الـذی کـان یشغل عائشـة، هو ذلک الحب العمیق الـذی حظیت به (خدیجة) قبلها من الزوج المصـطفی، وتلک الـذکری الحیـة لمن استأثرت بکـل عواطفه ربع قرن من الزمـان. والزوج الحبیب یروض عائشـة علی أن ترضـی منه بحظوتهـا لـدیه، ومنزلتهـا فی قلبه وفی حیـاته. هل کانت (عائشـة) طفلـة، کما یحلو لبعض المستشـرقین أن ینعتوها، وهم یقیسون نضـج المرأة فی المجتمع العربی منـد أربعة عشـر قرنا، بمقاییس المجتمع الغربی فی عصـرنا ؟ الذی یعرفه تاریخنا، هو أن عائشة فی صـباها الغض وأنوثتها الذکیة، بدأت من الیوم الاـول لحیاتهـا الزوجیـة، تحقق وجودهـا فی بیتهـا الجدیـد وتعی دورهـا الفـذ فی حیاة زوجها الرسول علیه الصـلاة والسـلام، وتفرض شخصـیتها علی المجتمع المدنی، ثم علی التاریخ الاسـلامی الذی عرف لها أعمق الاثر فی الحیاة الفقهیة والسیاسـیة والاجتماعیة للامة الاسـلامیة. هل نسـی المهاجرون وطنهم الاول فی البلد العتیق، مهد مولدهم ومغنی صـباهم ومثوی آبائهم من قدیم الزمان ؟ [صـفحه ۲۰۵] هـل انقطع مـا بینهم وبین أم القری، وطووا مـا کـان لهم فیها من ذکریات ؟ کلا ! بل بقیت مکـة مهوی أفئـدتهم کما هی مهوی أفئدة الانصار وسائر العرب. وما کان الفراق سـهلا، ولا کان فی المهاجرین من ودعها إلا وقلبه مثقل بالشـجن. وکأنما کان المصـطفی صلی الله علیه وسـلم یعبر عما یجـدون، حین وقف ساعـة خروجه للهجرة یسـتوعب مکة بنظرة حزینة ویقول مودعا: (والله إنک لاحب أرض الله إلی الله، وإنـک أحب أرض الله الی، ولولاـ أن أهلـک أخرجونی منک ما خرجت). ورغم ما حفلت به الایام الاولی فی دار الهجرة، من مراسم الترحیب والاخاء وشواغل التنظیم للمجتمع الاسـلامی الجدید، کانت وطأة الحنین ترهق أکثرهم فترهف حساسیتهم لتغیر الجو ! وألم بکثیر منهم سقم وأجهدتهم الحمی. وفی هذیان الحمی کان المطوی من أشواقهم ومکبوت حنینهم، یتنفس مفلتا من أعماق أفئـدتهم، إلی ألسـنتهم. تتحـدث أم المؤمنین (عائشـة بنت أبی بکر) عن أول عهـدهم بالمدینة فتقول: (کان أبو بکر وعامر بن فهیرة وبلال، فی بیت واحد. فأصابتهم الحمی فدخلت علیهم أعودهم، وذلک قبل أن یضرب [صفحه ۲۰۶] علینا الحجاب، وبهم ما لا یعلمه إلاـ الله من شـدة الوعـک. فـدنوت من أبی فقلت له: - کیف تجـدک یـا أبت ؟ فرد مرتجزا: کل امرئ مصـبح فی أهله والموت أدنی من شـراک نعله فقلت: والله ما یـدری أبی ما یقول. ثم دنوت إلی عامر بن فهیرة فقلت له: - کیف تجـدک یا عامر ؟ فرد منشدا: لقـد وجـدت الموت قبل ذوقه إن الجبان حتفه من فوقه قلت: والله ما یدری عامر ما یقول. وکان بلال إذا ترکته الحمی، اضـطجع بفناء البیت ثم رفع عقیرته، یـذکر مکـة وربوعهـا: ألا لیت شـعری هل أبیتن لیلـة - بفـخ وحولی إذخر وجلیل وهل أردن یوما میاه مجنـة - وهـل تبـدون لی شامـة وطفیل فـذکرت لرسول الله صـلی الله علیه وسـلم ما سـمعت منهم فقلت: - إنهم لیهـذون وما یعقلون من شـدة الحمی. [صـفحه ۲۰۷] فقال صـلی الله علیه وسـلم: - اللهم حبب إلینا المدینـة کما حببت إلینا مکـة أو أشد) [۵۳] ویح المشرکین من أهل مکة، ضـلوا وظلموا، واشتطوا فی عتوهم وعنادهم وبغیهم، وأسرفوا علی من أسلموا منهم. وبقیت مکة مهوی الافئدة: لم یسل عنها من هاجروا منها بدینهم، ولم یغض من شأنها عتو الوثنیة الطاغیة. وإن مکة لمهد النبوة ودار المبعث، ومثابة حج العرب من عهد ابرهیم واسماعیل. [صفحه ۲۰۸]

ابعاد الموقف فی میدان الصراع

(لتبلون فی أموالکم وأنفسـکم ولتسـمعن من الـذین أوتوا الکتـاب من قبلکم ومن الـذین أشـرکوا أذی کثیرا، وإن تصبروا وتتقوا فـإن ذلک من عزم الامور). (صـدق الله العظیم) فی حساب التاریـخ أن المواجهـة الاولی بین الاسـلام والوثنیـة فی مکـة، تختلف تماما عما یـواجهه فی المدینـة مـن معرکـة معقـدة بینـه وبین أعـدائه، فی میـدان ذی جبهـات ثلاـث، یلقی فیه حشـود قریش فی صـدام مسلح، وعصابات یهود فی أوکارهم الخطرة، وجیوب المنافقین الـذین حالفوا الشـیطان. [صـفحه ۲۰۹] وتتـداخل هذه الجبهات زمانا ومکانا، فیزداد الموقف تعقیدا وصعوبة وحرجا، من حیث لا یستطیع المؤمنون أن یتفرغوا للجهاد فی إحدی الجبهات ثم ینتقلوا إلی أخری منها فیکون الامر علیهم أخف عبئا وأیسـر مشقة. وکذلک یشق علینا، فیما نحاول من متابعة المسیر مع المصطفی فی دار هجرته، أن نمضی مع الاحـداث من موقع إلی اخر فی میـدان المعرکـة الکبری المعقـدة، بمعزل عن غیره من المواقع. ویمکن القول مع ذلک، إن الجبهة

اليهودية بدأت تشحذ أسلحتها المسمومة لحرب الاسلام، من أول يوم للهجرة. بينما تأخر الصدام المسلح مع الوثنية القرشية، ريثما يتحدد مجاله ما بين مكة والمدينة، ويتم التأهب له والاحتشاد، فلم يبدأ إلا فى السنة الثانية للهجرة. وكذلك تأخر ظهور الجيوب الخطرة للمنافقين، ريثما سرى فيها سم الشيطان بطيئا خفيا لم يكد يلحظ إلا بعد أن ضرى واستشرى، يهدد الوجود الاسلامى فى أحرج المواقف. ذلك كله مما كان يدخل فى حساب التاريخ، حين بدا ظاهر الامر أن مكة وحدها هى مركز الخطر على الاسلام، وأن له فى يثرب مأمنا من كل خطر. فلنمض مع الاحداث إلى حيث نرقب منطق الحرب فى الجبهة اليهودية التى لم تطق الصبر على الاسلام منذ تحول إلى دار الهجرة، [صفحه ۲۱۰] بل أخذت زمام المبادرة إلى الكيد له، من اليوم الاول. وقد اقتضت طبيعة الجبهة، أن يأخذ الصراع فيها جولتين. أولاهما إثر الهجرة، بكل سلاح يهودى إلا الحرب والقتال. والاخرى بعد بدر وأحد والخندق، حيث فرض الوضع المواجهة بالسيف فى حرب معلنة. ومن الجولة الاولى، ينكشف موضع جديد للخطر، لافتا إلى موقع فى الميدان لم يكن له حساب فى العهد المكى قبل الهجرة. لم يكن قد مضى على المصطفى فى دار هجرته يوم وبعض يوم، حين انكمش يهود فى دورهم ومجامعهم يرصدون أبعاد الموقف الطارئ، ويحسبون ألف حساب لما وراءه من تهديد لوجودهم المغتصب هناك. أقرب الخطر أن ألف بين قلوب عرب المدينة من أوس وخزرج، وأطفأ ما أوقد يهود بينها من نار العداوة والبغضاء. ووراءه أن ينير الاسلام بصائر العرب الاميين ويعلمهم الكتاب والحكمة، فينكشف لهم ما عق يهود من الدين الموسوى وحرفوا من التوراة، وقتلوا من أنبياء، واقترفوا من جرائم وحشية أرقت البشرية على اختلاف الاجناس والازمان. من أول يوم للهجرة، بدأ قلقهم وكيدهم. وفى بيت زعيمهم (حيى بن أخطب) كانت العصابة فى شغل شاغل [صفحه ۲۱۱] بهذا المهاجر الذى صرخ راصدهم معلنا عن قدومه، فاحتشد عرب يثرب لاستقباله. وبدا لابن أخطب أن يتسلل هو وأخوه (أبو ياسر) فى غلس الفجر، ليتحققا من شخصية هذا النبى العربى ويستوثقا من أمره فى ضوء ما أعطت التوراة من ملامح النبوة. وكانت (صفية بنت حيى) هناك، صبية مدللة ما تزال فى بيت أبيها، لم تر النبى العربى بعد. قالت بعد أن أسلمت ودخلت بيت المصطفى، تسترجع ذكرياتها عن يوم الهجرة. (كنت أحب ولد أبى إليه والى عمى أبى ياسر، لم ألقهما قط مع ولدهما إلا أخذانى دونه. فلما قدم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المدينة، غدا عليه أبى وعمى مغلسين بين الفجر والصبح، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. فأتيا متعبين ساقطين يمشيان الهوينى، فهششت إليهما كما كنت إصنع، فوالله ما التفت واحد منهما الى، مع ما بهما من الغم. وسمعت عمى أبا ياسر، وهو يقول لابى: - أهو هو ؟ قال: نعم، إنه هو. سأله عمى: أتعرفه وتثبته ؟ قال: نعم أعرفه. [صفحه ۲۱۲] وسأل عمى: فما فى نفسك منه ؟ ورد أبى: عداوته ما بقيت) [۵۴] وكأنما كانت كلمته، أول يوم للهجرة، إيذانا بفتح جبهة جديدة، أخطر وأضرى من الجبهة المكشوفة مع المشركين من قريش. كان هم يهود، أن يوادعهم الاسلام ريثما يفيقون من صدمة الهجرة، ويتدبرون وسيلة الخلاص من هذا الدين الذى لا يمكن أن يسالموه. وتعلق أملهم فى الموادعة، بأنهم فى ظاهر أمرهم أهل كتاب وأتباع نبى مرسل. والقرآن فيما سمعوا من آياته، يقرر أنه مصدق لما بين يديه من التوراة والانجيل، مقر بنبوة عيسى وموسى ويعقوب واسحاق وابرهيم وسائر الانبياء لا يفرق بين أحد منهم. وفى خبث ومسكنة، تقدموا يرحبون بالنبى المهاجر ويسألونه الموادعة والامان، وله عليهم أن يكونوا مع أهل المدينة ضد أى عدوان عليها من وثنيى مكة. وكان الضمان، ما ليهود فى المنطقة من مستعمرات غنية وتجارة رابحة وحصون مكدسة بالاموال، فهم أحرص الناس على سلام المدينة وأمن المنطقة. [صفحه ۲۱۳] وأعطاهم المصطفى عهده بالموادعة والامان على أموالهم وأنفسهم وحرية عقيدتهم، مسجلا فى كتابه إلى أهل المدينة إثر هجرته عليه الصلاة والسلام. ومما جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب - المهاجرين والانصار - ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، أنهم أمة واحدة. (وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه. وإن المؤمنين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين. وان المؤمنين أيديهم عليه جميعا ولو كان ولد أحدهم. ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ولا ينصر كافرا على مؤمن. (وإن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وان المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس. (وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والاسوة غير مظلومين ولا

متناصرين عليهم. وإن سلم المؤمنين واحدة، لا ـ يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا ـ على سواء وعدل بينهم.. (وإن المؤمنين المتقين على إحسن هدى وأقومه، وإنه لا يجير مشرك – من أهل المدينة وما حولها – مالا لقريش ولا نفسا، ولا يحول دونه على مؤمن. وإنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول. وان المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه. [صفحه ۲۱۴] (وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر، أن ينصر محدثا ولا يؤويه [۵۵] وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل. وإنكم مهما اختلفتم فيه من شئ فإن مرده إلى الله عزوجل، والى محمد صلى الله عليه وسلم. (وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ – يهلك – إلا نفسه وأهل بيته. وإن جفنة – بطن من بنى ثعلبة – كأنفسهم. وإن لبنى الشطيبة مثل ما ليهود بنى عوف، وإن البر دون الاـ ثم. وإن موالى ثعلبة كأنفسهم، وإن بطانة يهود كأنفسهم. (وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة. وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم. وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لاهل هذه الصحيفة، وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم. وإنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها. (وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف [صفحه ۲۱۵] فساده فإن مرده إلى الله عزوجل، والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. (وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره (وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها. (وإن بينهم النصر على من دهم يثرب. وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه. وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين، إلا من حارب فى الدين. على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم. (وإن يهود الاوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لاهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة. (وإن البر دون الاثم. لا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره. وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وآثم. وإنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم. وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) [۵۶] والصحيفة وثيقة تاريخية شاهدة على استجابة نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم لما طلب يهود من موادعة وأمان وحلف وجوار، وعلى احترام الاسلام حريتهم فى العقيدة، لهم دينهم وللمسلمين دينهم، وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم ومواليهم وبطانتهم، إلا أن يأثموا ويظلموا، ويخونوا العهد فيظاهروا عدوا على أهل المدينة من المهاجرين والانصار. [صفحه ۲۱۶] بقدر ما هى شاهدة على أبعاد الجبهة اليهودية، ومدى تغلغلهم فى يثرب. ولم تذكر مع ذلك غير البطون الناشبة فى أحياء العرب هناك، والمعدودة من مواليها. دون تعرض للمستعمرات اليهودية فى خيبر وبنى النضير وبنى قريظة، وتيماء وفدك ووادى القرى. بل لم تذكر كذلك الاحياء الخاصة بهم فى صميم المدينة، مثل حى بنى قينقاع. فلنتابع الاحداث. المدينة التى فتحت قلبها للمهاجر العظيم وبايعته على الاسلام والنصرة والبذل، كانت تتوجس الشر من عصابات يهود التى مزقت الوجود العربى هناك قبل الاسلام. وبنو قيلة، الاوس والخزرج، الذين فتحوا دورهم لاخوانهم المهاجرين من مكة، كانوا فى ضيق بنفر من أشراف المدينة، ترددوا فى الترحيب بهذه الهجرة التى غيرت الاوضاع وحولت مجرى الاحداث. ثم تابعوا قومهم على الاسلام، بعد تردد وارتياب دون أن يدخل الايمان فى قلوبهم عقيدة ودينا. وعلى رأس المنافقين عبدالله بن أبى بن سلول الخزرجى، حليف اليهود من يوم بعاث. لقد افتدى نفسه وماله بدفع رهائن اليهود إليهم، حين هجموا بعد انتصار الاوس، على دور الخزرج يذبحون وينهبون. [صفحه ۲۱۷] ومن يومها صار حليفهم الذى يدين لهم بحياته، ويجدون فيه عميلا يسخرونه فى قضاء مأربهم، حتى فكروا فى أن يتوجوه ملكا على يثرب، وعكف بعض صناعهم فى حى الصاغة اليهودى، على إعداد تاج لهذا الموالى الحليف. وجاءت الهجرة فبددت أمله وأملهم، وشحنت نفسه حسرة على تاجه المسلوب. ذات صباح، من الايام الاولى للهجرة، ركب المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى بيت صاحبه (سعد بن عبادة الخزرجى الانصارى) يعوده من مرض ألم به. وفى طريقه إلى بيت سعد، مر بعبد الله بن أبى، فى مجلس له وحوله رجال من أهله. فكره عليه الصلاة والسلام أن يجاوز المجلس دون أن ينزل. فنزل وسلم على القوم، ثم جلس قليلا فتلا آيات من القرآن الكريم،

وذكر بالله وحذر، وبشر وأنذر. وابن أبى بن سلول، صامت واجم. حتى إذا فرغ المصطفى مما أراد أن يقول، بادره (ابن أبى) قائلا فى جفوة وغلظة: - يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقا. فاجلس فى بيتك فمن جاءك فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغشه فى مجلسه بما يكره منه ! [صفحه ۲۱۸] ولم يدعه الانصار يتم قولته المنكرة الفاحشة. وانتفض الشاعر الخزرجى الانصارى (عبدالله بن رواحة) يعقب على كلام ابن أبى، متحديا: - بلى يا رسول الله، فاغشنا بحديثك وائتنا فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله مما نحب، ومما أكرمنا الله به وهدانا له. وغض ابن أبى بن سلول من بصره وهو يتمثل بقول (خفاف بن ندبة السلمى): متى ما يكن مولاك خصمك لا ـ تزل - تذل ويصرعك الذين تصارع وهل ينهض البازى بغير جناحه - وإن جذ يوما ريشه فهو واقع وقام المصطفى فتابع سيره حتى دخل على صاحبه (سعد بن عبادة) وفى وجهه - صلى الله عليه وسلم - ملامح ضيق لما سمع من ابن أبى بن سلول، عدو الله. سأل سعد: (والله يا رسول إنى لارى فى وجهك شيئا، لكأنك سمعت شيئا تكرهه). فأخبره صلى الله عليه وسلم بما كان. وقال سعد: (يا رسول الله، ارفق به فوالله لقد جاءنا الله بك وإنا لننظم الخرز [صفحه ۲۱۹] لنتوجه، فوالله إنه ليرى أن قد سلبته ملكا) [۵۷] لم يكد اليهود يطمئنون إلى موادعة نبى الاسلام إياهم، حتى عادوا إلى أوكارهم يدبرون لحرب الاسلام فى معركة غير مكشوفة، يتقون بها المواجهة المعلنة. وكان أقسى ما غاظهم من هذا الاسلام، أن أطفأ نار العداوة والبغضاء بين عرب المدينة، الاوس والخزرج، بعد أن سهرت أجيال من السلالة اليهودية على إلهابها بوقود من الدس والفتنة والتواطؤ. فهل يمكن إيقاظ الفتنة بين الاوس والخزرج، وإهاجة الشر بينهم بعد أن حسمه الاسلام ونسخ ثارات لهم وأحقادا تراكمت على مدى خمسة قرون قبل المبعث ؟ لا بأس من المحاولة، على أن تبدو حادثا فرديا عارضا، لا يحمل اليهود إثمه. نقل ابن إسحاق والطبرى، فيما نقلا من أحداث السنة الاولى للهجرة: (مر شاس بن قيس - وكان شيخا عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الاوس والخزرج، فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الاسلام، [صفحه ۲۲۰] بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية. فقال، يحدث نفسه أو قومه: - قد اجتمع ملا بنى قيلة بهذه البلاد، وما لنا إذا اجتمع أمرهم من قرار ! ثم أمر فتى شابا من يهود كان معه، فقال: - اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بعاث وما كان قبله من حروب بينهم، وأنشدهم بعض ما تقاولوا فيه من أشعار). ففعل الشاب اليهودى ما أمره به شيخه، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا، حتى تواثب رجلان من الحيين وقال أحدهما لصاحبه: - إن شئتم رددناها الآن جذعة. فغضب الفريقان جميعا وصاحوا: - قد فعلنا. وتواعدوا على أن يلتقوا فى يومهم ذاك. بموضع (الحرة) واندفعوا فى دروب المدينة يتداعون إلى الحرب وهم يتصايحون: السلاح السلاح. وجمت دار الهجرة وهى تسمع صيحة الحرب. وجاء المصطفى فى جمع من صحابته، فأدرك القوم فى (الحرة) وقد هموا بقتال. فقال عليه الصلاة والسلام: (يا معشر المسلمين، الله الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، [صفحه ۲۲۱] بعد أن هداكم الله للاسلام وقطع عنكم أمر الجاهلية واستنقذكم به من الكفر، وألف بين قلوبكم) ؟ ونفذ صوت المصطفى من مسامعهم إلى أفئدتهم وضمائرهم وعقولهم، (وعرفوا أنها مكيدة عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الاوس والخزرج بعضهم بعضا). وبطل سم هذه الفتنة، وخاب كيد يهود. والمصطفى يتلو من آيات (آل عمران) ثانية السور التى نزلت بالمدينة بعد الهجرة: (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون - قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون - يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين - وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم ايات الله وفيكم رسوله، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون - واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون - ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون - [صفحه ۲۲۲] ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم -) صدق الله العظيم وخشع المؤمنون لآيات ربهم، وانكمشت العصابة

الملعونة تفتش فى جعبتها عن سهام أخرى يمكن أن تصيب من حيث ارتد سهم الفتنة هذه المرة إلى صدورهم، يؤجج ما انطوت عليه من ضغينة وغدر وحقد. على أن تبدو المكيدة حادثا فرديا عارضا، لا يحمل اليهود كلهم إثمه.. فى أوكار يهود الناشبة فى دار الهجرة وما حولها، تمت تعبئة الاحبار ليكيدوا للاسلام كيدا، دون أن يواجهوه بحرب معلنة: يتظاهر نفر منهم بالاسلام، ثم يندسون بين الصحابة فى صميم المجتمع الاسلامى بالمدينة، ليبذروا بذور الشر التى تؤتى ثمرها الخبيث على المدى الطويل، ويشربوا ضعاف النفوس من بنى قيلة سم النفاق، واثقين من نتيجته وإن يكن بطئ الاثر. وآخرون منهم يتصدون لمجادلة نبى الاسلام، التماسا للعلم فى ظاهر الامر، وقصدا إلى إحراجه، صلى الله عليه وسلم، وإعناته ! [صفحه ٢٢٣] جاءه نفر منهم، وهو صلى الله عليه وسلم فى مجلسه مع صحابته، فقالوا: [٥٨] - يا محمد، أخبرنا عن أربع نسألك عنهن، فإن فعلت ذلك اتبعناك وصدقناك. سألهم عليه الصلاة والسلام: ما هى ؟ قال كبير منهم: - أخبرنا كيف يشبه الولد أمه وإنما النطفة من الرجل ؟ - وأخبرنا كيف نومك ؟ - وماذا حرم اسرائيل على نفسه ؟ وأخبرنا عن الروح. - وجاءه (أبوصلوبا الفيطونى) فقال: - يا محمد، ما جئتنا بشئ نعرفه - من دلائل النبوة - ما أنزل الله عليك من آية فنتبعك لها. وعقب (ابن حريملة) فاقترح على المصطفى مثل ما اقترحه عليه الوثنيون من قريش. قال: - يا محمد، إن كنت رسولا ـ من الله كما تقول، فقل له فليكلمنا حتى نسمع كلامه. وأضاف آخر مقترحا: - يا محمد، ائتنا بكتاب تنزله علينا السماء نقرؤه، وإلا جئناك بمثل ما أتيتنا به ! [صفحه ٢٢٤] تلا المصطفى من وحى ربه: (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم، تشابهت قلوبهم، قد بينا الآيات لقوم يوقنون). وجاءه (جبل بن أبى قشيرة، وشمويل بن زيد) فقالا: - يا محمد، أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول. ولم يجب الرسول عليه الصلاة والسلام بغير ما نزل عليه من كلمات ربه: (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت فى السموات والارض لا تأتيكم إلا بغتة، يسألونك كأنك حفى عنها، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون). وجاءه صلى الله عليه وسلم، جمع منهم، فيهم (ابن أبى عزير، وسلام بن مشكم، وابن أضاء فسألوا: - أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به لحق من عند الله، فإنا لا لا نراه متسقا كما تتسق التوراة ؟ وأضاف (فنحاص، وابن صوريا، وابن صلوبا، وشمويل بن زيد): - يا محمد، أما يعلمك هذا إنس ولا جن ؟ ورد عليه الصلاة والسلام: [صفحه ٢٢٥] (أما والله إنكم لتعرفون أنه الحق من عند الله.. ولو اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله، ما جاءوا به). وكرروا سؤالهم عن ذى القرنين وأهل الكهف، وكانوا قد اقترحوا على مشركى قريش أن يسألوه عن (خبر فتية كان لهم حديث عجب، وعن رجل طواف فى الارض ما شأنه ؟). وأجاب صلى الله عليه وسلم، بمثل ما أجاب به قريشا، مما تلقى من آيات سورة الكهف فى العهد المكى. وأتى رهط منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه معنتين: - يا محمد، هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله ؟ فغضب النبى عليه الصلاة والسلام حتى تغير لونه، وهم بهم يريد أن يبطش بهم غضبا لله سبحانه، لكنه تمالك غضبه وراح يتلو: (قل هو الله أحد - الله الصمد - لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد). وغرهم حلمه صلى الله عليه وسلم، فمضوا فى جدلهم الوقح: - فصف لنا يا محمد كيف خلقه - تعالى - ؟ كيف ذراعه وكيف عضده ؟ عندئذ اشتد غضب المصطفى وساورهم، ثم انصرف عنهم يائسا من جدوى مثل ذلك الجدل العقيم.. [صفحه ٢٢٦] لكنهم لم يكفوا عن جدلهم الخبيث، يبثون سمومه فى المجتمع المدنى آمنين من جانب نبى الاسلام، محتمين بعهده الموثق. حتى ضج الصحابة من شرهم ومكرهم، فمضوا يساورونهم ويزجرونهم، عساهم يرتدعون. دخل (أبو بكر الصديق) بيت المدارس الذى يجتمعون فيه إلى أحبارهم ويتدارسون فى أسفارهم، فوجد عصابة منهم قد اجتمعت إلى حبرين من رؤوسهم: (أشيع وفنحاص) فقال الصديق منذرا: (ويحك يا فنحاص اتق الله، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والانجيل) رد عدو الله، وقد ذكر ما يتلو المسلمون من آيات القرآن فى البر والرحمة، والبذل للخير قرضا حسنا يضاعفه الله لهم: (والله يا أبا بكر، ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ! وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا، وإنا عنه لاغنياء وما هو عنا بغنى ! ولو كان غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ! ينهاكم عن الربا ويعطيناه، ولو كان عنا غنيا ما أعطانا الربا) ! فلم يملك أبو بكر غضبه، ولطم وجه فنحاص وقال: (والذى نفسى بيده، لولا العهد الذى

بيننا وبينكم لضربت رأسك، أى عدو الله). وأسرع الخبيث إلى النبى صلى الله عليه وسلم يشكو إليه صاحبه الصديق أبا بكر، وينكر أن يكون قال شيئا مما أغضبه. [صفحه ۲۲۷] ونزلت كلمات الله، من سورة آل عمران: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا، وقتلهم الانبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق). ولجوا فى عنادهم ومكرهم، حتى اجترأوا فأنكروا أن يكونوا قد بشروا بقرب مبعث نبى ! ولم يسكت الانصار على هذا الانكار الجرئ، وطالما من عليهم يهود بأنهم أهل كتاب، وشغلوهم بالكلام عن نبى حان زمانه. وقد تصدى لهم من الانصار (معاذ بن جبل، وسعد بن عبادة، وعقبة بن وهب) قالوا: - يا معشر يهود، اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته). فرد منهم رافع بن حريملة، ووهب بن يهوذا: - ما قلنا لكم هذا قط، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى، ولا أرسل بشيرا ولا نذيرا بعده ! وبدا أن المجتمع المدنى فى حاجة إلى تطهير مما نفثوا فيه من سموم الشر والنفاق، لكن عهد الموادعة بكتاب النبى صلى الله عليه وسلم، كان يرخى لهم فى أملهم أن يكيدوا للاسلام دون أن يواجهوه فى معركة مكشوفة لم يكن أوانها قد حان بعد. [صفحه ۲۲۸] حتى شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، كان المصطفى والذين آمنوا معه، يتجهون فى صلاتهم مستقبلين الشمال، شطر بيت المقدس. ولم يكن صلى الله عليه وسلم راضيا عن تلك القبلة الاولى، وطالما رنا فى تأملاته إلى البيت العتيق يرجوه قبلة لامته، لكنه لم يكن يملك أن يغير قبلة المسلمين من تلقاء نفسه، فليس له إلا أن ينتظر أمر الله سبحانه وتعالى. واستجاب الله لرسوله فولاه القبلة التى يرضاها. وصلى المصطفى والصحابة فى دار الهجرة، مستقبلين المسجد الحرام منذ نزلت آية البقرة، أولى السور المدنية: (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها، فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم، وما الله بغافل عما يعملون). ولم يمض هذا التحول الهام دون جدل من يهود: ذهب نفر من أحبارهم إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام يسألونه مساومين: - يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة ابرهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك ! وتلا المصطفى من وحى ربه: [صفحه ۲۲۹] (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها، قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وانصرف اليهود بغيظهم لم ينالوا شيئا بحيلتهم الماكرة ومساومتهم المكشوفة الكاذبة. وتسامع طواغيت المشركين من قريش فى مكة، بنبإ تحول المسلمين عن قبلتهم الاولى إلى المسجد الحرام، فلم يرضهم ما فى هذا التحول من تأييد الزعامة الدينية لام القرى وترسيخ حرمة البيت العتيق، بل أوجسوا فى أنفسهم خيفة أن تكون مكة متجه الدعوة الاسلامية التى حسبوا أنها خرجت منها إلى يثرب، مع محمد - صلى الله عليه وسلم - والمهاجرين المكيين من صحابته. وساورهم القلق وهم يحسون نذر المواجهة المحتومة المتحدية، كلما حان موعد الصلاة خمس مرات كل يوم، فتمثلوا المسلمين هناك فى دار هجرتهم يقيمون صلاتهم وقبلتهم المسجد الحرام فى أم القرى. [صفحه ۲۳۰]

يوم بدر وموازين القوى

(يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين - يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون). (صدق الله العظيم) فى أى الجبهات الثلاث، يبدأ الصدام المسلح الذى لم يكن منه بد، لتأمين الوجود الاسلامى وحماية حرية عقيدته ؟ ليس مع يهود قطعا، فما هو من طبيعتهم ولا فى إمكانهم. وليس مع المنافقين، كذلك، وداؤهم لا يزال فى مرحلة الحضانة [صفحه ۲۳۱] والتفريخ، والذى يبدو من بوادره يمكن تداركه أو الغض عنه تجنبا لفتح جبهة خطرة فى صميم المجتمع الاسلامى بالمدينة، ولما يفرغ من أعدائه الوثنيين ويهود. إنما الصدام المسلح من الخصوم من قريش التى لم يعد أمامها سواه، بعد أن تجنبته جهدها طويلا على الرغم منها، حفاظا على السلام فى أم القرى وأمن الحمى الحرام فى البيت العتيق. لقد كان فى حساب الوثنية القرشية أن تفرغ من القلة المؤمنة فى الجولة الاولى بأرض المبعث، دون حاجة إلى قتال وحرب. وقد غرها أن نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام، لبث بضعة عشر عاما فى مكة، لا يحمل سلاحا

غير عقيدته، ولا يلقى طواغيت المشركين بغير كلمات ربه. لكن طبيعة الاشياء فرضت حتمية الصدام، وقررت كذلك مصيره من تلك الجولة المكية الاولى، وإن بدا أن المعركة لم تحسم إلا يوم الفتح فى السنة الثامنة للهجرة. ماذا عسى التاريخ أن يعطى من تفسير منطقى لحركة الدعوة الاسلامية إذ تأخذ منطلقها من فجر المبعث، فيحتمل المصطفى عليه الصلاة والسلام والذين آمنوا معه، وطأة الوثنية العاتية الشرسة، دون أن يؤذن لهم بقتال ؟ لا يمكن أن يكون المؤمنون مظنة أن يكرهوا القتال حذرا من معركة [صفحه ۲۳۲] تبدو غير متكافئة، وهم الذين باعوا الدنيا بالآخرة، وبايعوا المصطفى عليه الصلاة والسلام على الجهاد معه فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وليس فيهم من دخل فى دينه إلا وهو على بينة من أمره. المهاجرون خرجوا من ديارهم وأموالهم. والانصار أصحاب العقبة الكبرى، بايعوا النبى عليه الصلاة والسلام (على نهكة الاموال وقتل الاشراف) وودوا لو قاتلوا الوثنية عن دينهم من يوم العقبة، لولا أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم). ليس التفسير إذن، أنهم كانوا مظنة التردد فى القتال أو الخوف من قوة عدوهم وكثرته. وإنما اقتضت سنة الله سبحانه، أن تطول تلك الجولة المكية الاولى بغير قتال، ليؤمن من يؤمن عن عقيدة خالصة واقتناع حر، ويكون الابتلاء بوطأة المشركين تمحيصا للصفوة من المؤمنين، وتمزيقا لغشاوة الغفلة عن بصيرة قريش، بما تشهد من هذا الاستبسال الصامد الذى لا يمكن إلا أن يكون عن إيمان بحق. وتتابعت آيات القرآن تقصر مهمة الرسول على البلاغ: يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة. وأسلم من أسلم، بمحض إرادته واختياره، دون تورط أو إكراه أو مسايرة. وما كان بعيدا فى منطق الحياة أن تغلب القلة المؤمنة كثرة كافرة، [صفحه ۲۳۳] لكن الاسلام بتقريره حرية العقيدة وعدم الاكراه فى الدين، أصلا من أصول دعوته، استصفى من قريش والموالى بمكة وسابقى الانصار، الجنود الاولين لحزب الله: لم ينتظروا حتى يحسبوا حسابا لمكسب أو خسارة، بل استجابوا لداعى الاسلام بمحض إرادتهم، عن اعتقاد راسخ وضمير حر، فما عادوا بحيث يخشون فيه لومة لائم، أو يبالون الموت فى سبيل ما آمنوا أنه الحق من ربهم. وزودهم إيمانهم الصادق بطاقة فذة، نفذ أثرها إلى صميم الجبهة القرشية، فكان منها المدد المتصل المتتابع، لكتيبة المؤمنين. وتصدع بنيان الوثنية من قبل أن تلقى الاسلام فى الصدام المسلح الذى فرضته طبيعة الموقف، وقد أذن للمسلمين فى القتال إقرارا لمبدأ حرية العقيدة، وغضبا لحرمات الله، ودفعا لما سيموا من أذى واضطهاد. وقررت كذلك مصيره: ينتصر الحق على الباطل فيزهقه، وينسخ النور الظلام فتنجلى غواشى الوثنية عن أم القرى والبيت العتيق. على ساحة (بدر) كانت أولى جولات هذا الصدام، وموقعة بدر لم تأت فجأة، بل سبقتها نذر تراكمت على الافق ما بين دار المبعث ودار الهجرة، معلنة عن حتمية الحرب بين الاسلام والوثنية، إذ ليس من طبيعة الاشياء أن يتهادن حق وباطل. وقد أذن للمسلمين فى القتال، بعد طول صبر واحتمال. [صفحه ۲۳۴] لكن القتال لم يبدأ مع ذلك فى عام الهجرة الاول، الذى مضى كله احتشادا للجهاد وتنظيما للمجتمع الاسلامى فى مركزه بالمدينة، واكتشافا لابعاد الميدان فى منطقة كانت، حتى المبعث ولمدى خمسة قرون قبله، ترعى فيها الذئاب من يهود. ولم يكن هينا على المهاجرين والانصار، أن يأتى موسم الحج فى عام الهجرة الاول، وقد حيل بينهم وبين أداء فريضة الحج والسعى إلى بيت الله الحرام الذى يسيطر عليه المشركون وكدسوا أوثانهم فى ساحته، وأباحوه لكل الوثنيين العرب، وصدوا عنه المؤمنين الذين يعبدون رب هذا البيت لا يشركون به شيئا. ومع مطلع السنة الثانية للهجرة، بدأ المصطفى عليه الصلاة والسلام يخرج فى غزوات قصار، تدريبا لجنده من حزب الله، وإقرارا لهيبة الاسلام فى موقعه الجديد. كما بدأ عليه الصلاة والسلام يبعث سراياه لتجوب المنطقة ما بين مكة والمدينة، وأولاهما مركز الوثنية العربية، والاخرى مركز الدعوة الاسلامية. ولم تكن هذه السرايا قاصدة إلى قتال، وإنما كانت دوريات استطلاع ترصد أبناء قريش فى منطقة الحجاز [۵۹] . [صفحه ۲۳۵] أولى السرايا، سرية (عبيدة بن الحارث) إلى مشارف الحجاز، وقد لقى جمعا من قريش فلم ينشب بينهم قتال، إلا أن (سعد بن أبى وقاص) من جنود السرية، رمى بسهم فكان أول سهم رمى به فى الاسلام. وقد اعتز به سعد فأنشد معتدا: ألا هل أتى رسول الله أنى - حميت صحابتى بصدور نبلى فما يعتد رام فى عدو - بسهم يا رسول الله مثلى بعد سرية (عبيدة بن الحارث) بعث المصطفى سرية عمه (حمزة ابن عبدالمطلب) إلى سيف البحر، فى ثلاثين راكبا من المهاجرين، ثم تلتها سرية (سعد بن أبى وقاص) فبلغت غايتها فى أرض الحجاز،

ثم عادت لم تلق كيدا. بعدها كانت سرية (عبدالله بن جحش) - ابن عمة المصطفى: أميمة بنت عبد المطلب. ومن هذه السرية اندلع الشرر الذى أوقد الضرام الكامن فتوهج مشتعلا على ساحة بدر. خرج (عبدالله بن جحش) فى ثمانية من المهاجرين، فى أوائل رجب من السنة الثانية للهجرة، ورجب من الاشهر الحرم التى لا يحل فيها قتال. وكانت أوامر المصطفى إلى ابن عمته أن يمضى بالسرية حتى ينزل بموضع (نخلة) ما بين مكة والطائف، فيترصد بها قريشا ويستطلع أخبارها. [صفحه ۲۳۶] وحدث فى مرحلة من الطريق أن خرج (سعد بن أبى وقاص وعتبة ابن غزوان) ينشدان بعيرا لهما ضل. ثم تخلفا لم يرجعا إلى منزل السرية، وبدا أن قريشا أخذتهما على غرة فأسرتهما. ومضى أمير السرية بمن بقى معه من المهاجرين حتى نزل بنخلة كما أمره المصطفى عليه الصلاة والسلام. فمرت عير تجارية لقريش، فيها (عمرو بن الحضرمى) وتحاشى المسلمون القتال حفاظا على حرمة الشهر الحرام. لكن تجنب الصدام مع المواجهة، لم يكن مستطاعا، وأطلق الصحابى (واقد بن عبدالله) سهما أصاب عمرو بن الحضرمى فقتله. وعندئذ فرت قريش من عيرها وقتيلها، وعن أسيرين منها. وعادت السرية الظافرة إلى المدينة بالمغانم والاسيرين، وهى ترجو أن يفتدى بهما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان. غير أنها ما كادت تدخل المدينة حتى استقبلت بوجوم ذهب بفرحة النصر. وقال المصطفى لابن عمته، أمير السرية: (ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام). ثم أعرض صلى الله عليه وسلم عما جاءت به السرية من مغانم، ونحى الاسيرين القرشيين. فظن عبدالله بن جحش وأصحابه أنهم أثموا وهلكوا. واشتد الصحابة من المهاجرين والانصار فى لومهم، ونقلوا إليهم ما تقول قريش فى مكة: (لقد استحل محمد وأصحابه حرمة الشهر الحرام). وتسللت الافاعى من الاوكار اليهودية، فراحت تطوف بأحياء المدينة وهى تهمهم فى حقد واشتفاء: [صفحه ۲۳۷] (عمرو بن الحضرمى، قتله واقد بن عبدالله. (عمرو: عمرت الحرب. (الحضرمى: حضرت الحرب. (واقد: وقدت الحرب). حتى حسم القرآن ذلك الموقف المعقد وأنهى كل جدل فيه بكلمات الله البينات: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله، والله غفور رحيم -). وبهذه الآيات استرد جنود السرية طمأنينة بالهم، وطاب لهم النصر على عدوهم، وأنشد عبدالله بن جحش: تعدون قتلا فى الحرام عظيمة - وأعظم منه، لو يرى الرشد راشد صدودكم عما يقول محمد - وكفر به، والله راء وشاهد [صفحه ۲۳۸] وإخراجكم من مسجد الله أهله - لئلا يرى لله فى البيت ساجد فإنا وإن عيرتمونا بقتله - وأرجف بالاسلام باغ وحاسد سقينا من ابن الحضرمى رماحنا - بنخلة لما أوقد الحرب واقد بعد شهرين اثنين، فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، كانت غزوة بدر الكبرى التى وجهت مجرى الاحداث وحددت موازين القوى، لا بين الاسلام والوثنية فحسب، بل فى كل صراع كذلك، بين حق وباطل ! (أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس) فى طريقه من الشام إلى مكة عائدا بعير قريش.. وصيحة تعلو فى مكة: (يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا- أرى أنكم مدركوها). وترد أصوات من هنا ومن هناك: (أيظن محمد وأصحابه أن تكون عير أبى سفيان كعير ابن الحضرمى ؟ كلا والله ليعلمن غير ذلك). وخرجت جموع قريش من مكة مزهوة بعددها وعدتها، تريد [صفحه ۲۳۹] القضاء على المسلمين فى دار الهجرة، وهى ترى الامر هينا بسيطا، وكأنها خارجة فى رحلة صيد. ماذا كان من أمر المسلمين حين قال لهم الناس: (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ؟. جمع المصطفى صحابته من المهاجرين والانصار، وعرض عليهم الموقف من مختلف نواحيه، ثم قال يطلب مشورتهم: (أشيروا على أيها الناس). فقام أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، فتحدثا ما شاء لهما إيمانهما، عن فريضة الجهاد والثقة فى النصر، ثم قام (المقداد ابن عمرو) - وكان خرج من قريش ولحق بالمسلمين فى سرية عبيدة ابن الحارث - ودنا من المصطفى، وقال: - يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا- نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد - بأقصى الجنوب - لجالدنا معك

دونه حتى تبلغه. دعا له المصطفى بخير، ثم التفت صلى الله عليه وسلم إلى الانصار [صفحه ۲۴۰] ولم يكن أحد منهم قد تكلم بعد، وعاد يقول: (أشيروا على أيها الناس). سأل نقيبهم (سعد بن معاذ) - أحد السعدين: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟). أجاب المصطفى: (أجل). فقال سعد: (فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة. فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك. فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن نلقى عدونا غدا، إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله). وسار بهم المصطفى على بركة الله حتى نزل بماء بدر، ليسمع أن فى جيش المشركين بالعدوة القصوى صناديد قريش: عتبة بن ربيعة، شيبة بن ربيعة، الوليد بن عتبة، الحكم بن هشام، نوفل وحكيم ابنى خويلد، النضر بن الحارث، أمية بن خلف. فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وقال: (هذه مكة قد أخرجت لكم أفلاذ أكبادها). ثم لمح قريشا تندفع من وراء كثيب هناك. هادرة بزئير الوعيد، [صفحه ۲۴۱] ثملة بنشوة الغرور ومتعة الصيد، فرفع صلى الله عليه وسلم وجهه إلى السماء وقال يدعو ربه: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك. اللهم فنصرك الذى وعدتنى، اللهم أحنهم الغداة). كم كان عدد المشركين الزاحفين من مكة ؟ ألف مقاتل كاملو العدة والسلاح أو يزيدون، ومعهم مائة فرس مدربة على القتال. وتجاههم، بالعدوة الدنيا، كان جنود المصطفى من حزب الله: ثلاثمائة وأربعة عشر لا يزيدون: من المهاجرين ثلاثة وثمانون ومن الاوس واحد وتسعون، ومن الخزرج مائة وأربعون. ومعهم من الخيل ثلاثة أفراس فحسب ! استضعف المشركون جند الاسلام، فتقدم أحد صناديدهم فى صلف وخيلاء، يريد أن يقتحم عسكر المسلمين إلى ماء بدر، فلم يمهله (حمزة بن عبدالمطلب) فسقط مضرجا بدمائه دون بدر. واستكبر طواغيت قريش أن يخوضوا معركة مع هذه القلة المستبسلة: إن انتصروا عليها ضاع النصر فى ميزان فقدان التكافؤ، وإذا هزموا قضت عليهم الهزيمة بعار الدهر وكانوا سبة فى العرب. وبدا لكبيرهم (عتبة بن ربيعة) فخرج من صف المشركين يختال [صفحه ۲۴۲] بين أخيه شيبة عن يمينه وابنه الوليد عن يساره، وسأل فى استخفاف: - هل من مبارز ؟ فخرج إليه ثلاثة من الانصار، زهد فى مبارزتهم عندما سألهم من يكونون فعرفوه بنسبهم فى بنى قيلة. قال: (مالنا بكم حاجة) ! ثم نادى: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا. فأخرج إليه المصطفى ثلاثة من صميم البيت الهاشمى القرشى: عمه، حمزة بن عبدالمطلب. وابنى عمه: على بن أبى طالب، وعبيدة بن الحارث. ولم تطل المبارزة، وسقط عتبة بن ربيعة، وشيبة أخوه، وابنه الوليد ابن عتبة، صرعى مجندلين على ساحة بدر ! عندئذ تزاحف الناس وحميت المعركة، فأخذ المصطفى براحته حفنة من حصباء بدر قذف بها عسكر المشركين وهو يقول: (شاهت الوجوه). ثم التفت صلى الله عليه وسلم إلى جنده فقال: (شدوا) ! وشدوا على المشركين فما تركوهم إلا بين قتيل وأسير، وهارب يشترى النجاة بعار الفرار. وصدق الله وعده ونصر من نصروه، وألقى الرعب فى قلوب عدوهم فذهبوا عبرة ومثلا. وعاد الجيش الظافر إلى المدينة بالاسرى والمغانم. [صفحه ۲۴۳] وعادت فلول المشركين إلى مكة بالهزيمة والذل. أحصى (ابن هشام) فى السيرة النبوية قتلى قريش فى بدر سبعين رجلا، وبلغ أسراهم نحو ذلك العدد، فكانوا ستة وستين أسيرا والباقون من الجيش المغلوب لاذوا بالفرار. أما المسلمون فاستشهد منهم يوم بدر أربعة عشر شهيدا: ستة من المهاجرين وثمانية من الانصار، بذلوا أنفسهم فداء عقيدتهم فذهبوا بمجد الشهادة وشرف الجهاد وثواب الآخرة: (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون - فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون - يستبشرون بنعمة من الله وفضل، وان الله لا يضيع اجر المؤمنين - الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم - الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل - فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم). (صدق الله العظيم) وتجاوبت آفاق الحجاز بقصائد حماسية بعيدة الصدى، للشعراء الذين أخذوا أماكنهم فى الموقع الوجدانى للميدان، يناضلون بسلاح الكلمة لتعبئة الوجدان العام. [صفحه ۲۴۴] فى مدينة الرسول كان شعراء الاسلام الذين جندهم المصطفى عليه الصلاة والسلام لنصر الدعوة بألسنتهم، يشدون بآية النصر فى بدر، ويرمون

المشـركين بشـعر وصفه المصطفى فقال إن وقعه عليهم أشد من نضح النبل. فمن شعر حسان بن ثابت الانصارى: - ألا ليت شعرى هل أتى أهل مكة - إبادتنا الكفار فى ساعة العسر قتلنا سـراة القوم عند مجالنا - فلم يرجعوا إلا بقاصـمة الظهر تركناهم للعاديات ينبنهم - ويصلون نـارا بعـد حاميـة القعر لعمرك مـا حـامت فـوارس مالـك - وأشـياعهم يـوم التقينـا على بـدر ومن قصـيدة لكعب بن مـالك الانصارى: ألا هل أتى غسان من نأى دارها - وأخبر شئ بالامور عليمها بأن قد رمتنا عن قسى عداوة - معد معا، إذ أتانا زعيمها نبى له فى قومه إرث عزة - وأعراق صـدق هذبتها أرومها [صـفحه ۲۴۵] فساروا وسـرنا فالتقينا كأننا - أسود لقاء لا يرجى كليمها ضـربناهم حتى هوى فى مكرنا - لمنخر سوء من لؤى عظيمها فولوا ودسـناهم ببيض صوارم - سواء علينا حلفها وصـميمها وفى مكة، كان شعراء المشـركين يهـدرون بطلب الثأر، ويبكون مصارع الصـناديد الـذين جنـدلوا على ساحة بدر. قال ضـرار بن الخطاب يرثى أبا الحكم بن هشام، أبا جهل، ويستنفر للثأر: ألا من لعين باتت الليل لم تنم - تراقب نجما فى سواد من الظلم كأن قذى فيها، وليس بها قذى - سوى عبرة من جائـل الـدمع تنسـجم فآليت لا تنفك عينى بعبرة - على هالكك بعـد الرئيس أبى الحكم على هالكك أشـجى لؤى بن غالب - أتته المنايا يوم بدر فلم يرم [صـفحه ۲۴۶] فلا تجزعوا آل المغيرة واصبروا - عليه، ومن يجزع عليه فلم يلم وجـدوا فإن الموت مكرمة لكم - وما بعـده فى آخر العيش من نـدم وقال (أمية بن أبى الصـلت) - ذاك الذى آمن لسانه قبل المبعث وكفر قلبه - قصـيدة طويلة ينوح فيها على قتلى بـدر من صـناديد قريش.. وكـذلك أخـذت الشاعرات من الفريقين مكانهن فى المعركـة. روى (ابن اسـحاق) فى (السـيرة النبوية) أربع قصائد لهند بنت عتبة وقصـيدتين لصفية بنت مسافر حفيدة أمية بن عبد شمس. كما روى قصيدة لهند بنت أثاثة، حفيدة عبدالمطلب، ترثى شـهيدا لها من شـهداء بدر، وأخرى لقتيلة بنت الحارث فى النضـر ابن الحارث الذى قتل صبرا بعد المعركة، فى (الاثيل) بين بـدر والمدينـة. وفيها تقول: يا راكبا إن الاثيل مظنة - من صـبح خامسة وأنت موفق أبلغ بها ميتا بأن تحية - ما إن تزال بها النجائب تخفق [صفحه ۲۴۷] منى إليك، وعبرة مسـفوحة - جادت بواكفها وأخرى تخنق هل يسمعنى النضر إن ناديته - أم كيف يسمع ميت لا ينطق أمحمد يا خير ضنء كريمة - فى قومها والفحل فحل معرق ما كان ضرك لو مننت وربما - من الفتى وهو المغيظ المحنق أو كنت قابـل فديـة فليفـدين - بأعز ما يغلو به ما ينفق فالنضـر أقرب من أسـرت قرابـة - وأحقهم إن كان عتق يعتق فيروى أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم لما بلغه شـعر قتيلـة فى النضـر ابن الحارث قال: (لو بلغنى هذا قبل قتله، لمننت عليه). وبدا النصـر عجيبا وغريبـا، فما تصورت قريش وهى تحتشـد فى ألف مقاتل كاملى العـدة والسـلاح، أن يغلبهم القائـد الرسول فى ثلاثمائة من صـحابته. ولكن سنن الحياة لا ترى فى هذا النصر أى شذوذ أو غرابة. القتال فى بدر لم يكن بين فئتين متكافئتين: [صفحه ۲۴۸] من حيث العدد والسـلاح، كان القرشـيون يزيـدون أضـعافا مضاعفـة. ولكن المعركـة لم تكن متكافئـة كـذلك من حيث القوى المعنوية: المشـركون خرجوا للقتال بطرا ورئاء الناس، وإمعانا فى البغى والعـدوان، وتأمينا لطريق تجارتهم إلى الشام، وانتقاما من المصـطفى والـذين هاجروا معه والذين آووه ونصـروه لا يبالون غضب قريش ! والمسلمون خرجوا جهادا فى سبيل دينهم، وتأمينا لحقهم فى حرية العقيدة، وغضبا لما سامتهم الوثنية القرشـية من أذى واضـطهاد. ومتى كان القتال بين حق وباطل، بين مستبسل فى سبيل ما يؤمن أنه الحق، وبين ممعن فى البغى والضـلال، فإن العشـرين من المؤمنين يغلبون المائة، والمائة يغلبون الالف. وتحددت ببدر موازين القوى: فلم يكن الامر فيها بين كثرة وقلة فحسب، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سـلاح الايمان، ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر فى حماية الجاه الموروث ويرى فى خصومة المسلمين صيدا سهلا، وبين قلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا وهو يرجو انتصار الحق ورضوان الله، ويرى الموت فى سبيـل عقيـدته الـتى آمن بهـا، حيـاة ومجـدا ونصـرا. وحزب الله لم يتردد فى دخول المعركـة حتى يقيس قوته إلى قوة [صـفحه ۲۴۹] عدوه، ولم يتهيب القتال خوفا من كثرة مسلحة مزهوة بعددها وعدتها، بل بادر جنود الاسلام إلى لقاء عدوهم بعد أن جمعوا له كل ما استطاعوا من قوة، ورحبوا بالجهـاد لاـ يبالى أحـدهم حين يقتل مسـلما، كيف ولا أنى يقتل: ولست أبالى حين أقتل مسـلما - على أى جنب كـان فى الله مصـرعى سيق أسـرى بـدر إلى المدينـة فى أعقاب الفئـة الظافرة، فتأملهم المصـطفى مليا، ثم نحى منهم صـهره (أبا العاص بن الربيع) وفرق الباقين بين أصـحابه وقال: (استوصوا بالاسارى خيرا). وبقى أبو العاص عند المصطفى، وقلبه مشدود إلى مكة،

حيث ترك هناك زوجه الحبيبة (زينب بنت محمد) مع صغيريهما (على وأمامة)، ولم يكن الاسلام قد فرق بعد بين زوجة مؤمنة وزوج مشرك. حتى جاءت رسل قريش فى فداء أسراها. وغالوا فى الفداء، حتى إن امرأة لتسأل عن أغلى ما فدى به قرشى فيقال لها: أربعة آلاف درهم، فتبعث بمثلها فى فداء ابنها. وتقدم عمرو بن الربيع فقال للمصطفى: - بعثتنى (زينب بنت محمد) بهذا فى فداء زوجها، أخى: أبى العاص بن الربيع. [صفحه ۲۵۰] وأخرج من ثيابه صرة وضعها بين يدى الرسول، ففتحها صلى الله عليه وسلم فإذا فيها قلادة لم يكد يراها حتى رق لها رقة شديدة، وخفق قلبه للذكرى: لقد كانت قلادة (خديجة) أهدتها ابنتها (زينب) يوم عرسها، حين زفت إلى (أبى العاص بن الربيع) ابن خالتها هالة بنت خويلد. وأطرق أصحاب المصطفى خشعا وقد أخذوا بجلال الموقف ! قلادة الحبيبة، تبعثها بنت النبى إلى أبيها فى فداء زوج حبيب ! وتكلم النبى الاب بعد فترة صمت فقال: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها، فافعلوا). أجابوا جميعا: - نعم يا رسول الله. وأدنى المصطفى إليه صهره الذى غلبه التأثر لهيبة الموقف، فأسر إليه حديثا، فحنى أبو العاص رأسه موافقا، ثم حيا ومضى. فلما أبعد التفت المصطفى إلى أصحابه من حوله، فأثنى على أبى العاص وقال: (والله ما ذممناه صهرا) [۶۰] وعاد (أبو العاص) إلى مكة ليجهز زوجه الحبيبة كى تلحق بأبيها المصطفى، وفاء بوعد قطعه على نفسه، يوم ودع أباها عليه الصلاة والسلام بالمدينة، بعد بدر. [صفحه ۲۵۱] وكان الفراق قاسيا صعبا، وقد خانه تجلده يوم رحليها، فترك أخاه (كنانة بن الربيع) يصحبها إلى خارج مكة، حيث كان (زيد ابن حارثة) فى انتظارها. وانطلق (كنانة) يقود بعيرها نهارا وقد أخذ قوسه وكنانته متأهبا، فهال قريشا أن يخرج بها هكذا فى وضح النهار على مرأى منهم ومسمع، وخرج بعضهم فى أثر المهاجرة حتى أدركوها بذى طوى، فكان أسبقهم إليها (هبار بن الاسود الاسدى) الذى روعها بالرمح، وقد جن حزنه على إخوة له ثلاثة صرعوا جميعا فى بدر بأيدى أصحاب محمد. ونخس البعير، فألقى بزينب على صخرة هناك، وعندئذ برك (كنانة بن الربيع) دونها ونثر كنانته وهو يزأر متوعدا: - والله لا يدنو منها رجل إلا وضعت فيه سهما. فتراجعوا، ووقف أبو سفيان بن حرب بعيدا يقول لكنانة: - كف عنا نبلك حتى نكلمك. فكف كنانة، ودنا أبو سفيان منه فقال: (إنك لم تصب يا ابن الربيع: خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس أن ذلك عن ذل أصابنا وأن ذلك منا ضعف ووهن. ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة، ولكن ارجع بها حتى إذا هدأت الاصوات وتحدث الناس أن قد رددناها، فتسلل بها سرا فألحقها بأبيها). [صفحه ۲۵۲] فكبر على كنانة أن يردها ليعود فيتسلل بها سرا بعد أن يذاع فى الناس أن قد ردتها قريش. وهم ليمضى بها، فراعه أن رآها تنزف دما، وقد طرحت جنينها على أديم الصحراء ! وعاد بها إلى مكة، حيث سهر أبو العاص على رعايتها وتمريضها لا يفارقها لحظة من ليل أو نهار، حتى إذا استردت بعض قواها، ودعها للمرة الثانية وداع محب مقهور. وخرج بها كنانة حتى بلغت مأمنها. ولم يتبعها فى هذه المرة طالب، بل أغمض الذين طاردوها بالامس أعينهم، وقد ركبهم الخزى والعار من قول هند بنت عتبة تعيرهم، وتذكرهم بهزيمتهم فى بدر: أفى السلم أعيار، جفاء وغلظة، - وفى الحرب أشباه النساء العوارك ؟ استقبلت دار الهجرة بنت المصطفى بترحاب بالغ، شابت فرحة اللقاء فيه سورة الغضب لما أصابها عند خروجها من مكة، وعاشت زينب فى رعاية أبيها المصطفى على أمل لم يغلبها عليه اليأس قط: أن يشرح الله صدر أبى العاص للاسلام، فيلتئم الشمل الممزق. وكان عليها أن تنتظر ست سنوات طوال ليتحقق هذا الامل الغالى، ثم لا يكاد الشمل يلتئم حتى ترحل عن الدنيا بعد عام وبعض عام من اسلام أبى العاص، فيكون فراق لا لقاء بعده على هذه الارض. [صفحه ۲۵۳]

درس من أحد ورسالة من شهيد

(يا أيتها النفس المطمئنة - ارجعى إلى ربك راضية مرضية - فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى). (صدق الله العظيم) ما أبهظ أعباء النصر ! وما أسرع ما يتعرض للضياع بأدنى بادرة من تهاون أو تفريط، يستمرئ فيها المنتصر فرحته فيغفل عن موقعه تجاه عدوه، ويتهاون فى تقدير طاقة التحدى فى المهزوم ! والنصر فى (بدر) قد ألقى على المسلمين تبعاته وأعباءه، بقدر ما أثقل على قريش

بخزى العار، وعبأها لاسترجاع شرفها الضائع، [صفحه ۲۵۴] والثأر لقتلاها الذين جندلهم المسلمون على ساحة بدر. وقد احتاج المشركون إلى سنة كاملة ريثما عبأوا قواهم واحتشدوا لمعركة الثأر. خرجوا من مكة بحدهم وحديدهم وأحابيشهم ومن والاهم من بنى كنانة وأهل تهامة. وخرجت معهم نساؤهم يقطعن على الرجال سبيل النكوص. و (هند بنت عتبة) فى نسوة بنى أمية وقريش، يضربن الدفوف على صوت هند: ويها بنى عبد الدار - ويها حماة الادبار ضربا بكل بتار أن تقبلوا نعانق - ونفرش النمارق أو تدبروا نفارق - فراق غير وامق ولم تكن هند قد نامت قط على ثأرها، وفى قتلى بدر: حنظلة بن أبى سفيان، وأبو هند (عتبة بن ربيعة) وأخوها الوليد، وعمها شيبة. ثلاثة منهم صرعوا على ساحة بدر، بسيف الفارس حمزة بن عبدالمطلب. حتى إذا دنوا من المدينة، خرج إليهم المصطفى عليه الصلاة والسلام فى ألف من المسلمين، لم يلبثوا أن نقصوا بضع مئات قبل أن يلتقى الجمعان فى أحد، فى منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة. [صفحه ۲۵۵] انخذل عن الجيش كبير المنافقين (عبدالله بن أبى بن سلول) بمن معه من منافقى المدينة، وكانوا نحو ثلث الجيش. قال لهم: ما ندرى علام نقتل أنفسنا وقد أهلكنا أموالنا ؟ ولم يجد المصطفى ضيرا من هذا التخاذل، فلقد نحى المنافقين ومرضى القلوب والايمان، عن جنده المخلصين. فواجه بهم وما يزيد عددهم على سبعمائة، ثلاثة آلاف من المشركين يقودهم أبو سفيان بن حرب، معهم كتيبة من الفرسان على مائتى فرس، بقيادة خالد بن الوليد بن المغيرة. ألا تغلب مائة من المؤمنين الصابرين، ألفا من الذين كفروا ؟ فى الحساب إذن، أن يغلب سبعمائة سبعة آلاف، لا ثلاثة آلاف فحسب ! والتحم الجيشان، ولم تختل موازين القوى التى تحددت من قبل يوم بدر: كان النصر فى (أحد) للمؤمنين لا شك فيه، وقد كشفوا المشركين عن عسكرهم فولوا الادبار تاركين لواءهم على الساحة صريعا. لكن المسلمين تعجلوا الموقف فتركوا مواقعهم فى الميدان، وأسرعوا يهجمون عسكر قريش بعد انكشافهم عنه. وتركوا القائد الرسول حيث هو فى صميم الجبهة، ليس معه إلا نفر قليل استجابوا له فثبتوا فى موقعهم حوله. ولاحت الفرصة لخالد بن الوليد، وكان يترقبها بنظرة ثاقبة، [صفحه ۲۵۶] فهجم بالخيل بغتة، من الثغرة التى كشفها المسلمون أنفسهم. وكرت فلول قريش راجعة إلى الميدان الذى سيطر عليه خالد، وتقدمت إحدى نسائهم: (عمرة بنت علقمة الحارثية) فالتقطت لواءهم الصريع فرفعته لهم. وكان ما لا بد أن يكون: تغير وجه المعركة، وضاع النصر من المسلمين وقد كان لهم دون ريب. ولولا ثبات القائد المصطفى صلى الله عليه وسلم، والنفر البواسل من أصحابه المؤمنين، لكانت الكارثة. واطردت المقاييس لا تتخلف. استرد المسلمون وعيهم للموقف بعد أن ساورهم اليأس منه، إذ أرجف المشركون أن (محمدا قد قتل). لكنه، صلى الله عليه وسلم، كان هناك، جريحا مخضب الوجه بالدماء، يوجه جنده من مكانه فى قلب الميدان لم يبرحه. ومن حوله النفر المؤمنون، قد جعلوا من أجسادهم دروعا وتروسا لوقاية قائدهم النبى. وما إن صاح أحدهم ببشرى حياته صلى الله عليه وسلم، حتى عاد المسلمون جميعا فأخذوا مواقعهم فى الجبهة. وتقهقر جيش المشركين قانعا بالنصر المخطوف. [صفحه ۲۵۷] فى خشوع، رجع المصطفى وجنده إلى المدينة، فدخل المسجد وصلى بهم قاعدا، من أثر الجراح التى أصابته فى أحد. وذهبت أحد عبرة ومثلا: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا، وسيجزى الله الشاكرين - وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، وسنجزى الشاكرين). (صدق الله العظيم) اكتفى المشركون بنصرهم المخطوف يوم أحد. وابتدروا الطريق عائدين إلى مكة، لا يكادون يصدقون ما كان. وفرغ المسلمون لقتلاهم الشهداء، فمضى المصطفى يلتمس عمه الفارس الشهيد (حمزة بن عبدالمطلب) فوجده هناك ببطن الوادى، قد اغتالته حربة غادرة، سددها إليه (وحشى، مولى جبير بن مطعم)، وجاءت (هند بنت عتبة، زوج أبى سفيان) آكلة الاكباد، فرقصت على مصرع الفارس الشهيد ومثلت بجثته أبشع تمثيل: بقر بطنه عن كبده فلاكتها، وجدع أنفه وأذناه فاتخذت منها حليا، بدلا من حليها التى دفعتها إلى (وحشى) من ثمن الصفقة الغادرة. قال عليه الصلاة والسلام حين رأى ما رأى: (لن أصاب بمثلك [صفحه ۲۵۸] أبدا. ما وقفت موقفا قط أغيظ الى من هذا). وأمر صلى الله عليه وسلم فسجوا حمزة ببردته، وصلى عليه مكبرا سبع تكبيرات. ثم جئ بالشهداء فكانوا يوضعون واحدا بعد الآخر إلى جانب حمزة، فيصلى النبى عليهم وعليه، حتى بلغت مرات الصلاة على سيد الشهداء اثنتين

وسبعين، بعدد الشهداء يوم أحد. وتجاوبت أرجاء الحجاز، ما بين أم القرى ودار الهجرة، بأصداء المعركة، فى نقائض الشعراء من الحزبين: المشركون بمكة يهزجون بقصائد شعرائهم، ويترنمون برسالة (عبد الله بن الزبعرى السهمى) – ولم يكن أسلم بعد – إلى حسان بن ثابت الانصارى: يا غراب البين أسمعت فقل – إنما تنطق شيئا قد فعل إن للخير وللشر مدى – وكلا ذلك وجه وقبل أبلغا حسان عنى آية – فقريض الشعر يشفى ذا الغلل كم ترى بالجر من جمجمة – وأكف قد أترت ورجل [صفحه ۲۵۹] وسرابيل حسان سريت – عن كماة أهلكوا فى المنتزل كم قتلنا من كريم سيد – ماجد الجدين مقدام بطل ليت أشياخى ببدر شهدوا – جزع الخزرج من وقع الاسل حين حكت بقباء بركها – واستحر القتل فى عبد الاشل فقتلنا الضعف من أشرافهم – وعدلنا ميل بدر فاعتدل فيرد عليه، من حزب الله، صوت حسان، شاعر المصطفى: ذهبت يا ابن الزبعرى وقعة – كان منا الفضل فيها لو عدل ولقد نلتم ونلنا منكم – وكذاك الحرب أحيانا دول نضع الاسياف فى أكنافكم – حيث نهوى عللا بعد نهل إذ تولون على أعقابكم – هربا فى الشعب أمثال الرسل إذ شددنا شدة صادقة – فأجأناكم إلى سفح الجبل وتركنا فى قريش عورة – يوم بدر، وأحاديث المثل والاصداء تتلاقى وتتصادم، كاشفة فى وهج الصراع المحتدم، [صفحه ۲۶۰] عن أبعاد الميدان وأسلحته لمعركة طويلة المدى. فى ذلك اليوم العصيب، افتقد المصطفى عليه الصلاة والسلام صاحبه (سعد بن الربيع الانصارى) – أحد النقباء فى بيعة العقبة الكبرى – فقال لمن حوله: (من رجل ينظر لى ما فعل سعد بن الربيع، أفى الاحياء هو أم فى الاموات) ؟ فذهب رجل من الانصار ينظر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل سعد، فألفاه على ساحة القتال جريحا وبه رمق. فأخبره عما كان من افتقاد المصطفى إياه وسؤاله عنه، فجمع (سعد) ما بقى له من طاقة المحتضر وقال: (أبلغ رسول الله صلى الله وسلم عنى السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبيا عن أمته. وأبلغ قومك عنى السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص العدو إلى نبيكم صلى الله عليه وسلم، ومنكم عين تطرف). وأسلم الروح مطمئنا، بعد أن بعث رسالته إلى النبى عليه الصلاة والسلام، والى قومه الانصار. ولم ينس المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه (سعد ابن الربيع). [صفحه ۲۶۱] ولا نسيه تاريخ الاسلام الذى استوعب رسالة هذا الجندى الشهيد، وعرف مغزاها ودلالتها، ورصد موقعها من نفوس المؤمنين: تزيدهم ثباتا وقوة واستبسالا وإصرارا. ومن نفوس أعدائهم: تهز ثقتهم فى جدوى معركة خاسرة بلا ـ ريب، يخوضونها مع أمثال هؤلاء الجنود المؤمنين الذين يرون الموت فى سبيل عقيدتهم: شرفا وحياة. روى (ابن هشام) فى السيرة النبوية، أن رجلا دخل على (أبى بكر الصديق) رضى الله عنه، وقد ضم طفلة صغيرة إلى صدره وأقبل عليها يلاعبها ويقبلها. فسأل الرجل: (من هذه ؟). أجاب الصديق: (هذه بنت رجل خير منى: سعد بن الربيع. كان من النقباء يوم العقبة، وشهد بدرا، واستشهد يوم أحد). وكل نفس ذائقة الموت، ولكن الصفوة من عباد الله المؤمنين هم الذين يستقبلون الموت فى سبيل الله راضين مطمئنين: (يا أيتها النفس المطمئنة – ارجعى إلى ربك راضية مرضية – فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى). (صدق الله العظيم) [صفحه ۲۶۲]

الاسلام فى الجبهات الثلاث

فى الجبهة اليهودية: من قلب المدينة، إلى خيبر

(هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار –). (صدق الله العظيم) مصير المعركة العنيفة بين الاسلام والوثنية، قد تقرر يوم بدر، وإن طال مداها سنين عددا وتعددت جولاتها حتى حسمت يوم الفتح فى السنة الثامنة للهجرة. [صفحه ۲۶۳] وكذلك تقرر، من يوم بدر، مصير الصراع فى جبهة أخرى أخطر وأضرى من الجبهة القرشية، والمعركة فيها سافرة مكشوفة والاسلحة مألوفة معروفة. لقد كان العرب القرشيون يقاتلون ببسالة، دفاعا عن أوضاع

موروثـة وتقاليـد راسـخة واعراف مقررة، وغضبا لحرمـة أسـلافهم، من حيث لم يهن عليهم أن يتصوروا أن أولئـك الآباء الكرام، من أمثال عبـدالمطلب وهاشم وعبد مناف وقصـي والمغيرة وزهرة، إلى فهر ومضـر وعدنان، كانوا على سـفه وضـلال. وعلى مدى السـنين العشـرين التى اسـتغرقتها المعركة بين العرب المشـركين والمسـلمين، فى جولتيها المكية والمدنية، كان الاسلام يستقبل من يصغى من قريش إلى ما يتلو المصـطفى عليه الصـلاة والسـلام من آيات معجزته، فيؤمن برسالته ويبايعه على الاسـلام والبذل والجهاد. وحزب الله الـذى بـدأ فجر ليلـة القـدر من شـهر رمضان، بالمسـلمة الاولى السـيدة خديجـة زوج المصـطفى وأم المؤمنين، ثم انضم إليه السابقون الاولون، كـان يسـتقبل كل يوم جنـديا جديـدا من الجبهـة القرشـية والعربيـة، يعزه الله بالاسـلام ويعز الاسـلام به، والمئات الثلاث من المجاهـدين والانصار الـذين شـهدوا بـدرا تحت لواء المصـطفى، لم يلبثوا أن كثروا بمن انضم إليهم من العرب، فدخل صـلى الله عليه وسـلم مكة يوم الفتح، فى عشـرة آلاف من الصحابة، [صفحه ۲۶۴] فيهم من كان قبل أن يشـرح الله صـدره للحق، أشـد الناس عداوة للاسـلام وحربا للمصـطفى والذين آمنوا معه. والذين تأخر إسـلامهم إلى عام الفتح وغزوة حنين والطائف بعده، وعام الوفود فى السنة التاسـعة للهجرة، لم يلبثوا أن خرجوا مع الكتائب المجاهـدة فى الفتوح الكبرى التى حملت لواء الاسـلام إلى أقصـى المشـرق وأقصـى المغرب. كلا، لم تكن الجبهة القرشـية العربية أخطر ما واجه الاسـلام فى عصـر المبعث، والجبهة فيها مكشوفة والسلاح معروف، ومنها كـان يـأتى المـدد تباعـا إلى حزب الله، إنمـا كان الخطر الاكبر فى الجبهـة الخبيثـة لاعـداء البشـر ومن شـرب سـمهم من المنافقين فى المدينـة: لقد حرص اليهود على ألا يواجهوا الاسـلام فى معركة مكشوفة، وسـهرت عصاباتهم فى أوكارها الناشـبة فى شـمال الحجاز، تنفث سم النفاق فى المدينة، ثم تمادى بها الشر فسعت إلى قريش، تؤلب الاحزاب منها وتستنفرها لقتال المسلمين بالمدينة، على وعد النصـرة من يهود الـذين وادعهم المصـطفى وأمنهم على دينهم وأموالهم. وكانت موقعـة بـدر، هى التى كشـفت المسـتور من غـدرهم بعهـدهم للمصـطفى وفيه النص الصـريح: (وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسـلمين نفقتهم، وإن بينهم النصـر [صـفحه ۲۶۵] على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب). إنه الغدر ! فجيش قريش لم يخرج من مكة إلا ليدهم يثرب. والغدر من طبيعـة يهود، وهو متوقع ومحسوب. وأملى لهم المصـطفى، واكتفى صـلى الله عليه وسـلم بأن جمع يهود المدينة بسوق بنى قينقاع، وحذرهم من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة. وحين يقتصـر الامر على الانذار أو ما هو أشد منه، فإن يهود تتطاول وتجترئ، ما بقيت السـيوف فى أغمادها. وغدا بنو قينقاع إلى سوقهم بالمدينة يأكلون المال، ويكيدون للاسـلام لا يبالون نذيرا من الله ورسوله. وبدا لنفر منهم أن يعرضوا لاحدى المسـلمات يريدونها على أمر تكرهه، ثم احتالوا حتى كشفوا ثوبها فى السوق عن عورتها، فصاحت تستصرخ العرب، ووقع الشـر بين من فى السوق من المسـلمين، ويهود بنى قينقـاع. وأقبـل المصـطفى فى جمع من الانصار فحاصـر اليهود خمس عشـرة ليلة، حتى استسـلموا ونزلوا على حكمه. وعندئذ تقدم المنافق (عبد الله بن أبى سـلول) فقال للمصـطفى على الملا من الناس: (يا محمد، أحسن الى فى موالى !). وأعرض عنه المصـطفى، لكن المنافق مضـى فى لجاجته، مصـرا على اسـتنقاذهم ! [صـفحه ۲۶۶] قال عليه الصـلاة والسـلام: (هم لـك !). واكتفى بـأن جردهم من سـلاحهم، وأمهلهم ثلاثـة أيـام يجلون بعـدها عن المدينـة. فخرجوا أذلة مقهورين إلى وادى القرى، حيث نزلوا على عصابتهم هناك وتطهرت دار الهجرة بجلاء بنى قينقاع عنها بعد (يوم بدر) فى السنة الثانية للهجرة ! وتتابعت أحـداث فرديـة، تعكس صـدى الرعب فى قلوب يهود، وتنم عن كيـدهم وحقدهم. وقد تعلق أملهم، بأن تثأر قريش لقتلاهـا فى بـدر، فمـا كـانت لتسـكت عليه كما سـكتت يهود على إجلاء بنى قينقاع. بعـد عام واحـد، فى شـهر شوال من السـنة الثالثة للهجرة، كانت موقعـة أحـد، وكان من أمرها ما كان. نقضت يهود ميثاقها مع الرسول هـذه المرة أيضا، فلم تكن (على النصـر ضـد من حارب أهل هذه الصـحيفة). وبنو النضـير، كانوا فى منطقة المدينة. وقد لبثوا فى أوكارهم يرقبون سـير المعركة فى أحد. وطاب لهم ما لقى المسـلمون من عدوهم، وتأهبوا لكى يرجفوا فى المدينة بقالتهم الخبيثة: – انهزم محمد وأصـحابه، ويقول إنه نبى مرسل ؟ لو كان نبيا ما انتصـر عليه الوثنيون ! [صفحه ۲۶۷] ثم هموا بأن يغتالوا الرسول ! خرج عليه الصـلاة والسـلام إلى بنى النضير، يستعينهم فى دية قتيلين من بنى عامر، وكان بينهم وبين بنى النضـير حلف وجوار. (قالت يهود: نعم يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت. ثم خلا بعضهم

إلى بعض فقالوا: (إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمن رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه) ؟. وصعد يهودى فألقى الصخرة، لكن بعد أن كان المصطفى قد تحرك من مكانه. ولم تزده فعلتهم علما بغدرهم. لكنها زادته تصميما على حسم شرهم. وعاد إليهم صلى الله عليه وسلم، فحاصرهم ست ليال من شهر ربيع الاول، من السنة الرابعة للهجرة. واستسلموا، بغير قتال، لحكم المصطفى عليهم بالجلاء. وتضرعوا إليه أن يدعهم يذهبون بما حملت الابل. فسمح لهم بها الرسول المنتصر. وبلغ بهم الحرص، أن راحوا ينزعون الاخشاب من دورهم ليحملوها معهم. ومضوا بالنساء والاولاد وما حملت الابل من مال ومتاع إلى عشيرتهم فى خيبر، ولم يكن دورها قد حان بعد. [صفحه ۲۶۸] فكأنما كانوا فى خروج الجلاء، فى ضغطة الحشر ! وصدق الله تعالى: (هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لاول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الابصار. ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار - ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب -). خانهم المعهود من حذرهم، فسعوا إلى حتفهم بأظلافهم ومخالبهم ! لقد ضاقوا بطول الانتظار، وعدوهم نبى الاسلام يبدو كمن لا يقهر، وإنه ليوشك أن يقذف بهم إلى تيه تشردهم القديم، بعد أن طاب لهم المقام فى مستعمراتهم بالارض الطيبة، شمال الحجاز، أكثر من خمسة قرون. أزمة (أحد) لم تكسر من معنوية جنوده، بل أعطتهم الدرس والعبرة، وزادتهم إيمانا وثباتا وإصرارا. وقريش تبدو حذرة مترددة، وتود لو أعفتها الظروف من الصدام مع جند الاسلام، خوفا من أن يضيع النصر الذى اختطفته فى (أحد) من حيث توقعت أن تبوء بالهزيمة والعار. [صفحه ۲۶۹] ولم يجد عليها هذا النصر المخطوف، وإنها لتعلم علم اليقين أن بين رجالها من اهتز إيمانهم بالاوثان، فلن يلبثوا أن يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى الاسلام ! ولاحت الفرصة ليهود بنى قريظة: بعثت وفدا من أحبارها إلى مكة، يرد على المرتابين إيمانهم بآلهتهم ويغرى الوثنية العربية بحرب دين التوحيد. قالوا لقريش: - دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. حاربوه ونحن معكم ! فلما اطمأنوا إلى أن المشركين نشطوا لما دعوهم إليه من حرب نبى الاسلام، خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان فدعوهم إلى مثل ما دعوا إليه قريشا، ووعدوهم المؤازرة والنصرة. ثم تسللوا عائدين إلى أوكارهم فى شمال الحجاز، ومن ورائهم جيش المشركين: قريش وعليها أبو سفيان بن حرب، والاحزاب من غطفان: بنى فزارة، وبنى مرة، وبنى أشجع بن ريث. لكن مثل هذا التواطؤ لم يكن بحيث يخفى أمره، وقد علم المصطفى بمسعى يهود وما بيتت من غدر، فانتظر عليه الصلاة والسلام حتى فرغ من الاحزاب يوم الخندق، ورجع بجنده إلى المدينة فى ساعة الظهيرة فما كادوا ينفضون عن ثيابهم غبار المعركة الظافرة، حتى سمعوا [صفحه ۲۷۰] دعاء المصطفى يعلو به صوت مؤذنه من المسجد النبوى: (أيها الناس، من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة). وتدفقت جموع المؤمنين إلى موعد الرسول: صلاة العصر فى بنى قريظة. وصلوا هناك، وقد لاذ اليهود الجبناء بحصونهم التى ظنوا أنها مانعتهم من الله. وامتد الحصار خمسا وعشرين ليلة، ثم أخرجهم الرعب منها مستسلمين لحكم نبى الاسلام. لكنه صلى الله عليه وسلم، ترك الحكم لسعد بن معاذ، نقيب الاوس. وقد حاول نفر من قومه أن يحملوه على الرفق بأعداء الاسلام وطالما ظاهروهم على الخزرج فى الجاهلية. قالوا لسعد: - يا أبا عمرو، أحسن إلى مواليك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن إليهم. فلما أكثروا عليه، ردهم بقوله: (آن لسعد ألا تأخذه فى الله لامة لائم). ونطق (سعد بن معاذ) بحكمه الصارم العادل على رجال بنى قريظة، دون النساء والصبية. حسما لشرهم الوبيل، وجزاء وفاقا على ما كان من غدرهم وكيدهم. [صفحه ۲۷۱] وذهبت بنو قريظة، قصة وعبرة ومثلا. وتجاوبت الجزيرة بأصداء القصائد التى قالها الشعراء فيهم وفيمن حزبوا من المشركين يوم الخندق، وفى المنافقين. وتلا المصطفى من وحى ربه، من سورة الاحزاب: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا - إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الابصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا - هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا - وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا

غرورا - وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا - ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لاتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا - ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الادبار وكان عهد الله مسئولا - قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا - قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا - قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا - أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فإذا ذهب [صفحه ۲۷۲] الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير، أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا - يحسبون الاحزاب لم يذهبوا وإن يأت الاحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الاعراب يسئلون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا - لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا - ولما رءا المؤمنون الاحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما - من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا - ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، إن الله كان غفورا رحيما - ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا - وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا - وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شئ قديرا -. (صدق الله العظيم) إذن فقد بدأ سم النفاق يحدث أثره ويهدد الجبهة الاسلامية من داخلها، فى الوقت الذى كانت تخوض فيه معركتها مع العرب المشركين والعصابات من يهود. لكن المنافقين الذين انكشفوا يوم الخندق فى غزوة الاحزاب، [صفحه ۲۷۳] لم يلبثوا بوسوسة من يهود، أن شغلوا المجتمع الاسلامى عنهم بفرية الافك، التى هزت المدينة هزا هزا لمدى شهر كامل من أيام شعبان ورمضان من السنة السادسة للهجرة. قبلها كان النبى عليه الصلاة والسلام قد خرج غازيا إلى بنى المصطلق، وصحبته أم المؤمنين السيدة عائشة بنت الصديق. وفى طريق العودة أناخ الركب قرب المدينة فباتوا بعض الليل ثم ارتحلوا، وما يدرون أن أم المؤمنين تخلفت عنهم، حتى افتقدوها فى هودجها حين بلغوا المدينة فى الصبح. وقبل أن يشتد القلق عليها، وصلت على بعير يقوده (صفوان ابن المعطل السلمى) وحدثت زوجها المصطفى عن سبب تخلفها فما أنكر منه شيئا: كانت قد خرجت من هودجها من العسكر لبعض حاجتها، قبل أن يؤذن فيه بالرحيل. وكان فى عنقها عقد من جزع انسل منها فالتمسته حتى وجدته، واتجهت إلى هودجها فإذا الركب قد رحلوا واحتملوه، لم يحسوا أنها ليست فيه، لخفة وزنها. تلفعت بجلبابها وانتظرت فى مكانها واثقة أنهم لن يلبثوا أن يفتقدوها فيرجعوا إليها. وحدث أن مر بها (صفوان) فأنكر أن يتركها وحدها فى الخلاء، وقدم بعيره إليها ثم استأخر عنها حتى ركبت، فانطلق يقود بها حتى أبلغها مأمنها فى المدينة. ونسج المنافقون واليهود فرية الافك، من هذا الحادث العارض. [صفحه ۲۷۴] ورددها ناس من المسلمين فبلغت سمع زوجها المصطفى وأبيها الصديق وأمها، أم رومان. فصكت آذانهم، وإن لم يجرؤ أحد منهم على مواجهة السيدة عائشة بالشائعة الخبيثة، إذ كانت تشكو من علة. ولما أحست جفوة من زوجها المصطفى استأذنته فى الانتقال إلى أمها لتمرضها، فأذن لها. بعد بضع وعشرين ليلة، نقهت من علتها فخرجت من بيت أبيها لبعض حاجتها، ومعها (أم مسطح بنت أبى رهم بن المطلب بن عبد مناف) وإذ هما فى الطريق عثرت السيدة عائشة فى مرطها، فقالت رفيقتها: (تعس مسطح). فأنكرت السيدة ما سمعت، وقالت: (بئس لعمر الله ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرا). سألتها أم مسطح: (أوما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟) ولاول مرة، سمعت السيدة عائشة بفرية الافك، فارتاعت وهرعت إلى أمها، تسألها باكية: (يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئا ؟). فلم تملك أمها إلا أن تقول: (أى بنية، خفضى عليك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة [صفحه ۲۷۵] حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها). لكن ذلك لم يهون عليها من محنة الفرية الخبيثة التى امتحنت بها، وإن لم تدر ماذا عساها أن تصنع، إلا أن تكل أمرها إلى الله سبحانه. وفى المسجد النبوى، كان زوجها عليه الصلاة والسلام، يحاول أن يرد عنها ألسنة السوء، فيقول: (يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى

ويقولون عليهم غير الحق ؟ والله ما علمت منهم إلا خيرا. ويقولون ذلک لرجل والله ما علمت منه إلا خيرا، وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى). فتنفذ كلماته إلى قلوب المؤمنين، ويثورون غضبا للسيدة الكريمة، ويتماسک الاوس والخزرج متصايحين مطالبين بأعناق أصحاب الافک من هؤلاء وهؤلاء. حتى كاد يكون بين الحيين شر) [۶۱] وخيف على المجتمع الاسلامى من التصدع، وخيف على السيدة عائشة من وطأة الحزن والقهر. حتى حسم القرآن الكريم تلک الفرية الفاحشة بآيات النور: (إن الذين جاءوا بالافک عصبة منكم، لا ـ تحسبوه شرا لكم بل هو خير، لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولى كبره [صفحه ۲۷۶] منهم له عذاب عظيم – لولا ـ إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا أفک مبين –). إلى قوله تعالى: (ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فى ما أفضتم فيه عذاب عظيم – إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم – ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانک هذا بهتان عظيم – يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين – ويبين الله لكم الايات، والله عليم حكيم – إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون –). (صدق الله العظيم) وكان (عبدالله بن أبى بن سلول) هو الذى تولى كبر ذلک الافک. فى أم المؤمنين عائشة، أحب أزواج المصطفى إليه وأحظاهم عنده. بنت أبى بكر الصديق، أقرب الصحابة إلى المصطفى وأعزهم عليه، وأول السابقين إلى الاسلام ! فهل حانت المواجهة الحاسمة، مع مرضى القلوب المنافقين ؟ كلا، بل يمكن أن تنتظر ريثما يأمن الاسلام شر يهود ويحسم المعركة مع الوثنية العربية. [صفحه ۲۷۷] وهذه المعركة أيضا تحتمل الهدنة بعض الوقت، وقد عقدت الهدنة فى (الحديبية) فى أواخر السنة السادسة للهجرة. وبعدها، فى مستهل السنة السابعة، كان مسير المصطفى إلى يهود خيبر الذين سارعوا إلى حصونهم يحتمون بها، فتساقطت حصنا بعد حصن، حتى إذا لم يبق لهم سوى حصنى الوطيح والسلالم، بعثوا وافدهم إلى نبى الاسلام، يسألونه أن يحقن دماءهم ويكتفى منهم بالجلاء. وأجاب المصطفى سؤلهم، وتركهم يجلون عن (خيبر) هائمين على وجوههم فى الفلاة. بعد سقوط خيبر، انتهت قصة الاستعمار اليهودى لشمال الحجاز، لم يبق من عصاباتهم سوى فلول مبعثرة فى فدک ووادى القرى وتيماء، حتى كان أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) هو الذى طهر جزيرة العرب من بقاياهم. وعاد اليهودى التائه إلى ضلاله القديم، يضرب فى التيه من بادية الشام، تلفظه الارض حيث أقام، وتطارده اللعنة أينما حط أو سار. (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما). (صدق الله العظيم) [صفحه ۲۷۸]

فى الجبهة القرشية: من هدنة الحديبية إلى الفتح

(وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) (سورة الاسراء) كانت غزوة خيبر، فى السنة السابعة للهجرة. قبلها، فى آخر السنة السادسة، كانت هدنة الحديبية مع قريش، وبيعة الرضوان. أقام المصطفى بالمدينة شهرى رمضان وشوال، ثم خرج فى ذى القعدة قاصدا إلى العمرة، لا يريد حربا. ومعه مئات من الصحابة، المهاجرين والانصار: فى رواية أنهم كانوا سبعمائة، وفى أخرى أنهم زادوا على ذلک بضع مئات [۶۲] وسار الركب النبوى من المدينة، يحدوه الشوق إلى زيارة (البيت [صفحه ۲۷۹] الحرام) مهوى أفئدتهم وقبلة صلاتهم، والحنين إلى (أم القرى) بعد ست سنين من الهجرة والاغتراب. فى الطريق إلى مكة، لقى الرسول عليه الصلاة والسلام من أنبأه بخبر احتشاد قريش لصده ومن معه عن المسجد الحرام، فتطوع رجل من الصحابة، وسلک بالركب طريقا وعرا غير الطريق التى لقريش. حتى وصلوا إلى (الحديبية) من أسفل مكة، وعندئذ لمحتهم خيل قريش، فطارت إلى مكة بالنبأ. من مكة، جاء وافد خزاعى (بديل بن ورقاء) مع نفر من قومه، يسألون المصطفى: – ما الذى جاء بک ؟ فأخبرهم عليه الصلاة والسلام أنه لم يأت يريد حربا، وإنما جاء زائرا للبيت ومعظما لحرمته. وعاد الخزاعيون إلى مكة، يؤكدون لقريش أنه ما جاء لقتال، وينصحون لهم ألا يعجلوا عليه، وأن يدعوه وما جاء له من زيارة البيت العتيق. فاتهمهم طواغيت المشركين، وردوا فى عناد وسفه: (وإن كان جاء ولا يريد قتالا،

فوالله لا يـدخلها علينا عنوة أبـدا، ولا تتحدث بذلك عنا العرب). [صـفحه ۲۸۰] وتتـابعت رسل قريش، تحاول أن ترد المصـطفى عما جاء له، وهو عليه الصـلاة والسـلام يؤكد لكل وافد منهم، أنه ما جاء لقتال. ويعودون إلى طواغيت قريش بما قاله عليه الصـلاة والسلام فيلقونهم بالمكروه من القول والاتهام. حتى ضاق ذوو الحلم بهذا التمادى فى السفة والاعنات. قال أحدهم - الحليس بن علقمة، وكان سيد أحابيش مكة - غاضبا متوعدا: (يا معشـر قريش ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم. أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ؟ والـذى نفس الحليس بيـده، لتخلن بين محمـد وبين مـا جـاء له، أو لأنفرن بالاحابيش نفرة رجل واحـد). وقال (عروة بن مسـعود الثقفى) قبل أن يستجيب لهم فيخرج إلى المصـطفى، فى محاولـة أخيرة لحسم الموقف دون قتال: (يا معشـر قريش، إنى قـد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمـد إذ جاءكم، من التعنيف وسوء اللفظ. وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد - أمه: سبيعة بنت عبد شـمس - وقـد سـمعت بالذى نابكم، فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسـى). قالوا يحثونه على مفاوضة المصـطفى، عنهم، ليحول دون مكـة والحرب: (صدقت، ما أنت عندنا بمتهم) [۶۳] . [صفحه ۲۸۱] خرج (عروة) حتى أتى المصطفى عليه الصلاة والسلام فى مناخه عند الحديبية، فجلس بين يديه وقال فى تؤدة، يذكر محمد بن عبدالله بما يهدد بلدته، أم القرى: (يا محمد، أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضـتك لتفضـها بهم ؟ إنها قريش، قـد خرجت معها العوذ المطافيل، قـد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تـدخلها عليهم عنوة أبـدا. وايم الله لكـأنى بهؤلاء - الـذين معك - قـد انكشـفوا عنك غـدا). وأنكر أبو بكر الصـديق ما سـمع، فاعترض يقول من مكانه خلف الرسول: أنحن ننكشف عنه ؟ ورد (عروة) وقد عرفه: (أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها، ولكن هـذه بها). وحف الصـحابة بالمصـطفى وهو يرد على وافد قريش، بمثل ما قاله لمن سـبقوه: إنه لم يأت يريد حربا. وعاد (عروة) إلى قريش، يحـدثها عما رأى وما سـمع، من حب أصـحاب محمـد لمحمـد، وتفانيهم فى القيام دونه: (يا معشـر قريش، إنى قـد جئت كسرى فى ملكه، وقيصر فى ملكه، والنجاشى فى ملكه، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط، مثل محمد فى أصحابه. ولقد رأيت قوما لا يسـلمونه لشـئ أبدا، فروا رأيكم). [صـفحه ۲۸۲] ولاحـت النـذر: بعثت قريش أربعين رجلا منهم أو خمسـين، وأمروهم أن يطيفوا بعسـكر رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا. وأخذتهم فئة من الصحابة أخذا، فجئ بهم إلى المصطفى فعفا عنهم وخلى سبيلهم، بعـد أن رموا فى عسـكر المسـلمين بالحجارة والنبل. وجاء دور المصـطفى ليحاول رد قريش عن غيها، كى تخلى طريقه إلى البيت الحرام. بعث إليهم صـاحبه وصـهره: عثمان بن عفان - وهو من صـميم عبـد شـمس - ليكرر عليهم أن المصـطفى لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرا لهـذا البيت، ومعظما لحرمته. قالت قريش لعثمان تسترضـيه، بعد أن أدى رسالة المصـطفى: (إن شـئت أن تطوف بـالبيت فطف). ورد رضـى الله عنه: (مـا كنت لافعل حتى يطوف به رسول الله صـلى الله عليه وسـلم). وبـدا لقريش، فاحتبسـت عثمان عنـدها، لعل ذلك يجـدى عليها من حيث فشل مسـعاها. وخرجت من مكـة شائعـة تقول: إن عثمان بن عفان قـد قتل. فما بلغت سمع النبى حتى قال عليه الصلاة والسلام: (لا نبرح حتى نناجز القوم). [صفحه ۲۸۳] ودعا أصحابه إلى البيعة على ذلك، فكانت (بيعة الرضوان) تحت الشـجرة هناك. وفيها نزلت آيات الفتـح: (إن الـذين يبايعونك إنما يبايعون الله يـد الله فوق أيـديهم، فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بمـا عاهـد عليه الله فسـيؤتيه أجرا عظيمـا). ولكن الخبر اليقين ما لبث أن جاء بأن (عثمان لم يقتل) وكانت بيعة الرضوان قد رابت قريشا، وأكدت لها تصـميم هذه القلة المؤمنة، على الصـمود والاستبسال. ومهما يكن من حمية قريش الجاهلية، فليست بحيث تسـتبعد أن ينتصـروا عليها، لو نشب قتال. قبلها، انتصـروا فى (بدر) وكانوا أقل عددا، وكانت قريش، على عددها وعدتها أقوى أملا فى الغلبـة. كلا. ما ينبغى أن ينشب قتال، بعـد عبرة بـدر التى تحـددت فيها موازين القوى. من مكـة، جاء (سـهيل بن عمرو) مبعوثا من قريش، للمفاوضـة على الصـلح. وتركت لسـهيل حريـة التصـرف، لم تشترط عليه فى الصـلح، (إلا أن يرجع محمد عن مكة عامه هـذا، فوالله لا تحـدث العرب أنه دخلها عليهم عنوة أبـدا). [صـفحه ۲۸۴] ودارت المفاوضـة بين المصـطفى وبين مبعوث قريش، وتراضـيا على أن يرجع محمـد بأصـحابه عن مكـة هـذا العام، على أن يعودوا فى الموسم القابل فيدخلوها ويقيموا بها ثلاث ليال، بغير سلاح إلا سـلاح الراكب: السـيوف فى القرب. واتفقا على هدنة مداها عشـر سنين، من جاء المسلمين من قريش فيها ردوه إليهم، ومن

جاء قريشا من المسلمين لم يردوه. وكان أصحاب المصطفى يتابعون هذه المفاوضة بينه صلى الله عليه وسلم، وبين سهيل بن عمرو. وقد غاب عن بعضهم مغزى شروطها وحكمتها: هدنة، تسمح للمصطفى أن يفرغ للعصابات اليهودية ويحسم شرها. ولا بأس على من يرد إلى قريش، فذاك ابتلاء لعقيدته. ولا خير فيمن يجئ قريشا من المسلمين، فلا جدوى من رده إليهم، ولا حاجة لهم إليه. وإذ تم التراضي على شروط الصلح ولم يبق إلا ـ أن يكتب، وثب عمر بن الخطاب فقال لابى بكر: - يا أبا بكر، أليس برسول الله ؟ قال الصديق: بلى. وتابع عمر أسئلته: (ألسنا بالمسلمين ؟ (أليسوا بالمشركين ؟ [صفحه ۲۸۵] (فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟) وأبو بكر، يحاول رده إلى التسليم بحكمة ما يرضى به رسول الله. ويمضى (عمر) إلى المصطفى فيسأله مثل ما سأل أبا بكر: - يا رسول الله، ألست برسول الله ؟ - أو لسنا بالمسلمين ؟ - أو ليسوا بالمشركين ؟ - فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ وانتظر عليه الصلاة والسلام حتى فرغ صاحبه من كل ما أراد ان يقول، ثم لم يزد على أن قال: (أنا عبدالله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعنى). ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ابن عمه (على بن أبى طالب) وأملى عليه نص وثيقة الهدنة فكتبها [۶۴] وأشهد على الصلح رجالا من المسلمين، وآخرين من المشركين. ثم قام عليه الصلاة والسلام إلى هديه فنحره، وحلق شعره. وكان قد دعا أصحابه إلى أن يفعلوا، فتردد منهم من لم يكونوا راضين عن شروط الصلح، ثم ما هو إلا ـ أن رأوا المصطفى ينحر هديه ويحلق شعره، حتى تواثبوا جميعا ينحرون ويحلقون [۶۵] . [صفحه ۲۸۶] وما لبثوا أن أدركوا حكمة هذا الصلح الخطير الذى عده القرآن فتحا مبينا. وفيه نزلت سورة الفتح، يقول فيها تعالى لرسوله المصطفى: (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا - ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما - وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما - وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها، وكان الله على كل شئ قديرا -). (صدق الله العظيم) بعدها كان السير إلى خيبر. هل هلال المحرم من السنة السابعة للهجرة، وقد رجع المصطفى صلى الله عليه وسلم من الحديبية، والمدينة فى موقف ترقب وانتظار. من طريق مكة، جاء رجل يسعى، عرفت فيه المدينة (أبا العاص ابن الربيع) فكأنها كانت فى انتظاره. ولم يكن قد مضى غير سبعة أشهر على وداعها إياه ! مر قريبا منها، فى جمادى الاولى من السنة السادسة، فى طريق عودته من الشام إلى أم القرى، فى مال له ولقريش. فعرضت له سرية إسلامية أصابت كل ما معه، وأفلت منها مع الفجر إلى أم ولديه، بنت خالته (زينب [صفحه ۲۸۷] بنت محمد) عليه الصلاة والسلام، مستجيرا بها. ولم تكن رضى الله عنها قد رأته منذ ودعها إلى دار الهجرة وقد فرق الاسلام بينهما، بعد أن افتدته من الاسر يوم بدر، بقلادة أمها وأم المؤمنين، خالته السيدة خديجة. وفى هدأة الفجر سرى صوت زينب: (أيها الناس، إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع) فبلغ سمع أبيها عليه الصلاة والسلام وهو يصلى بالناس فى مسجد المدينة، فلما سلم سأل من حوله إن كانوا قد سمعوا ما سمع ؟ أجابوا: نعم يا رسول الله. قال: أما والذى نفس محمد بيده، ما علمت بشئ من ذلك حتى سمعت ما سمعتم. وأضاف بعد صمت قصير: (إنه يجير على المسلمين أدناهم، وقد أجرنا من أجارت). ثم انصرف عليه الصلاة والسلام فدخل على ابنته وعندها ابن خالتها أبو ولديها (على، وأمامة) فما كادت ترى أباها حتى قالت توضح موقفها: (يا رسول الله، إن أبا العاص إن قرب فابن عم، وإن بعد فأبو ولد، وإنى قد أجرته). قال الاب عليه الصلاة والسلام: (أى بنية، أكرمى مثواه، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له) وتركهما وما يدريان علام استقر رأيه فيهما. [صفحه ۲۸۸] ولاحت لهما من بعيد رؤيا ماضيهما السعيد والشمل مجتمع والبال خلى، وتذكرت زينب أن قد طال عليهما الامد - سنين عددا - فى انتظار تحقق أملها الذى لم تتخل عنه قط: أن يشرح الله سبحانه صدر أبى العاص للاسلام. وسمعته يقول: (لقد عرضوا على بالامس أن أسلم وآخذ ما معى من أموال فإنها أموال المشركين، فأبيت قائلا: بئس ما أبدأ به إسلامى، أن أخون أمانتى). فرنت إليه زينب، تفكر فى مغزى ما سمعت. وفى الصبح، بعث المصطفى عليه الصلاة والسلام من صحب أبا العاص إلى المسجد، وفيه رجال السرية الذين أصابوا مال أبى العاص. قال لهم عليه الصلاة والسلام: (إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالا، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فئ الله الذى أفاء عليكم وأنتم أحق به.) أجابوا جميعا: يا رسول الله، بل نرده عليه. وتأهب أبو العاص للرحيل إلى

مكة، فقال عليه الصلاة والسلام وهو يودعه: (حدثني فصدقني، ووعدني فوفي لي) [صفحه ۲۸۹] وتوقعت دار الهجرة أن يعود إليها. وهذا هو قد عاد مع هلال السنة الهجرية السابعة. بعد أن صفي حسابه بمكة، ودفع إلى أهلها ما خرج فيه من مالهم إلى الشام. ثم وقف في الحرم المكي هناك، يسأل بأعلى صوته: (يا معشر قريش، هل بقي لاحد منكم عندي مال لم يأخذه ؟) قالوا: (لا، فجزاك الله خيرا، فقد وجدناك وفيا كريما). فأدار بصره في الجمع الحاشد، ثم قال على مهل: (فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، والله ما منعني من الاسلام إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم، وفرغت منها، أسلمت) [۶۶] وخلف القوم واجمين كأنما انقضت عليهم صاعقة، وانطلق مستقبلا دار الهجرة وكأنه معها على موعد. اتجه فور وصوله إلى المسجد النبوي، فهلل المسلمون وكبروا حين رأوه يبايع النبي صلى الله عليه وسلم، وحفوا به مهنئين مرحبين، لكنه كان مشغول البال عنهم بأمر أهمه: أترى يرد إليه المصطفى ابنته الحبيبة (زينب) زوجا، بعد الذي كان ؟ [صفحه ۲۹۰] وساوره قلق، ثم ذكر أن الاسلام يجب عما قبله، فتقدم إلى المصطفى يلتمس أن يجيبه إلى حاجته في استرجاع (زينب). أثنى المصطفى عليه خيرا، ثم قام صلى الله عليه وسلم وسار إلى بيته، ومعه ابن الربيع. ودعا إليه ابنته، فردها على أبي العاص. واجتمع الشمل الممزق، بعد فراق طال. ومضى عام واحد، ثم كان الفراق الذي لا لقاء بعده في هذه الدنيا. ماتت (زينب) في مستهل السنة الثامنة للهجرة، وتركت لزوجها أبي العاص ذكراها الحية، وولديها عليا وأمامة، حتى لحق بها بعد أربع سنين. في فترة الهدنة مع قريش، وبعد أن تطهرت المنطقة الاسلامية من الوباء اليهودي. اتجه تفكير المصطفى إلى نشر دعوته خارج بلاد العرب، فبعث رسلا من أصحابه بكتب منه إلى الملوك والحكام لعهده، يدعوهم إلى الاسلام بالحسنى، امتثالا لامر الله الذي بعثه إلى الناس كافة: أرسل المصطفى: (دحية بن خليفة الكلبي) إلى قيصر، امبراطور الروم. و (عبدالله بن حذافة السهمي) إلى كسرى فارس. [صفحه ۲۹۱] و (عمرو بن أمية الضمري) إلى نجاشي الحبشة. و (حاطب بن أبي بلتعة) إلى المقوقس عظيم القبط. و (عمرو بن العاص) إلى ملكي عمان. و (سليط بن عمرو) إلى ملكي اليمامة. و (العلاء بن الحضرمي) إلى المنذر العبدي ملك البحرين. و (شجاع بن وهب الاسدي) إلى الحارث الغساني بالشام. و (المهاجر بن أبي أمية المخزومي) إلى الحارث بن عبد كلال الحميري ملك اليمن. ثم وجه المصطفى عليه الصلاة والسلام، عناية خاصة إلى بلاد الشام، حيث تمد إمبراطورية الروم سلطانها إلى شمال الجزيرة العربية، وتفرض نفوذها المادي والمعنوي على أهل المنطقة، بالبطش والارهاب. وفي جمادى الاولى من سنة ثمان للهجرة، جهز عليه الصلاة والسلام جيشا لغزوة مؤتة، أول غزوة سيرها المصطفى إلى خارج بلاد العرب، تأمينا لحدودها من ناحية الروم، وتدريبا لجند الاسلام على لقاء عدو ذي صولة وصلف، واتجاها بالدعوة الاسلامية إلى ما وراء الحدود. واختار صلى الله عليه وسلم (زيد بن حارثة) أميرا على الجيش وقال: (إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة على الناس). [صفحه ۲۹۲] كان عددهم ثلاثة آلاف، أسلحتهم الحربية السيوف والقسي والرماح والنبل والسهام، وزادهم التمر والخبز الجاف وما قد يتيسر لهم من صيد. وساروا حتى نزلوا (معان) من أرض الشام، فبلغهم أن (هرقل) قد نزل مآب من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، انضمت إليهم ألوف وألوف من لخم وجذام والقين وبهراء وبلي. وتشاور المسلمون في خطر الموقف، وكان رأي عدد منهم ألا ـ يجازفوا بلقاء الروم في معركة تفني جند الصحابة. وأن يكتبوا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، عسى أن يمدهم بالرجال أو يأمرهم بالعودة إلى المدينة. لكن (عبدالله بن رواحة) أبى إلا أن يتقدموا للقتال لا ـ ينكصون، قال: (يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة). هتف جند الاسلام: قد والله صدق ابن رواحة. ومضوا حتى إذا بلغوا تخوم البلقاء لقيتهم جموع هرقل، فانحاز المسلمون إلى قرية (مؤتة) وقاتل (زيد بن حارثة) بلواء المصطفى حتى استشهد، فتلقى جعفر بن أبي طالب اللواء بيمينه، فقاتل به حتى [صفحه ۲۹۳] قطعت، فأخذه بشماله حتى قطعت، فاحتضنه بعضديه حتى استشهد. وتلقى اللواء من بعده (عبدالله بن رواحة) فما تخلى عنه حتى استشهد، فكانت له إحدى الحسنيين التي أراد. واختار المسلمون (خالد بن الوليد قائدا)، فلم ير أن يعرض جنده للهلاك، وظل يدافع الروم في بسالة ومهارة وهو ينحاز بجنده

حتى نجا بهم، لم يتركوا من ورائهم غير ثمانية شهداء، كانت دماؤهم الزكية هى التى مهدت أرض الشام للفتح الاسلامى بعد نحو عشر سنين ! استقبلت المدينة الجيش العائد من مؤتة بالغضب والانكار، وجعل الناس يحثون التراب على جنود خالد بن الوليد ويقولون: - يا فرار، فررتم فى سبيل الله ؟ والمصطفى يرد عنهم الناس ويقول: (ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله) ويمضى وقت، نحو شهرين: جمادى الاخرة ورجب، فى بطء مرهق بالتوتر، وعلى الافق نذر. لم يكن هناك يهود يلوكون حديث مؤتة، ولكن المنافقين كانوا هناك فى صميم المجتمع المدنى، لا يكتمون شماتتهم ولا يكفون عن سخرية بما حسبوه تطاولا من المؤمنين إلى تخوم الروم. وقريش تزداد حمقا وتطاولا، فتظاهر بكرا على خزاعة وترفدها [صفحه ۲۹۴] بالسلاح، لا تبالى عهد الحديبية، وفيه النص على (أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم فليدخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه). وخزاعة كانت قد اختارت الدخول فى عقد الرسول وحلفه، فبيتتها (بكر) بالوتير، وأمعنت فيها قتلا بسلاح قريش ! وتمهل المصطفى، لعل قريشا ترجع عن غيها فيما نقضت من عهد الحديبية، بما ظاهرت بكرا على خزاعة، وهى فى عقد الرسول وعهده ! (المدينة) تهدر بالغضب والقلق والترقب. والمصطفى هناك قد أخذ مجلسه بين أصحابه فى مسجده، وما يدرى أحد خطوته التالية. وفجأة، تعلقت الابصار برجل، يشق طريقه فى زحام الناس حتى يصل إلى مجلس الرسول عليه الصلاة والسلام، فيقف عليه، ويلتقط أنفاسه من سفر بعيد. وعرف المهاجرون فيه (عمرو بن سالم الخزاعى). وانتظروا ماذا يكون من أمره، فانصرف عمرو عنهم وابتدر المصطفى ينشده مرتجزا: يا رب إنى ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الا تلدا قد كنتم ولدا وكنا والدا [صفحه ۲۹۵] ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا فانصر هداك الله نصرا أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا فيهم رسول الله قد تجردا إن سيم خسفا وجهه تربدا فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكدا وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا هم بيتونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا قال عليه الصلاة والسلام: (نصرت يا عمرو بن سالم) ثم قام يتجهز لفتح مكة. [۶۷] الوقت مساء. المدينة ساهرة تحتشد للتعبئة، وقد أوشك جند الاسلام على المسير إلى مكة. [صفحه ۲۹۶] ووافد من مكة جاء يسعى حثيثا حتى بلغ بيت أم المؤمنين (أم حبيبة، رملة بنت أبى سفيان) فى دور النبى المحيطة بمسجده. واستأذن فدخل، وأم المؤمنين لا تكاد تصدق أنه والدها (أبو سفيان بن حرب) ! هل جاء مبايعا، بعد أن طال ضلاله وأهلك قومه ؟ لو كان قد جاء مسلما، لما تردد فى أن يعجل إليها بالبشرى، فيضع حدا لما كابدته من هم، فى موقفها بين زوجها وأبيها ! وقد كان الموقف صعبا: من قبل أن تشرف (رملة) بالزواج من المصطفى، آمنت به نبيا مع زوجها الاول (عبيد الله بن جحش) وهاجرت معه إلى الحبشة. فلم يلبث أن ارتد عن الاسلام، وتركها تموت بقهرها، لولا ـ أن واساها عليه الصلاة والسلام، وشرفها بأن أرسل إلى ابن عمه (جعفر ابن أبى طالب) فخطبها إليه فى بلد النجاشى. وعادت من مهاجرها مع جعفر، يوم فتح خيبر، وأخذت مكانها الرفيع فى بيت النبى، فما كانت امرأة أعز منها بزوج وأشقى بأب ! فإن لم يكن أبوها قد جاء من مكة مبايعا، فلعله موفد من مشركى قريش، يتوسل بابنته إلى زوجها نبى الاسلام، ليجدد الهدنة التى نقضها القرشيون ! وانتظرت أم المؤمنين، لم تدع أباها إلى الجلوس حتى تعلم فيم جاء ! [صفحه ۲۹۷] وتقدم هو من تلقاء نفسه، فهم بالجلوس على فراش هناك، فسبقته إليه أم المؤمنين وطوته عنه. سألها وهو يتجاهل مغزى ما فعلت: - يا بنية، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش، أم رغبت به عنى ؟ فما راعه إلا أن أجابت: (بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنت مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراشه صلى الله عليه وسلم). قال أبو سفيان مقهورا: - والله يا بنية، لقد أصابك بعدى شر ! [۶۸] وخرج بحسرته، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد مع جمع من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر. ووقف بين يدى المصطفى، يعتذر عن قريش ويسأله أن يستبقى الهدنة، فما رد عليه المصطفى بكلمة. واتجه أبو سفيان إلى الصديق أبى بكر، يرجوه فى أن يكلم النبى عليه الصلاة والسلام، فما زاد الصديق على أن قال: (ما أنا بفاعل !). والتمس أبو سفيان الشفاعة عند الرسول، من عمر بن الخطاب، فكان رد عمر: (أأنا أشفع لكم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فوالله لو لم [صفحه ۲۹۸] أجد إلا الدر لجاهدتكم به !). ونقل أبو سفيان بصره فى القوم، فما وجد ألا ـ الصد والجفاء. وقاوم يأسه، فخرج متعثرا فى حيرته حتى بلغ بيت (على بن أبى طالب) صهر

المصطفى وابن عمه، فقص عليه ما كان من أمره مع ابنته رملة، ثم مع الرسول وصاحبيه أبى بكر وعمر. وقال يستنجد بابن أبى طالب، ويذكر جدهما (قصى بن كلاب) والد عبد مناف وعبد شمس: (يا على، إنك أمس القوم بى رحما، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا، فاشفع لى إلى صهرك وابن عمك). رد على، كرم الله وجهه: (ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم الرسول صلى الله عليه وسلم على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه). فالتفت أبو سفيان إلى (الزهراء) وكانت حتى هذه اللحظة صامتة لا تشارك فى حديث، فقال لها وهو يشير إلى ابنها (الحسن بن على) سبط النبى: (يا ابنة محمد، هل لك أن تأمرى بنيك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟) ردت الزهراء: (والله ما بلغ بنى أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول [صفحه ۲۹۹] الله صلى الله عليه وسلم). ولم يبق إلا أن ينصرف. غير أنه لم يكن يدرى إلى أين، وقد أوصدت الابواب فى وجهه. وتمهل برهة فقال لعلى: - يا أبا الحسن، إنى أرى الامور قد اشتدت على، فانصحنى. قال على: (والله ما أعلم لك شيئا يغنى عنك شيئا، ولكنك سيد فى بنى كنانة، فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرضك). سأله: (أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟) فرد على: (لا والله ما أظنه، ولكنى لا أجد لك غير ذلك) [۶۹] على ناقته (القصواء) التى خرجت به من غار ثور، قبل ثمانى سنين، طريدا مستخفيا مهاجرا، أعزل إلا من إيمانه، ليس معه غير صاحبه أبى بكر، والله ثالثهما. دخل صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، فى عشرة آلاف من جند الله. وفتحت أم القرى قلبها للنبى العائد، ومن معه من أبنائها المهاجرين [صفحه ۳۰۰] وأصحابه الانصار. ولم يدر يومها قتال، وكأنما عاشت أم القرى فى انتظار هذه اللحظة التاريخية، لتتحرر من أغلال الوثنية. وكأنما كان أهلها، جيرة الحرم الاقدس، يتطلعون إلى اليوم الذى يكفون فيه عن حرب عقيم، بعد أن فقدوا إيمانهم بالاوثان التى حاربوا من أجلها، فما أغنت عنهم شيئا ! وعلى راحلته، طاف عليه الصلاة والسلام بالبيت العتيق سبعا، وسط الجموع الحاشدة من الناس، ثم ترجل فدخل البيت خاشعا، وقام يصلى بالمسلمين فى الحرم المكى الذى تطهر يومئذ من رجس الاوثان. وتجاوبت الآفاق بدعائه: (الله أكبر، لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وهزم الاحزاب وحده). والجموع من حوله تردد الدعاء فتخشع له صم الجبال. والتفت إلى أهل مكة، بعد أن خطب خطبة الفتح، فقال: (يا معشر قريش، ما ترون أنى فاعل بكم ؟) قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال عليه الصلاة والسلام: (اذهبوا فأنتم الطلقاء !) [صفحه ۳۰۱] وباتت مكة يوم الفتح، وليس فى حرمها رجل ولا امرأة، إلا مسلما أو مسلمة. وأصبح الناس ذات يوم بعد الفتح، وقد خرجت قالة من منازل الانصار، تعبر عن قلقهم، أن يبقى المصطفى فى مكة، بعد أن رأوه يسخو فى عطاء المكيين، تأليفا لقلوبهم وهم حديثو عهد بالاسلام. قالوا: (لقد لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه). وبلغت قالتهم سمع المصطفى، نقلها إليه (سعد بن عبادة) شاكيا له عليه الصلاة والسلام ما تجد الانصار من قلق وضيق. سأله المصطفى: (فأين أنت من ذلك يا سعد ؟) ورد نقيب الانصار: - يا رسول الله، ما أنا إلا من قومى ! فلم يضق عليه الصلاة والسلام بصاحبه، بل طلب إليه أن يجمع له قومه من الانصار، ثم خرج إليهم المصطفى فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (يا معشر الانصار، ما قالة بلغتنى عنكم وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟). أجابوا: بلى، الله ورسوله أمن وأفضل. [صفحه ۳۰۲] سألهم: (ألا تجيبوننى يا معشر الانصار ؟). فسألوا بدورهم: بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل. قال عليه الصلاة والسلام: (أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم ولصدقتم: أتيتنا مكذبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدا فآويناك، وعائلا فآسيناك، أوجدتم يا معشر الانصار فى أنفسكم، فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الانصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت إمرأ من الانصار، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الانصار شعبا، لسلكت شعب الانصار ! اللهم ارحم الانصار، وأبناء الانصار، وأبناء أبناء الانصار). فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وهتفوا جميعا: - رضينا برسول الله قسما وحظا [۷۰] وكذلك بكى أهل مكة، وقد علموا أن المصطفى يوشك أن ينصرف إلى دار الهجرة التى اختارها منزلا ومقاما. ولكنه صلى الله عليه وسلم، تمهل فى العودة مع الانصار إلى المدينة، ريثما يقضى على فلول الوثنية الناشبة فى بعض القبائل العربية، ومن أهمها: هوازن وثقيف. [صفحه ۳۰۳] وخرج المصطفى فى غزوة حنين إلى هوازن، فى

الآلاف العشرة الذين شهدوا معه فتح مكة، ومعهم ألفان من أهل مكة. وكادت مأساة (أحد) تتكرر. بلغ القائد الرسول بجنده منحدرا في واد من تهامة، سبقهم إليه المشركون من هوازن وأحلافها، فكمنوا لهم في شعابه وأحنائه ومضايقه، ثم انحطوا بغتة في عماية الصبح، فشدوا عليهم، فولوا راجعين لا يلوى أحد على أحد، لم يبق منهم مع المصطفى سوى نفر من المهاجرين والانصار وأهل بيته. يومها تكلم رجال من المنافقين ومن المكيين حديثى العهد بالاسلام بما في أنفسهم من الضغن، وقال أبو سفيان في شماتة: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر. وعقب آخر، جبلة بن الحنبل: ألا ـ بطل السحر اليوم ! وبطل السحر حقا، لكنه سحر الغفلة والضلال. تدارك المصطفى الموقف، فأمر عمه (العباس بن عبدالمطلب) – وكان جهير الصوت – فصاح بالمسلمين يستنفرهم للجهاد مع نبيهم المصطفى، ويسترجعهم إلى أماكنهم حوله، وإن واحدة من الصحابيات (أم سليم بنت ملحان) لتثبت مع القلة المؤمنة وإنها لحامل بعبد الله ابن أبي طلحة، وقد حزمت وسطها ببرد تتقى الاجهاض، ومعها خنجر مشهر، فيقول صلى الله عليه وسلم: (أم سليم ؟) وتجيب: نعم، بأبى أنت وأمى يا رسول الله. اقتل هؤلاء الذين [صفحه ۳۰۴] ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك، فإنهم لذلك أهل. قال عليه الصلاة والسلام: (أو يكفى الله يا أم سليم ؟) [۷۱] ويسألها زوجها أبو طلحة: ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ أجابت: خنجر أخذته، إن دنا منى أحد من المشركين بعجته به. وعاد المسلمون على صوت النفير، والتحم الفريقان وحمى الوطيس، فكان النصر للمؤمنين. وكانت تجربة أخرى، يذكرهم الله بها بعد غزوة تبوك، في السنة التالية، التاسعة للهجرة، فيقول تعالى في سورة التوبة: (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين – ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا، وذلك جزاء الكافرين – ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء، والله غفور رحيم). (صدق الله العظيم) [صفحه ۳۰۵]

مع المنافقين

(ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون). (سورة التوبة) استغرقت تلك الاحداث الكبار، ما بين غزوة مؤتة وفتح مكة وغزوة حنين، شهور السنة الثامنة للهجرة، من جمادى الاولى إلى ذى القعدة. واعتمر المصطفى وعاد إلى المدينة كوعده للانصار، فأقام بها إلى آخر صفر من سنة تسع، وقد نجم النفاق هناك وكثر الحديث عن (مؤتة) يلوك المنافقون فيه ما كان من غلبة الروم، ويتندرون [صفحه ۳۰۶] بسذاجة الآلاف الثلاثة من المسلمين، يطمعون في منازلة الامبراطور هرقل، في مائة ألف من جنده ! وآن الاوان لتطهير دار الاسلام من جيوب النفاق التى كانت تهدده في الصميم، بعد أن انتصر على المشركين من العرب والاعداء من يهود. لقد كمن السم في أول الامر، وإن ظهرت بوادر منه في مثل إصرار (عبدالله بن أبى بن سلول) على أن يجير مواليه من يهود بنى قينقاع، وانخذاله بمن معه من منافقى المدينة، عن جند المصطفى يوم أحد، ثم نشاطه الخبيث في فرية الافك الذى تولى كبره. وتتابعت البوادر مع ثقل أعباء الجهاد وتكاليفه، في غزوة الاحزاب وغزوة مؤتة، ويوم حنين، دون أن يملك أحد أن ينفى المنافقين عن الاسلام وهم يتظاهرون به ويشهدون بألسنتهم أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، يحقنون بهذه الشهادة دماءهم ويعتصمون بها من أن يرجمهم مؤمن بلعنة الردة. والنوايا لله، هو وحده الذى يعلم سرهم ونجواهم فليس للرسول إلا أن يكلهم إليه سبحانه، يحمى دينه منهم ويكشف المستور من كفرهم. وقد جاءت (غزوة تبوك) فمزقت أقنعتهم، بعد أن توالت النذر منبهة إلى أن النفاق قد تمكن من مرضى القلوب حتى صار داء عياء لا [صفحه ۳۰۷] يجدى فيه غير البتر والتطهير. في مستهل رجب من السنة التاسعة للهجرة، أمر المصطفى أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، تثبيتا لجند الله في لقاء عدو مرهوب، وليزيل التهيب الذى تركته التجربة الاولى في مؤتة. وأراد الله سبحانه أن تكون هذه الغزوة امتحانا لايمان المؤمنين، وفاضحة لزيف المنافقين المحسوبين على الاسلام زورا وادعاء. ولم يكن من عادة الرسول القائد، أن يصرح بوجهته في كل مرة يخرج فيها بأصحابه للجهاد، بل يكتفى بالتكنية عنها، تدريبا لجند الاسلام على الامتثال لامر الله والرسول. لكنه في هذه المرة، صرح بوجهته لم يكن عنها، لبعد المسير

وشدة الوقت وكثرة العدو الذى يصمد له، حتى يتأهب المسلمون لذلك أهبتهم [۷۲] وذلك فى زمان من عسرة الناس وشدة من الحر، وحين طابت الثمار بعد جدب، فطاب للناس المقام فى ثمارهم وظلالهم. وبدأ المنافقون منهم ينتحلون الاعذار للتخلف والقعود، حتى إن أحدهم ليقول للمصطفى: - يا رسول الله، أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى [صفحه ۳۰۸] أنه ما من رجل بأشد عجبا بالنساء منى، وإنى أخشى أن رأيت نساء بنى الاصفر - الروم - أن لا أصبر ! فأعرض عنه صلى الله عليه وسلم وقال: (قد أذنت لك). ومشى بعضهم إلى بعض، يتواصون بالقعود قائلين: (لا تنفروا فى الحر). زهدا فى الجهاد وشكا فى المصير، وإرجافا برسول الله صلى الله عليه وسلم. وانبث نفر منهم فى أحياء المدينة يخذلون قومهم ويقولون: (أتحسبون جلاد بنى الاصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟). ولكن هؤلاء وهؤلاء، لم يبلغوا من التخذيل والارجاف، ما بلغته مكيدة كبيرهم (عبدالله بن أبى): لقد وجد اللعين فرصة العمر التى طال انتظاره لها، فتظاهر بالتأهب للخروج، وجمع إليه حشدا من شيعته أهل النفاق ومن اغتر بهم، ثم ضرب عسكره على حدة وانتظر حتى تمت التعبئة للجهاد وخرج المصطفى بجنده من مكة، وما يشك أحد فى أن (ابن أبى بن سلول) ماض وراءه بعسكره، ولم يكن أقل العسكرين ! لكن الخبيث تحرك، لا إلى الشمال فى طريق الجيش المجاهد، وإنما انحاز بعسكره من أسفل مكة إلى الطريق المضاد !. ومضى المصطفى بالمؤمنين من جند الاسلام، وتخلف كل المنافقين، [صفحه ۳۰۹] وتخلف معهم نفر قليل من ذوى العذر، ومن استثقلوا العبء، عن غير شك ولا نفاق ! وفى الطريق لحق بالمصطفى من لم يطيقوا القعود ولهم عذر فيه. منهم اثنان من البكائين، وهم سبعة من الصحابة التمسوا من رسول الله أن يحملهم وكانوا أهل حاجة، فقال عليه الصلاة والسلام: (لا أجد ما أحملكم عليه). فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون. وحدث أن مر اثنان منهم بابن عمير بن كعب النضرى وهما يبكيان، فسألهما عن أمرهما فقالا: - جئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه. فأعطاهما بعيرا له، وزودهما شيئا من تمر، فارتحلا البعير ولحقا بجند المصطفى ! وكذلك لحق بهم من صحا ضميره من غفوته، فكره أن يقعد مع القاعدين وليس من أهل النفاق. فى الخبر أن (أبا خيثمة الانصارى، مالك بن قيس) رجع ذات يوم حار بعد مسير الرسول بأيام. فوجد امرأتين له فى عريشين ببستانه، قد رشت كل منهما عريشها وبردت له فيه ماء، وهيأت له طعاما، فلما رأى ذلك كله أنكره، وقال يحدث نفسه: [صفحه ۳۱۰] - رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الضح والريح والحر، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيإ وامرأة حسناء، فى ماله مقيم ؟ ما هذا بالنصف !. ثم التفت إلى امرأتيه وقال: (والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله صلى الله عليه وسلم، فهيئا لى زادا). وركب راحلته، وخرج يغذ السير حتى لحق بجند الاسلام فى تبوك [۷۳] وفى الطريق أيضا، تخلف الرجل بعد الرجل، ممن خرجوا فى أول الامر مكرهين، ثم استثقلوا مشقة السفر وعبء الجهاد. ويقول الصحابة للمصطفى وهو ماض فى طريقه إلى وجهته: - يا رسول الله، تخلف فلان. فيقول عليه الصلاة والسلام: (دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم. وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه). حتى قيل له مرة: - يا رسول الله، قد تخلف (أبو ذر) وأبطأ به بعيره. فقال المصطفى، مثل ما كان يقوله فى الرجل يتخلف. [صفحه ۳۱۱] لكن أبا ذر لم يتخلف مختارا، وإنما خذله بعيره بعد أن أبطأ به، فما كان منه رضى الله عنه إلا أن أخذ متاعه فحمله على ظهره، ومشى يتبع أثر الركب المجاهد. فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى منزل ببعض مراحل الطريق، نظر ناظر من المسلمين فلمح من بعيد شخصا يمشى، فقال: - يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده. قال عليه الصلاة والسلام وهو ينظر إلى الجهة التى يشير إليها صاحبه: (كن أبا ذر). فلما تأمله القوم، قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر ! ورد المصطفى: (رحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده.) [۷۴] بلغ المصطفى بجنده المؤمنين مدينة (تبوك). وهناك أتاه (يوحنه) صاحب أيلة، فصالح نبى الاسلام وأعطاه الجزية. وكذلك أتاه أهل جرباء وأذرح، فصالحوه على الجزية. وتخلف (أكيدر بن عبدالملك النصرانى) صاحب (دومة) فندب له المصطفى (خالد بن الوليد) فى كتيبة من جنده. فأخرج (أكيدر) أخاه فى فرسان دومة للقاء كتيبة خالد، ودار قتال سقط فيه أخو أكيدر [صفحه ۳۱۲] قتيلا، وانهزم فرسانه.. وعاد خالد بن الوليد إلى معسكر المسلمين، ومعه (أكيدر) قد نزع عنه قباؤه. وكان من ديباج مخوص بالذهب. قال المصطفى وقد رأى أصحابه

يلمسون القباء بأيديهم ويتعجبون منه: (أتعجبون من هذا ؟ فوالذى نفسى بيده، لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة، أحسن من هذا) [۷۵] ثم أطلق المصطفى صاحب دومة، بمصالحة على الجزية. ورجع المصطفى إلى المدينة، بعد أن بنى مسجدا فى (تبوك) وأقام بها بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها إلى ما وراءها من أرض الروم. فماذا عمن تخلفوا بالمدينة لم يخرجوا للجهاد ؟ أتاه المنافقون منهم، يحلفون له ويعتذرون، فلم يملك صلى الله عليه وسلم إلا أن يقبل ظاهر عذرهم، مفوضا أمرهم إلى العليم بما يسرون وما يعلنون. وأما الذين تخلفوا تكاسلا، عن غير شك ولا نفاق، فلم يجدوا ما يعتذرون به، وكرهوا أن يضيفوا إلى ذنب القعود عن الجهاد، وزر اختلاق عذر يقدمونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، كما فعل المنافقون. [صفحه ۳۱۳] وأنكر صلى الله عليه وسلم موقفهم، ونهى أصحابه أن يكلموا أحدا منهم حتى يقضى الله فيهم، وكانوا ثلاثة: (كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية) صدقوه القول أن لم يكن لهم عذر. ونبذهم المجتمع الاسلامى نبذا أليما، وكابدوا من تأنيب النفس اللوامة، ما الموت أهون منه وأرحم، وأترك لاحدهم (كعب بن مالك الانصارى) أن يصف محنته وصاحبيه، فيما روى ابن اسحق بالسيرة النبوية، عن الزهرى عن عبدالرحمن بن كعب عن أبيه قال: (ما تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة غزاها قط، غير أنى تخلفت عنه فى بدر، وكانت غزوة لم يعاتب الله ولا رسوله أحدا تخلف عنها. (ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة وحين تواثقنا على الاسلام، وما أحب أن لى بها مشهد بدر، وإن كانت غزوة بدر هى أذكر فى الناس منها - يعنى: من العقبة. (وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك، أنى لم أكن قط أقوى ولا- أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة. (وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها إلا ورى بغيرها. حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها صلى الله عليه وسلم فى حر شديد واستقبل سفرا بعيدا، واستقبل غزو عدو كثير، فجلى للناس أمرهم ليتأهبوا لذلك أهبته، والمسلمون كثير، لا يجمعهم [صفحه ۳۱۴] كتاب حافظ - أى ديوان مكتوب - فقل رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحى من الله. (فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم وتجهز المسلمون معه، وجعلت أغدو لاتجهز معهم فأرجع ولم أقض حاجة فأقول فى نفسى: (أنا قادر على ذلك إذا أردت) فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى شمر بالناس الجد فأصبح صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازى شيئا، فقلت: (أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم). فغدوت بعد أن فصلوا لاتجهز، فرجعت ولم أقض شيئا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا. فلم يزل ذلك يتمادى بى حتى أسرعوا وتفرط الغزو - يعنى فات وسبق - فهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنى فعلت، فلم أفعل. (وجعلت إذا خرجت فى الناس بالمدينة بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فطفت فيهم، يحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مطعونا عليه فى النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء. (ولم يذكرنى صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم: (ما فعل كعب بن مالك ؟) فقال رجل من بنى سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه والنظر فى عطفيه. فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا منه إلا خيرا. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم. (فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من [صفحه ۳۱۵] تبوك، حضرنى بثى، فجعلت أتذكر الكذب وأقول: (بماذا أخرج من سخطة رسول الله صلى الله عليه وسلم غدا ؟) وأستعين على ذلك كل ذى رأى من أهلى. فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما، زاح عنى الباطل وعرفت أنى لا أنجو إلا بالصدق، فأجمعت أن أصدقه. وصبح رسول الله بالمدينة، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس. فلما فعل جاءه المخلفون فجعلوا يحلفون له ويعتذرون، وكانوا بضعة وثمانين رجلا. فيقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وأيمانهم ويستغفر لهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى. حتى جئت فسلمت، فتبسم تبسم المغضب، ثم قال لى: (تعاله) فجئت أمشى حتى جلست بين يديه فقال لى: (ما خلفك ؟ ألم تكن ابتعت ظهرك ؟) قلت: إنى يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلا. ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديثا كذبا لترضين عنى، وليوشكن الله أن يسخطك على، ولئن حدثتك حديثا صدقا تجد على فيه، إنى لارجو عقباى من الله فيه. لا والله ما كان لى عذر ! والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ! (فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما هذا فقد صدقت فيه، فقم حتى

يقضى الله فيك. فقمت، وثار معى رجال من بنى سلمة فاتبعونى، فقالوا لى: [صفحه ۳۱۶] - والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت عن أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك. (فوالله ما زالوا بى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى. ثم قلت لهم: - هل لقى هذا أحد غيرى ؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثلك: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية الواقفى. (فذكروا لى رجلين صالحين فيهما أسوة، فصمت حين ذكروهما لى. ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيما الثلاثة، من بين من تخلف عنه. فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لى نفسى والارض، فما هى بالارض التى كنت أعرف. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج وأشهد الصلوات مع المسلمين وأطوف بالاسواق ولا يكلمنى أحد. وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة فأقول فى نفسى: (هل حرك شفتيه برد السلام على أو لا ؟) ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر الى، وإذا التفت نحوه أعرض عنى. (حتى إذا طال ذلك على من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت [صفحه ۳۱۷] جدار حائط (أبى قتادة) وهو ابن عمى وأحب الناس الى، فسلمت عليه فوالله ما رد على السلام. فقلت: - يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت. فعدت فناشدته مرة بعد مرة، فسكت عنى، فعدت فناشدته فقال: الله ورسوله أعلم. (ففاضت عيناى، ووثبت فتسورت الحائط ثم غدوت إلى السوق. فبينا أنا أمشى إذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام، فجعل الناس يشيرون الى، حتى جاءنى فدفع الى كتابا من ملك غسان، فيه: (أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك. فالحق بنا نواسك). - قلت حين قرأتها: وهذا من البلاء أيضا، قد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فى رجل من أهل الشرك ! (فعمدت بالرسالة إلى تنور فسجرته بها. فأقمنا على ذلك حتى إذا مضت أربعون ليلة، من الخمسين، إذا رسول رسول الله يأتينى بأمره أن أعتزل امرأتى. قلت: أأطلقها أم ماذا ؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبى بمثل ذلك. فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الامر ما هو قاض. وجاءت امرأة (هلال بن أمية) رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: [صفحه ۳۱۸] - يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، أفتكره أن أخدمه ؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك. قالت: والله يا رسول الله ما به من حركة الى، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومنا هذا، ولقد تخوفت على بصره. (فقال لى بعض أهلى: لو استأذنت رسول الله لامرأتك، فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قلت: والله لا أستأذنه بها، ما أدرى ما يقول صلى الله عليه وسلم لى إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. (فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله المسلمين عن كلامنا. ثم صليت الصبح، صبح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا. إذ سمعت صوت صارخ أوفى على ظهر سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج. (ونزعت ثوبى فكسوتهما من جاء يبشرنى، والله ما أملك يومئذ غيرهما، واستعرت ثوبين فلبستهما ثم انطلقت أتيمم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلقانى الناس يبشروننى بالتوبة. حتى دخلت المسجد، فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال لى ووجهه يبرق من السرور: - أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. [صفحه ۳۱۹] قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال: بل من عند الله. قلت: يا رسول الله، إن من توبتى إلى الله عزوجل أن أنخلع من مالى، صدقة إلى الله والى رسوله. قال صلى الله عليه وسلم: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. وقلت: يا رسول الله، إن الله نجانى بالصدق، وإن من توبتى إلى الله أن لا أحدث إلا صدقا ما حييت) [۷۶] الآيات التى بشر بها هؤلاء الثلاثة الذين خلفهم الرسول حتى يقضى الله فيهم، هى آيات التوبة: (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم، إنه بهم رؤوف رحيم - وعلى الثلثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم -). (صدق الله العظيم) ونزلت معها، من سورة التوبة فى أواخر العهد المدنى بعد غزوة تبوك، الآيات البينات (الفاضحة) لزيف المنافقين الممزقة لكل [صفحه ۳۲۰] أقنعتهم. وفيها يعتب الله سبحانه على رسوله أن أذن لهم فى التخلف. وكان، لو

لم یفعل، بحیث یکشف عن خبث سریرتهم ویتبین له کفرهم وارتیابهم: (لو کان عرضا قریبا وسفرا قاصدا لاتبعوک، ولکن بعدت علیهم الشقة، وسیحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معکم، یهلکون أنفسهم والله یعلم إنهم لکاذبون – عفا الله عنک لم أذنت لهم حتی یتبین لک الذین صدقوا وتعلم الکاذبین – لا یستأذنک الذین یؤمنون بالله والیوم الآخر أن یجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله علیم بالمتقین – إنما یستأذنک الذین لا یؤمنون بالله والیوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فی ریبهم یترددون – ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة ولکن کره الله انبعاثهم فثبطهم وقیل اقعدوا مع القاعدین – لو خرجوا فیکم ما زادوکم إلا خبالا ولاوضعوا خلالکم یبغونکم الفتنة وفیکم سماعون لهم، والله علیم بالظالمین – لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لک الامور حتی جاء الحق وظهر أمر الله وهم کارهون – ومنهم من یقول ائذن لی ولا تفتنی، ألا فی الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحیطة بالکافرین – إن تصبک حسنة تسؤهم وإن تصبک مصیبة یقولوا قد اخذنا أمرنا من قبل ویتولوا وهم فرحون – قل لن یصیبنا ألا ما کتب الله لنا هو مولنا، وعلی الله فلیتوکل المؤمنون – قل هل تربصون بنا إلا إحدی الحسنیین ونحن نتربص بکم أن یصیبکم الله بعذاب من عنده أو بأیدینا فتربصوا إنا معکم متربصون –). [صفحه ۳۲۱] وتمضی الآیات بحکم الله فیهم: تنفیهم عن الاسلام أحیاء وأمواتا، وتعزلهم عن مخالطة المؤمنین، وتحرم خروجهم معهم إذا خرجوا للجهاد، حسما لشر الفتنة، وتنهی نبی الاسلام نهیا باتا عن أن یستغفر لهم أو یصلی علی أحد منهم مات أبدا أو یقوم علی قبره: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعین مرة فلن یغفر الله لهم، ذلک بأنهم کفروا بالله ورسوله، والله لا یهدی القوم الفاسقین – فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وکرهوا أن یجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فی سبیل الله وقالوا لا تنفروا فی الحر، قل نار جهنم أشد حرا، لو کانوا یفقهون – فلیضحکوا قلیلا ولیبکوا کثیرا جزاء بما کانوا یکسبون – فإن رجعک الله إلی طائفة منهم فاستأذنوک للخروج فقل لن تخرجوا معی أبدا ولن تقاتلوا معی عدوا إنکم رضیتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفین – ولا تصل علی أحد منهم مات أبدا ولا تقم علی قبره، إنهم کفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون –. (صدق الله العظیم) ثم یقول الله جل شأنه فی نفس السورة: (لیس علی الضعفاء ولا علی المرضی ولا علی الذین لا یجدون ما ینفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله، وما علی المحسنین من سبیل والله عفور رحیم – ولا علی الذین إذا ما أتوک لتحملهم قلت لا أجد ما [صفحه ۳۲۲] أحملکم علیه تولوا وأعینهم تفیض من الدمع حزنا إلا یجدوا ما ینفقون – إنما السبیل علی الذین یستأذنونک وهم أغنیاء، رضوا بأن یکونوا مع الخوالف وطبع الله علی قلوبهم فهم لا یعلمون – یعتذرون إلیکم إذا رجعتم إلیهم، قل لا تعتذروا لن نؤمن لکم قد نبأنا الله من أخبارکم وسیری الله عملکم ورسوله ثم تردون إلی عالم الغیب والشهادة فینبئکم بما کنتم تعملون – سیحلفون بالله لکم إذا انقلبتم إلیهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأوهم جهنم جزاء بما کانوا یکسبون – یحلفون لکم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا یرضی عن القوم الفاسقین –). (صدق الله العظیم) [صفحه ۳۲۳]

سنة الوفود ودخل الناس فی دین الله أفواجا

کانت غزوة تبوک فی شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة. بعدها فیما بقی من شهور السنة، تتابعت وفود القبائل العربیة علی دار الهجرة، ساعیة إلیها من کل وجه، تبایع الرسول صلی الله علیه وسلم علی الاسلام. أسلمت (ثقیف) وکانت قد امتنعت بالطائف یوم حنین. وقدم وفد (همدان) علی رسول الله علیه الصلاة والسلام، مرجعه من تبوک. وجاء وفد (تمیم) وفیه: (قیس بن عاصم، وعطارد بن حاجب، والاقرع بن حابس، وعمرو بن الاهتم، والزبرقان بن بدر). وجاء ضمام بن ثعلبة، فی وفد (بنی سعد بن بکر). والجارود بن عمرو، فی وفد (عبدالقیس) والاشعث بن قیس فی وفد (کندة) وصرد بن عبدالله، فی وفد (الازد). [صفحه ۳۲۴] کما قدم وفد (طیٔ) وفیهم سیدهم الفارس (زید الخیل) الذی قال فیه المصطفی صلی الله علیه وسلم: (ما ذکر لی رجل من العرب ثم جاءنی، إلا رأیته دون ما یقال فیه. إلا زید الخیل فإنه لم یبلغ کل ما کان فیه). ودعاه المصطفی: زید الخیر. وجاء رجال من (بنی زبید) فیهم عمرو بن معدیکرب. ووفد بنی حنیفة، فیهم مسیلمة بن حبیب [۷۷] قال (ابن اسحاق) فی سنة الوفود [۷۸] (وإنما کانت العرب تربص بالاسلام

أمر هذا الحى من قريش وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذلك أن قريشا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكر ذلك. وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش. دخلوا فى دين الله، كما قال عزوجل، أفواجا، يضربون إليه من كل وجه. يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: (إذا جاء نصر الله والفتح - ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا - فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا). (صدق الله العظيم) [صفحه ۳۲۵] الوداع والرحيل ! (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا، وسيجزى الله الشاكرين). (صدق الله العظيم) [صفحه ۳۲۷] تطهرت ديار الاسلام من وباء اليهود، أعداء البشر. وتطهرت أرض المبعث وبلاد العرب من رجس الوثنية، وسقطت أقنعة المنافقين، وعزلوا عن المجتمع الاسلامى، ودخل الناس فى دين الله أفواجا. فهل بقى من رسالة المصطفى ما يؤديه فى عصر مبعثه ؟ بعد سنة الوفود، حج صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فى السنة العاشرة للهجرة، وعلم المسلمين مناسك الحج، وخطب فيهم خطبته المشهورة التى كانت الوصية الاخيرة إلى المسلمين من نبيهم المصطفى عليه الصلاة والسلام، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: (أيها الناس، اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، [صفحه ۳۲۸] كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها. وإن كان ربا موضوع، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله. وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع. وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب - وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل - فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية. (أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا. ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم). وبعد أن بين المصطفى إبطال الاسلام للنسئ، وحدد الاشهر الاربعة الحرم، أوصى بالنساء خيرا، ثم ختم خطبة الوداع بقوله: (فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا: أمرا بينا، كتاب الله وسنة نبيه. أيها الناس، اسمعوا قولى واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت ؟). هتف المسلمون جميعا، ممن شهدوا حجة الوداع: - اللهم نعم. [صفحه ۳۲۹] فقال عليه الصلاة والسلام: (اللهم اشهد) [۷۹] ثم أقام المصطفى بالمدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر. وفيها جهز (أسامة بن زيد بن حارثة) ليخرج إلى الشام فى جند الاسلام، ومعه المهاجرون الاولون. وأمره صلى الله عليه وسلم، أن يصل بالاسلام إلى تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين. وبدا كأن المصطفى أتم رسالته، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين الحق فى الآفاق، وأن يحملوا لواءه الميمون إلى المشرق والمغرب !. ثم يموت محمد بن عبدالله، ويحيا المصطفى فى رسالته، نبى الاسلام المبعوث خاتما للانبياء ومصدقا لما بين يديه من الدين كله. وتكون آيته، بعد أن أتم رسالته، أن يجوز عليه المرض والموت، كما جازت عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها، من حزن وثكل وكره وضيق وكرب، مثلما تجوز على سائر البشر. لكيلا يفتن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول، كما فتن من قبلهم، فاتخذوا نبيهم مع الله إلها. [صفحه ۳۳۰] فى ليال بقين من صفر، فى السنة الحادية عشرة للهجرة، شكا المصطفى من مرض ألم به، فحسب آل البيت النبوى والمسلمون معهم، أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول، دون أن يتصور أحد منهم أنه مرض الموت. وثقل المرض على (محمد بن عبدالله) فاستأذن نساءه أمهات المؤمنين أن يمرض فى بيت عائشة، وقال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس). ولم يطل عليه المرض. أهل شهر ربيع الاول، وخرج أهل المدينة لصلاة الصبح من يوم الاثنين، فبينا هم فى المسجد وأبو بكر يصلى بهم، رفع الستر من باب بيت أم المؤمنين عائشة، وخرج المصطفى عاصبا رأسه، فما كاد الناس يلمحونه حتى كادوا يفتنون فى صلاتهم برؤيته فرحا به، لولا أن أشار إليهم أن (اثبتوا على صلاتكم). وشعر أبو بكر بما كان من المصلين خلفه، فعرف أنهم لم يصنعوا ذلك إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنكص عن مصلاه يفسح مكانه للمصطفى، لكنه دفعه وقال: (صل بالناس). وجلس

صلی الله علیه وسلم عن یمین أبی بکر، فصلی قاعدا، حتی إذا قضیت الصلاة أقبل المسلمون علی نبیهم المصطفی فرحین مستبشرین، یهللون ویدعون ویبارکون. [صفحه ۳۳۱] لم یدروا أنها صحوة الموت ! دخل المصطفی بیته والوقت ضحی، فاضطجع علی فراشه فی حجر زوجه عائشة، فما راعها إلا أن ثقل فی حجرها، ونظرت فی وجهه فإذا بصره قد شخص وهو یقول: (بل الرفیق الاعلی من الجنة) [۸۰] من بیت المصطفی علا نحیب النساء فصکک مسمع المدینة التی کانت قد استبشرت برؤیة الرسول علیه الصلاة والسلام فی صلاة الصبح من ذلک الیوم ! وفی ذهول المباغتة، وجم الناس بین مصدق ومکذب، وکان (عمر بن الخطاب) أشد من أنکروا أن یکون محمد صلی الله علیه وسلم قد مات ! وجاء أبو بکر، وعمر فی المسجد یتوعد من یزعم أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قد مات، قال: عفا الله عنه: (إن رجالا من المنافقین یزعمون أن رسول الله صلی الله علیه وسلم قد توفی ! وإن رسول الله صلی الله علیه وسلم والله ما مات، ولکنه ذهب إلی ربه کما ذهب موسی بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعین لیلة ثم رجع إلیهم بعد أن قیل قد مات، ووالله لیرجعن رسول الله صلی الله علیه وسلم کما رجع موسی، فلیقطعن أیدی رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله صلی الله علیه وسلم مات !). [صفحه ۳۳۲] ترکه أبو بکر لم یکلمه، ومضی لا یلتفت إلی شئ حتی دخل علی المصطفی فی بیت ابنته عائشة، فإذا هو مسجی هناک، فأقبل علیه محزونا حتی کشف عن وجهه فقبله، وقال: (بأبی أنت وأمی، أما الموتة التی کتب الله علیک، فقد ذقتها، ثم لن تصیبک بعدها موتة أبدا). ثم رد البرد علی الوجه الحبیب. وخرج إلی الناس المحتشدین فی المسجد، و (عمر بن الخطاب) ما یزال یکلمهم فدنا منه وقال مترفقا، قد أحس ما أخذ ابن الخطاب من وقع الصدمة: - علی رسلک یا عمر، أنصت ! فلما لم یلتفت إلیه، أقبل علی الناس فحمد الله وأثنی علیه، ثم قال: (أیها الناس، من کان یعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن کان یعبد الله فإن الله حی لا یموت). ثم تلا الآیة، من سورة آل عمران: (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم علی أعقابکم ومن ینقلب علی عقبیه فلن یضر الله شیئا وسیجزی الله الشاکرین). فکأن الناس لم یعلموا أن هذه الآیة نزلت حتی تلاها أبو بکر یومئذ. [صفحه ۳۳۳] أما عمر بن الخطاب، فما هو إلا أن سمع أبا بکر تلاها، حتی وقع إلی الارض ما تحمله رجلاه، وقد عرف أن محمدا قد مات. جهزوه للرحیل یوم الثلاثاء. ثم فتحوا باب بیته لالوف المسلمین فدخلوا علیه یودعونه ویصلون علیه أرسالا: الرجال منهم أولا، ثم الناس، ثم الصبیان. ودفنوه حیث قبض، فی بیت زوجه عائشة بنت أبی بکر. رفعوا فراشه فحفر له تحته، ثم أضجعوه هناک فی لیل الاربعاء من ذلک الشهر، ربیع الاول، السنة الحادیة عشرة من هجرته. دفنوا محمد بن عبدالله الهاشمی القرشی. وعاش الرسول صلی الله علیه وسلم، خاتم الانبیاء. ذاک الذی اصطفاه الله فأرسله بالهدی ودین الحق لیظهره علی الدین کله ولو کره الکافرون. فی فجر تلک اللیلة الغراء من شهر رمضان المبارک، التی خرج فیها أما عمر بن الخطاب، فما هو إلا أن سمع أبا بکر تلاها، حتی وقع إلی الارض ما تحمله رجلاه، وقد عرف أن محمدا قد مات. جهزوه للرحیل یوم الثلاثاء. ثم فتحوا باب بیته لالوف المسلمین فدخلوا علیه یودعونه ویصلون علیه أرسالا: الرجال منهم أولا، ثم الناس، ثم الصبیان. ودفنوه حیث قبض، فی بیت زوجه عائشة بنت أبی بکر. رفعوا فراشه فحفر له تحته، ثم أضجعوه هناک فی لیل الاربعاء من ذلک الشهر، ربیع الاول، السنة الحادیة عشرة من هجرته. دفنوا محمد بن عبدالله الهاشمی القرشی. وعاش الرسول صلی الله علیه وسلم، خاتم الانبیاء. ذاک الذی اصطفاه الله فأرسله بالهدی ودین الحق لیظهره علی الدین کله ولو کره الکافرون. فی فجر تلک اللیلة الغراء من شهر رمضان المبارک، التی خرج فیها مع النور البازغ یتلو الکلمات الاولی من هذا القرآن: معجزة نبوة، وکتاب شریعة، ولواء عقیدة وجهت التاریخ وحررت الانسان. والنور الذی حدا مسری البشریة الامیة من لیل الجاهلیة. وقاد مسعاها إلی آفاق المثل العلیا للحق والخیر والجمال. [صفحه ۳۳۴] (هو الذی بعث فی الامیین رسولا منهم یتلو علیهم آیاته ویزکیهم ویعلمهم الکتاب والحکمة، وإن کانوا من قبل لفی ضلال مبین). صدق الله العظیم

پاورقی

[۱] تجد فی (رسالة الغفران) نصوصا مع هذه، من تلبیات العرب فی الجاهلیة: ص ۵۳۴ وما بعدها. ط خامسة، ذخائر العرب.

[۲] السيرة لابن هشام: الجزء الاول. وانظر معه (الروض الانف) للسهيلى: ۱ / ۲۷ ط الجمالية بالقاهرة.

[۳] القصة بتفصيل فى: السيرة لابن هشام ۱ / ۱۶۲ وتاريخ الطبرى ۲ / ۱۷۳.

[۴] السيرة النبوية لابن هشام: ۱ / ۱۶۵ – ونسب قريش للزبيرى ۱۴ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم: ۱۲، ۱۱۹ ط الذخائر.

[۵] سورة الصافات، الآيات ۱۰۱: ۱۱۱.

[۶] تاريخ الطبرى: ۲ / ۱۷۴.

[۷] السيرة لابن هشام: ۱ / ۱۶۵ وتاريخ الطبرى: ۲ / ۱۷۴.

[۸] نسب قريش: ۱۴، وجمهرة أنساب العرب: ۱۲ ذخائر.

[۹] ص ۲۵ من الترجمة العربية للسحار. وقد ناقشت هذه القضية بمزيد تفصيل فى الفصل الخامس من كتابى (أم النبى) ط دار الهلال بالقاهرة.]

[۱۰] السهيلى: الروض الانف، ۱ / ۳۰.

[۱۱] ابن هشام: السيرة النبوية ۱ / ۵۱.

[۱۲] وانظر الزرقانى فى المولد: ۱ / ۱۳۰، والنويرى فى نهاية الارب ۶ / ۶۸ دار الكتب المصرية.

[۱۳] ابن هشام: السيرة النبوية ۱ / ۲۰۹.

[۱۴] ابن هشام: السيرة النبوية ۱ / ۲۶۲.

[۱۵] فى سورة المدثر، رابعة السور فى ترتيب النزول، على المشهور. وانظر السيرة: ۱ / ۲۸۰ مع تاريخ الطبرى: ۲ / ۲۳۰.

[۱۶] السيرة لابن هشام: ۱ / ۳۴۱.

[۱۷] تفسير الطبرى: سورة الليل.

[۱۸] المشهور أن خباب بن الارت لحقه سباء فى الجاهلية، فاشترته امرأة من خزاعة وأعتقته. وانظر السيرة لابن هشام: ۱ / ۳۸۳.

[۱۹] ابن هشام: السيرة ۱ / ۲۵۴.

[۲۰] السيرة النبوية لابن هشام: ۲ / ۱۰.

[۲۱] السيرة لابن هشام: ۱ / ۳۱۰.

[۲۲] ابن هشام: السيرة النبوية ۱ / ۲۸۸.

[۲۳] السيرة النبويه، عن ابن اسحاق: ۱ / ۳۱۵.

[۲۴] السيرة النبوية لابن هشام: ۱ / ۳۳۷.

[۲۵] من حديث الهجرة. رواه ابن اسحاق – (السيرة النبوية: ۱ / ۳۵۷) – بإسناد عن (أم سلمة) وكانت رضى الله عنها إحدى المهاجرات.

[۲۶] السيرة لابن هشام: ۲ / ۱۱۵.

[۲۷] الاصابة: الجزء الثامن. وتاريخ الطبرى ۳ / ۸۹. والسمط الثمين للمحب الطبرى: ۹۷، ۹۸.

[۲۸] السيرة النبوية لابن هشام: ۱ / ۳۷۹ وتاريخ الطبرى: ۲ / ۲۲۵.

[۲۹] حديث الحصار هنا، منقول من (السيرة النبوية) ۱ / ۳۷۹ و (تاريخ الطبرى) ۲ / ۲۲۵.

[۳۰] أنظر تفصيل الاسراء والمعراج، فى (السيرة النبوية لابن هشام): ۲ / ۳۶ ط الحلبى.

[۳۱] ابن هشام: السيرة، ۲ / ۳۷ واقرأ معه: تفسير الطبرى لآية الاسراء.

[۳۲] ابن هشام: السيرة النبوية: ۲ / ۳۹.

[۳۳] تفسير الطبرى: ج ۱۵ (سورة الاسراء).

[۳۴] ابن هشام: السيرة النبوية ۲ / ۳۲.

[۳۵] السيرة لابن هشام: ۱ / ۱۹۱.

[۳۶] السيرة: ۱ / ۳۲۱.

[۳۷] السيرة النبوية لابن هشام: ۲ / ۶۷، ۷۰.

[۳۸] السيرة النبوية لابن هشام: ۲ / ۶۷، ۷۰.

[۳۹] السيرة لابن هشام: ۱ / ۸۰.

[۴۰] الابيات رواها الطبرى فى تاريخه: ۲ / ۲۴۸. والسمهودى فى (وفاء الوفا): ۱ / ۲۲۸.

[۴۱] السيرة لابن هشام، وتاريخ الطبرى. وقد أسلم أبو جابر وشهد العقبة الكبرى، وكان من نقبائها.

[۴۲] مادة هذا الفصل، مستخلصة من كتاب (وفاء الوفا، بأخبار مدينة المصطفى) للسمهودى. مع مراجعة السيرة لابن هشام، وتاريخ الطبرى.

[۴۳] ولفنسون: تاريخ اليهود فى جزيرة العرب: ۹، ۱۸ ط لجنة التأليف والترجمة والنشر.

[۴۴] بمزيد تفصيل، فى الباب الثانى من كتابى (أعداء البشر).

[۴۵] السمهودى: وفاء الوفا: ۱ / ۲۱۸.

[۴۶] تاريخ اليهود فى جزيرة العرب: ۱۰۹.

[۴۷] المرجع السابق.

[۴۸] السيرة لابن هشام: ۲ / ۱۱۱ وتاريخ الطبرى: ۲ / ۲۴۲.

[۴۹] السيرة لابن هشام: ۲ / ۱۲۵ وتاريخ الطبرى: ۲ / ۲۴۳ وفيهما أسماء من حضروا الندوة من طواغيت قريش.

[۵۰] تفصيل الهجرة، فى الحزء الثانى من: السيرة لابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى.

[۵۱] السيرة لابن هشام: ۲ / ۱۳۷. وتاريخ الطبرى: ۲ / ۲۴۸. ووفاء الوفا للسمهودى: ۱ / ۲۴۴ – وقابل عليها ما فى (تاريخ اليهود فى جزيرة العرب) لاسرائيل ولفنسون: ۱۵۷، ۱۱۱.

[۵۲] تراجم أمهات المؤمنين، مفصلة فى (طبقات الصحابة) ومعها (نساء النبى) (طبعة دار الكتاب العربى) بيروت.

[۵۳] بنصه، عن ابن إسحاق. من السيرة النبوية لابن هشام: ۲ / ۲۳۳.

[۵۴] السمهودى: وفاء الوفا: ۱ / ۲۷۰. والسيرة لابن هشام: ۲ / ۱۶۵.

[۵۵] المحدث: من أحدث فى الاسلام بدعة أو ضلالة أو فتنة.

[۵۶] السيرة لابن هشام: ۲ / ۱۴۹ وتاريخ الطبرى: السنة الاولى للهجرة.

[۵۷] السيرة النبوية لابن هشام: ۲ / ۲۳۷.

[۵۸] تجد نصوص أسئلتهم والرد عليها فى (السيرة لابن هشام) ۲ / ۹۱ وما بعدها.

[۵۹] حديث هذه السرايا بتفصيل، فى الجزء الثانى من السيرة النبوية لابن هشام، وطبقات ابن سعد، وتاريخ الطبرى.

[۶۰] السيرة لابن هشام ۲ / ۳۰۸.

[۶۱] تفصيل حديث الافك، فى (صحيح البخارى) ۴ / ۲۷ ط الشرفية، وفى السيرة لابن هشام وتاريخ الطبرى (حوادث السنة السادسة للهجرة) ومعها (السمط الثمين، للمحب الطبرى) ص ۶۳.

[۶۲] السيرة لابن هشام: ۳ / ۳۲۲.

[۶۳] السيرة: ۳ / ۳۲۷، تاريخ الطبرى: السنة السادسة.

[۶۴] تجد النص، فى السيرة لابن هشام: ۳ / ۳۳۲، وتاريخ الطبرى: ۳۰ / ۸۰، وطبقات ابن سعد: ح ۲.

[۶۵] السيرة لابن هشام: ۳ / ۳۳۳.

[۶۶] السيرة لابن هشام: ۲ / ۳۱۲، تاريخ الطبرى ۱ / ۲۹۳، الاستيعاب لابن عبد البر: ۴ / ۷۳. ۱ – ط الحلبى.

[۶۷] السيرة لابن هشام: ۴ / ۳۶ وتاريخ الطبرى، السنة الثامنة ه.

[۶۸] السيرة: ۴ / ۳۸، تاريخ الطبرى ۳ / ۱۱۲. السمط الثمين ۱۰۰.

[۶۹] السيرة لابن هشام: ۴ / ۳۹ – تاريخ الطبرى: ۳ / ۱۱۳.

[۷۰] السيرة لابن هشام ۴ / ۱۴۳، طبقات ابن سعد ۲ / ۹۸.

[۷۱] السيرة لابن هشام: ۴ / ۸۸.

[۷۲] تفصيل الحديث عن غزوة تبوك، فى: السيرة لابن هشام: ۴ / ۱۵۹، والجزء الثانى من طبقات ابن سعد، والثالث من تاريخ الطبرى.

[۷۳] السيرة النبوية: ۴ / ۱۶۴.

[۷۴] السيرة: ۴ / ۱۶۷، وانظر أبا ذر الغفارى فى طبقات الصحابة.

[۷۵] السيرة لابن هشام: ۴ / ۱۷۰.

[۷۶] من السيرة: ۱ / ۱۷۵. بإسناد إلى الزهرى عن عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك.

[۷۷] هو مسيلمة الكذاب، الذى ارتد وادعى النبوة بعد النبى صلى الله عليه وسلم. وقتل الكذاب فى حروب الردة.

[۷۸] والطبرى فى تاريخه، السنة التاسعة.

[۷۹] السيرة لابن هشام: ۴ / ۲۵۲.

[۸۰] السيرة لابن هشام: ۴ / ۳۰۴.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ ُبْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َيَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريف)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لَم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطَتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و

عموم النـاس إلى التّحَرّى الأدَقّ للمسائـل الدّينيّـة، تخليف المطـالب النّافعـة – مكـانَ البَلاـتيثِ المبتذلـة أو الرّديئـة – فى المحـاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخـَرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّـة الحاليّـة لهـذا المركز، شـَعبيّـة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى

بالقائمیّةِ) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم – فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.



مركز القائمية اصفهان
للتحريات الكمبيوترية
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹